فريدريش نيتشه



ما وراء الخير والشر

تباشير فلسفة للمستقبل

الفارابي

ما وراء الخير والشر

عنوان الكتاب الأصلي

Jenseits von Gut und Böse,

Vorspiel einer Philosophie der Zukunft

Von Fredrich Nietzsche,

1886

أمهات النصوص الفلسفية

فريدريش نيتشه

ما وراء الخير والشر

تباشير فلسفة للمستقبل

ترجمة:
جيزيلا فالور حجّار

مراجعة:
موسى وهبه

ANEP ـــ دار الفارابي

الكتاب: ما وراء الخير والشر

المؤلف: فريدرش نيتشه

المترجم: جيزيلا فالور حجّار

مراجعة: موسى وهبه

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

* **المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213

الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 2003

ISBN: 9953-438-60-9

دار الفارابي

شركة المطبوعات اللبنانية ـ لبنان

منشورات **ANEP**

إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو

بئرمراد رائس ـ الجزائر

الهاتف: 58 95 44 21 213

الفاكس: 65 95 44 21 213

المحتويات

تقديم الطبعة العربية

1

ربّما لا يصحّ أن تقرأ هذا الكتاب، وأيّ كتاب آخر لفريدرش نيتشه، وأنت عابس أو جِدّيّ مُفرِط في الجِدِّية: كأن تحسب، مثلاً، أن المهمّ هو تلخيص أفكاره وتبويبها بهدف حفظها وتعليمها على غرار ما كنت لِتفعل مع فلاسفة غدوا كلاسيكيّين. ذلك أن التفلسف عند نيتشه يُعانِد التلخيص إلى مضمون ميسَّر يسهل تناقله.

بل قلْ إن «المضمون» النيتشوي في صيرورته مدرسة ومعتقداً قد يؤدّي ـ وقد أدى بالفعل مع الاشتراكيّة الوطنيّة الألمانية (النازيّة) ـ إلى كارثة فلسفيّة محققّة، وربما إلى ما يناقِض البادِرة النيتشوية نفسها، تلك البادرة التي يسميّها نيتشه: «التفلسف بالمطرقة»، أي طَرْقُ ما يرْكُنُ إليه العصر (عصره) من أفكار واعتقادات. وهي أصنام فارغة، على ما يرى نيتشه، وطرقها يجعلها تحسّ فراغها وخواءها.

والطَّرْق (الضرب بالمطرقة) لجعلنا نحسّ خواء ما نعتقده يختلف عن توسل البرهان والحِجاج لجعلنا نقتنع بصواب فكرة ما أو رأي. إنه إذن معاندة ومعارضة للأسلوب الفلسفي التقليدي

الذي يعرّف عنه نيتشه بوصفه أسلوب التمويه وأسلوب تشويه طبيعة الفكر الحقيقيّة. والأسلوب الذي يتوسّل «شبه تنظيم استنباطي جدلي» ليزوِّر الأشياء والأفكار التي يتمّ التوصّل إليها من طرق أخرى تماماً، فيمنع بذلك إدراك نشأة التفكير وما فيه من «عصبيّ» وحيّ ومباشر وعفويّ بل من جسديّ:

فالكتابة الفلسفية السائدة زمن نيتشه (الجدليّة) تظن أنّه يمكن أن يكون ثمّة اتصال وتطابق بين التفكير والتعبير عنه. وإن كلّ شيء يمكن أن يقال بوضوح وتميّز وإفصاح بفضل قوّة الحجّة والبرهان.

أما الكتابة المَقطعِيّة (بشذرات مرقّمة) المعتمدة هنا وفي معظم كتب نيتشه اللاحقة فتشكّل التعبير المناسب عن الشكّ في إمكان هذا التطابق. إنّ المقطع الذي تفصله فسحة بياض عن المقطع الذي يليه، يعرض على نحو أصيل القَطَعْ الجذريّ بين الفكر وعباراته. وهو يسعى إلى إظهار قدرة الفكر وحياة الرغبات الصمّاء الغامضة، حياة العواطف والغرائز.

إلى ذلك، يريد أسلوب المقطع أن يثبت أن ليس على الفكر أن يشرح نفسه، بل عليه أن يفرض نفسه بالأحرى ويؤكّدها. والاختلاف في النهاية هو اختلاف في الذوق ولا مجال للمصالحة في الأذواق.

وقل إن أسلوب المقطع لا يسعى إلى الإقناع ولا إلى أن يكون على حقّ، لأن الحقيقة لا تقوم في الشفافية ولا في وضوح الأفكار، لأن كلّ وضوح مخادع. والأسلوب القائم على نزع الأقنعة والتعرية عليه أن ينزع ويعرّي إلى ما لا نهاية من دون أن يستطيع الزعم بأنه رفع القناع الأخير.

وأسلوب المقطع هو، أخيراً، الأسلوب الذي يناسب للتعبير عن «الروح الحر» وفيلسوف المستقبل والسيّد، في مقابل الجدل والسستمة التي تناسب أذواق الرعاع وأفراد القطيع.

2

قد لا يصحّ إذن أن تقرأ هذا الكتاب بالعربية اليوم وأنت عابس أو ناظر إلى مضمونه وحسب، لأن مضمونه منافٍ بالتأكيد لما يتوقّع قارىء الفلسفة بالعربية اليوم: «فهذا الكتاب في جوهره، نقد للحداثة» على ما يقول نيتشه نفسه. نقد لا تُستثنى منه لا العلوم الحديثة ولا الفنون الحديثة ولا حتّى السياسة الحديثة. إنّه خلْخلة، من منظور ارستقراطي، لِقيَم «التمدّن» كلّها المرفوعة راياتٍ خفّاقة على أسوار «الحاضرة» اليوم: بدءاً من الموضوعية العلمية ومطلب الحقيقة المجرّدة وصولاً إلى المساواة والتقدّم، مروراً بحقوق الإنسان والمواطن، وأخلاق التراحم والعطف، وحقوق المرأة، وحقّ الشعوب في...

وأهميّة هذا الكتاب وهو كتاب مركزي بين مؤلفات نيتشه، يأتي بعد **هكذا تكلّم زرادشت**، وينتمي إلى المرحلة الختاميّة من سيرة نيتشه الفكريّة، ويشكّل حقل اختبار للأفكار الدينامية التي تميّز بها نيتشه من سواه من الفلاسفة: من إرادة القدرة الى العود الأبدي والفوق ـ إنساني، مروراً بتخطّي الثنائية الميتافيزيقية في وهم الذات وحرية الارادة وتناقض القيم.

أقول: أهميّة هذا الكتاب تكمن لا في ما يقول ويُثبت، بل في كيف يقول ويثبت. أهميّة نيتشه تكمن بالأحرى في منهجه النسابيّ (الجينايولوجيا). في كونه إذ يُظهر تعدد المعاني المفترضة واحدةً في الأفهوم، يَهْدم المنطق القائم على مبدأ الهويّة من أساسه. ويفتح الباب، إذ يعاند السستمة، واسعاً على اللامتناهي. ويوقظ «الروح الفلسفي» من «سباته الدغمائي» فيغدو شرطاً لا بدّ منه من شروط امكان القول الفلسفي وتجدّده في طول القرن العشرين وعرضه.

3

وقد اعتمدت المترجمة في نقلها هذا الكتاب على النص الألماني لـ ما وراء الخير والشر الصادر في أواخر الستينيات ضمن الطبعة النقدية لكامل أعمال نيتشه، بإشراف الإيطاليين ج. كولي وم. مونْتِناري، التي أعيد طبعها في الثمانينيات كـ «طبعة أكاديمية نقدية». وكان هذا الإصدار، وهو الأهم لأعمال نيتشه ثمرةً للبحث الفيلولوجي للثنائي الإيطالي الذي انتقل في الستينيات إلى ڤايْمار ليقوم بفحص جميع المخطوطات المحفوظة في أرشيف نيتشه فحصاً دقيقاً. وكانت الحصيلة لافتة ومهمة جداً، إذ أدّت إلى «إعادة تقييم» تراث نيتشه بكامله.

إلَّا أنّها من أجل إغناء الطبعة العربية وإضفاء المزيد من الوضوح عليها، واقتداءً بما فعله نيتشه حيث زوّد معظم شذراته بعناوين تشير إلى مضمونها، أضافت إلى النص المذكور عناوين الفقرات التي عثرت عليها في الطبعة الألمانية الصادرة عام 1895 عند ناوْمان في لايْپْتْسِغ (كان الكتاب قد صدر لأوّل مرّة عام 1886، وكان نيتشه نفسه الناشر وكان ناوْمان الموزّع الذي أعاد الطبعة أربع مرّات في تسعينيات القرن نفسه).

في هذا الكتاب الذي يعدّه نيتشه بمثابة استراحة من الإفراط في الرفق الذي ميّز زرادشت يحسن نيتشه، هذا «الفيلولوجي العتيق» استثمار الوسائل اللغوية المتاحة ويتقن «استعمال» لغته وألفاظها؛ يعيد إليها حياتها و«يعمّقها» ويترك، مع ذلك أو بسبب من ذلك، مجالاً وفسحة للإضمار وحتى لسوء الفهم. فهو يريد «نقل المشكلات كلها إلى الشعور وصولاً إلى الشغف». ولذا جاءت مصطلحات الكتاب وأفاهيمه بحلَّة لم نعهدها من قبل؛ فهي ليست

مجرّدة ومنقّاة و«ذهنية»، بل قاسية وصارمة وانفعالية، من دون أن تكون وليدة العشوائية. يستفيد نيتشه، على سبيل المثال، من مشتقات اللفظ Grund (أساس) فيستثمر Begrundung (تأسيس)، Abgrund (سحق)، abgründig (سحيق الأغوار)، Vordergrund (واجهة)، Hintergrund (خلفية)، ليشير إلى شبهة دعاوى الفلاسفة أو يوحي باستعماله لفظي Wissen (علمان) وGewissen (وجدان) إلى علاقة قائمة بينهما، أو يقارن بين Erkenntnis (معرفة) وErkennen (عَرْف) وzu Ende-kennen (عرف نهائي)، أو يربط ويفرّق، حسب الحاجة، بين Finden (عثر على) وErfinden (اخترع)، بل يخترع أحياناً اشتقاقاً معيّناً لدعم وجهة نظره، علّه يعثر على...

4

وأرادت المُترجمة أن تكون أمينة للأصل، فلا تتصرّف بترتيب المعاني إلَّا حين يقتضي التركيب العربي ذلك. إلَّا أنه كان عليها أن تعدّل علامات الوقف في الجمل. فنيتشه «يحرّك» نصّه بالعديد منها كالنقط والفواصل والمعترضات وعلامات الاستفهام والتعجب، وعلى نحو يختلف معه استعمالها ومؤداها في الكتابة الألمانية عنهما في الكتابة العربية اليوم. وهكذا استبدلت سستام الترقيم أو بالأحرى «التحريك» عنده بما يناسب ترقيم الكتابة العربية. فأبدلت أحياناً المعترضة (ـ) بنقطتين (:)، أو الفاصلة (،) بنقطة (.)، أو علامة الاستفهام بفاصلة (،) وهكذا...

ولم تصادف صعوبات فعلية إلَّا في إيجاد المصطلحات العربية المناسبة لتأدية المعاني النيتشوية، وبخاصّة حين التزمت بقاعدة

عمل الترجمة القائلة: لكلّ مصطلح مختلف عديل مختلف. وقد أسهمتُ، إلى جانب المترجمة، في هذا المجال تخصيصاً:

فكان علينا أن نجد لفظين مختلفين لكل من der Trieb وder Instinkt فأديناهما بـ غريزة وفطرة. ولكل من das Gewissen وdas Bewusstsein فأديناهما بوجدان ووعي. ولكل من der Wille وdas Wollen فأديناهما بـ إرادة ويُريد حين سمح السياق بذلك. ولكل من das Wissen وdie Wissenschaft عِلْمان وعلم، (وقد لجأنا إلى توليد لفظ العِلْمان لتأدية هذا المعنى الألماني Wissen عديل savoir الفرنسي (وهو غير موجود بالانكليزية) ومعناه يعادل لفظ العلم في العربية الكلاسيكية في مثل قولك علم الله وعلم الكلام وعلم الأنساب وأعلم أن... والعلم في مقابل الجهل إلخ... (وقبل ظهور العلوم الحديثة واستئثارها بلفظ العلم).

في المقابل وضعنا لفظين عربيين بإزاء gut الألماني فقلنا: حسن في مقابل سيّىء وخيّر في مقابل شرير.

وكان قد درج، في العربية، استعمال «إرادة القوة» في الكلام على نيتشه وعنه. وتلك غفلة ثابتة تصدر عن الركون إلى الترجمة الفرنسية volonté de puissance لتعبير نيتشه der Wille zur Macht؛ ولاحقاً استدرك الناقل الفرنسي هذه الغفلة فقال volonté de pouvoir وانتقل التعبير بسرعة نسبية إلى العربية تحت: «إرادة الاقتدار». إلّا أن التعبير الفرنسي الجديد ظل يحجب معنى «zur» الألماني (= إلى، نحو إلخ). وكان ينبغي الاعتناء على نحو أفضل بهذا الأفهوم المركزي الذي يظهر عند نيتشه للمرة الأولى في هذا الكتاب. ويَعني به نيتشه، حسب أفضل الشراح، السعي إلى القدْرة والاستطاعة سعياً يتخطى القُدْرة نفسها باستمرار نحو مزيد من القدرة وسعياً لا يقوم به ذات مريد مزعوم، بل على نحو

يصحّ معه القول إن القدرة نفسها هي ما يريد في الإرادة، وإن هذا السعي المتصل ليس خاصاً بفئة دون أخرى (ليس حكراً على السيّد).

وهكذا استثمرتُ ما يخصّني في هذا الكتاب من المصطلحات التي درج استعمالها بفعل تدريسي للفلسفة كتلك التي ذكرتُ أو التي لم أذكر مثال: أفهوم بإزاء der Begriff، وسطيّ بإزاء mittelmässig، وروح (بصيغة المذكر) بإزاء der Geist ومشتقات: رَوْحن وروحنة، وسبْعية بإزاء die Grausamkeit، أو تلك المولّدة حديثاً كـ أُشْعور جمع أشاعير بإزاء der Affekt. والحق أن هذا التوليد الأخير ما زال يقلقني على الرغم من أنه يؤدّي ما هو مقصود منه، أي إخراج معناه من دائرة التأثر السلبي والتوجّه به نحو القدرة على توليد مشاعر وانفعالات.

أخيراً، نقدّم هذه الترجمة إلى قراء العربية ـ وهي، على حدّ علمي، الترجمة الأولى لهذا الكتاب الرئيسي لفريدريش نيتشه والترجمة الوحيدة لكتاب له عن لغة الأصل الألمانية ـ لا بقصد البرهان على عبقرية العربية ولا بقصد الترويج لنقد الحداثة ـ لأن مثل هذه الرهانات لا تدخل في حسباننا ـ بل بقصد متواضع هو إطلاع قرّاء العربية عينيّاً على تراث يفعل في ثقافتهم بالسمع والتناقل والإخبار، وبقصد آخر أقل تواضعاً هو متابعة التمرّن على القول الفلسفي بالعربية اليوم.

موسى وهبه

تصدير

هب أن الحقيقة امرأة: ألا يدفع ذلك إلى الظن بأن الفلاسفة جميعاً، من حيث هم دُغُمائيون، قد أساؤوا فهم النساء، وبأن ما بدا عليهم من عبوسٍ رهيب وإلحاح غشيم في سعيهم إلى الحقيقة كان وسائل غير لائقة وغير لبقة، وبخاصة من أجل استمالة امرأة؟ المؤكّد، هو أنها لم تُستمَل: فكل ضرب من ضروب الدُغْمائية يقف أمامها اليوم بوجلٍ وأسى، هذا إذا كان لا يزال يقف أصلاً! لأن ثمة متهكمين يزعمون أن الدُغْمائية سقطت، أن كل دُغمائية هي في الحضيض. بل أكثر أيضاً، أن كلّ دُغْمائية تلفظ أنفاسها الأخير. لنتكلّم بجد، ثمة أسباب وجيهة تعزز الأمل بأن كل دَغْمأة في الفلسفة، وأياً كان وقارها وصلاحها النهائي والأخير، هي مع ذلك مجرد صبيانية رقيقة وطيش مبتدىء. ولعلّنا نقترب كثيراً من الزمن الذي سنفهم فيه، مرّة تلو مرّة، أن ما كان يكفي كحجر أساس لمثل تلك العمارات الفلسفية الساطعة اللامشروطة التي كان يشيّدها الدغمائيون حتى الآن، إنما هو نوع من خرافة شعبية تعود إلى زمن غابر لا يبلغه فكرنا (مثال خرافة النفس التي لا تزال تعيث فساداً حتى اليوم بحلّة خرافة الذات والأنا)، أو ربما نوع من اللعب اللفظي والحيلة النحوية والتعميم الجسور لوقائع ضيّقة جداً، وشخصية جداً، إنسانية جداً ومفرطة في الإنسانية. إن فلسفة الدغمائيين وعدٌ

نرجو أنْ لا يعمّر إلّا آلافاً من السنين، شأنه في ذلك شأن التنجيم الذي بُذِل لخدمته، في زمن أقدم، من الجهد والمال والذكاء والصبر، ما يزيد عما بُذِل حتى الآن لخدمة أيِّ علم حقيقي: إننا ندين، له ولدعاويه في «تجاوز الدنيوي»، بالطراز المعماري العظيم في آسيا ومصر: يبدو أن كل الأشياء العظيمة يجب أن تجول بدءاً حول الأرض، متنكّرة بأقنعة الجبروت والهول، كي تخطّ مطالبها السرمدية في قلب البشرية. لقد كانت الفلسفة الدُغْمائية قناعاً من هذه الأقنعة المفْزِعة؛ وعلى سبيل المثال، تعاليم الفيدانتا[1] في آسيا والأفلاطونية في أوروبا. ولا نريد أنْ ننكر لها الجميل، وإن وجب الاعتراف بأن أردأ أضلولة وأكثرها خطراً واستطالة حتى الآن كانت الأضلولة الدُغْمائية، أعني اختراع أفلاطون للروح المحض وللخير في ذاته. لكن الآن، وقد تغلّبنا عليها، ها هي أوروبا تتنفّس الصعداء من هذا الكابوس وتتمتّع على الأقل بنوم أكثر صحة، وها نحن، مَن مهمّتُهم اليقظة بعينها، ها نحن نرث القوة كلها التي نمّاها النضال ضد هذه الأضلولة. وبالفعل، لو تكلمنا على الروح والخير كما فعل أفلاطون، لقلبنا الحقيقة رأساً على عقب ولأنكرنا المنظورية[2] ذاتها وهي الشرط

(1) نسق فلسفي هندي قديم (القرن الثالث) ينطلق من بَرْهَمنْ أو النفس الكلية، بوصفه المبدأ الروحي الأساسي لكل الكون. ويبحث في العلاقة بين النفس البشرية والنفس الكلية في ما إذا كانتا مختلفتين أم متّحدتين.

(2) das Perspektivische، من per وspectare نظر إلى... من خلال... المنظورية هي أفهوم أساسي في فلسفة نيتشه التي ترفض القيم والمقاييس المطلقة، وتقبل حصراً بتأويلات للعالم. أما صلاح هذه التأويلات فهو من حيث المبدأ نسبي أبداً، لأنه منسوب إلى منظور معين تعبّر عنه تقييمات ترجع بدورها إلى مطالب فيزيولوجية للحفاظ على نوع معين من الحياة.

الأساسي لكل حياة. ويحق للمرء أن يسأل كالطبيب: «كيف أُصيبت أجمل نبتةٍ شاهدَها القدم، كيف أُصيب أفلاطون بهذا الداء؟ هل أفسده سقراط الشرير؟ أكان سقراط حقاً مفسداً للشباب، واستحقّ إذاً كأس الشَوْكَرَان»؟ ـ إلّا أن النضال ضدّ أفلاطون أو، إن شئنا أن نُفهم «الشعب»، ضدّ الضغط المسيحي الكنائسي المستمر عبر آلاف السنين ـ لأن المسيحيّة هي أفلاطونيّة مخصّصة للشعب ـ هذا النضال خلق في أوروبا يقظة روحية مشدودة ورائعة لم يسبق لها مثيل على الأرض: ويمكننا الآن، بقوس مشدود إلى هذا الحد، أن نصيب أكثر الأهداف بعداً. وصحيح أنّ الإنسان الأوروبي قد حسب هذه اليقظة حال شِدّة وحاول مرتين على نطاق واسع أن يرخي شَدّة القوس، مرة باليسوعية ومرة أخرى بالتنوير الديموقراطي: ـ وقد ينجح هذا الأخير فعلاً، إذ تسعفه حرية الصحافة ومطالعة الجرائد، في أن لا يستسهل الروح حسبان نفسه في «شِدّة»! (لقد اخترع الألمان البارود، لهم كل التقدير! لكنهم ضيّعوا كل شيء إذ اخترعوا الصحافة) ـ لكن، نحن الذين لسنا يسوعيّين ولا ديموقراطيّين ولا ألمان بما فيه الكفاية، نحن \الأوروبيّين \الصالحين، نحن الأرواح الحرّة، الحرّة جداً، لا نزال نمتلكها هي، نمتلك شِدّة الروح وشَدّة قوسها كلها! وربما السهم أيضاً والمهمّة؟ ومن يدري، ربما الهدف...

سيلس ـ ماريا
أُوبر أنغادين
حزيران| جوان، 1885

الفصل الأول

في تحكيمات الفلاسفة

1

أوديب الجديد: إرادة الحقيقة التي ستودي بنا أيضاً إلى مجازفات عديدة، تلك الحقّانية الشهيرة التي تكلم عليها الفلاسفة جميعاً بإجلال حتى الآن، إرادة الحقيقة هذه ـ كم من الأسئلة قد طرحت علينا! يا لها من أسئلة عجيبة ورديئة ومريبة! إنّ لها بالفعل تاريخاً طويلاً، وإن بدا أنّه لا يزال في أوّله؛ فلا عجب إذا ما انتهينا الى الارتياب، إذا ما فقدنا صبرنا وتبرّمنا بالأمر؟ إذا ما علّمتنا هذه السفينكس[1] أن نطرح الأسئلة بدورنا؟ وأصلاً، مَن ذا الذي يطرح علينا الأسئلة هنا؟ وأصلاً، ما الذي فينا يصبو «إلى الحقيقة»؟ ـ لقد توقفنا بالفعل مطولاً أمام السؤال عن منبت هذه الإرادة، حتى استقر الأمر بنا كليّاً، في آخر المطاف، أمام سؤال أكثر عمقاً، إذ سألنا عن قيمة هذه الإرادة. وعلى افتراض أننا

(1) sphinx: «الخانِقة».

نريد الحقيقة: لم ليس بالأحرى اللاحقيقة، اللايقين وحتى الجهل؟ أتكون مشكلة قيمة الحقيقة هي التي اعترضتنا، أم ترانا نحن الذين اعترضنا المشكلة؟ فمن منّا أوديب هنا؟ ومن السفينكس؟ إنّه، على ما يبدو، موعد للأسئلة وعلامات الاستفهام. وهل يصدَّق أنه يخيل إلينا آخر الأمر وكأن هذه المشكلة لم تطرح بعد مرّة، وكأنّنا نشاهدها ونبصرها ونجازف بخوضها للمرّة الأولى؟ لأنّ ثمّة مجازفة هنا، وما من مجازفة أكبر منها على الأرجح.

2

السفينكس: «كيف يمكن لشيء ما أن يتولّد عن ضده؟ وعلى سبيل المثال، أن تتولّد الحقيقة عن الضلال، أو إرادة الحقيقة عن إرادة الخداع، أو الفعل الغيريّ عن المصلحة الذاتيّة، أو نظر الحكيم النيّر الخالص عن الشهوة؟ إن تولداً من هذا النوع ممتنع: ومن يحلم به أخرق، لا بل أردأ من ذلك... إذ يجب أن يكون للأشياء ذات القيمة الأسمى منبع آخر وخاص؛ فهي لا يمكن أن تشتقّ من هذه الدنيا الفانية الغاوية الخادعة الوضيعة، من هذا الهرج والمرج من الأوهام والأهواء: لا! إن منبعها يجب أن يكمن هناك، في حضن «الكون»[1]، في اللاّ ـ فاني، في الإله المخفي، في الشيء في ـ ذاته، هناك وليس في أيّ محل آخر!» ـ يجسّد هذا النوع من الأحكام التحكيمةَ المميّزة التي تجعلنا نتعرّف إلى الميتافيزيقيين في الأزمنة جميعها. ويحتل هذا النوع من التقييمات خلفيّة تدابيرهم المنطقية كلها. وانطلاقاً من «إيمانهم»

---

(1) مصدر كان.

هذا، يجتهدون في «علمانهم»، في ما يعمِّدونه آخر الأمر في جو مهيب باسم «الحقيقة». إن إيمان الميتافيزيقيين الأصلي هو الإيمان بتضادّ القيم. ولم يخطر على بال حتى من كان الأكثر حذراً من بينهم أن يشكّ في الأمر وهو ما زال على العتبة، هناك حيث كان بأمسِّ الحاجة الى الشكّ، وذلك حتى لو أقسم بأن «يشكّ في كل شيء»[1]. يجوز للمرء حقّاً أن يشكّ أولاً في ما إذا كان ثمّة من أضداد على الإطلاق، وثانياً في ما إذا كانت تلك التقييمات وأضداد القيم الشعبية التي طبع عليها الميتافيزيقون بخاتمهم، مجرد تخمينات سطحية، ومجرد منظورات مؤقتة، منظورات من زاوية معيّنة ربما، من أسفل إلى أعلى ربما، منظورات أشبه بمنظور الضفدعة إن صحّ هذا التعبير المستعار من الرسامين الذين درّجوه؟ ومع الإقرار بكلّ القيمة التي قد تكون للحقيقي والحقّاني والغيري، فإنه من الممكن في نظر كلّ حياة أن يكون علينا أن نولي التظاهر وإرادة الخداع والمصلحة الذاتية والرغبة قيمة أعلى وأكثر أساسيّة. بل من الممكن كذلك أن يكون قوام ما يجسد قيمة تلك الأشياء الخيّرة والمحترمة بالضبط، هو أنها قريبة نسب ومقترنة ومتناسجة بطريقة تثير الحرج مع تلك الأشياء الرديئة والمضادّة لها ظاهرياً، أو هو أنها مماثلة لها ربمّا. ربمّا! لكنْ من يريد أن يهتم بمثل هذه الربّما الخطرة؟ من أجل ذلك، علينا أن نترقب إقبال جنس جديد من الفلاسفة، من أولئك الذين لهم ذوقٌ ما وميل ما مغاير ومعاكس لأسلافهم ـ فلاسفة الربّما الخطرة بكلّ معنى من المعاني. ولنقل بكلّ جدّ: إني أرى بزوغ مثل هؤلاء الفلاسفة الجدد.

---

(1) De omnibus dubitandum (ديكارت).

3

في الفكر «المستقل»: حين أطلت النظر إلى أصابع الفلاسفة[1] وقرأت بين سطورهم بما فيه الكفاية، قلتُ لنفسي: على المرء أنْ يحسب القسم الأكبر من التفكير الواعي نفسه من ضمن الأفعال الفِطْريّة، وينطبق هذا حتّى على التفكير الفلسفي؛ وعلينا أنْ نعيد النظر هنا كما أعدناه بالنسبة إلى الوراثة و«الجبلّي». فكما أنّ فعل الولادة قلّما يؤخذ بالحسبان بالنظر الى مجمل مسار التوارث، كذلك فإنّ «الوعي» قلما يضاد الفِطْريّ بمعنى قاطع، ـ ففِطَر الفيلسوف توجّه خفيةً معظم تفكيره الواعي وتصبّه في مجارٍ معينة. ووراء المنطق كلّه وما يظهر عليه من ترفّع في الحركة، تختبىء أيضاً تقييمات، وبعبارة أوضح تختبىء مطالب فيزيولوجيّة للحفاظ على نوع معيّن من الحياة. وعلى سبيل المثال، أن يكون المتعيِّن أكثر قيمة من اللامتعيِّن، وأن يكون ما يتراءى أقل قيمة من «الحقيقة»: وقد تكون مثل هذه التقييمات، مع أهميتها التنظيمية بالنسبة إلينا، مجرد تخمينات سطحيّة، أو نوعاً معيّناً من الترهات قد يكون ضروريّاً، وبالضبط، للحفاظ على كائنات من نوعنا نحن. وبخاصة حين نفرض أنّ الإنسان تحديداً ليس «مقياس الأشياء». . . .

4

حقائق لا حقيقية ضرورية للحياة: إن خطأ حكم ما لا يشكّل

(1) ترجمة حرفية: «أطلت النظر إلى أصابع الفلاسفة»، عبارة ألمانية تدل على الارتياب في شخص ما ووجوب مراقبته مراقبة دقيقة.

عندنا مأخذاً على الحكم. ولعلّ هذا من الأمور الأغرب وقعاً على السمع في لغتنا الجديدة. فالمسألة هي بالأحرى: إلى أيّ مدى يكون [الحكم] منمّياً للحياة، محافظاً على الحياة، محافظاً على النوع، بل ربما محسِّناً للنوع؟ ونحن نميل مبدئيّاً إلى الزعم بأن أكثر الأحكام خطأً (ومن بينها الأحكام التأليفيّة القبليّة) هي الأكثر لزوماً لنا. فمن دون التسليم بالأوهام المنطقيّة، ومن دون قياس الواقع بعالم اللامشروط المساوي لذاته والمختلق تماماً، ومن دون تزييف مستمر للعالم بواسطة العدد، قد لا يمكن للإنسان أنْ يعيش ـ بحيث يكون الاستغناء عن الأحكام الخاطئة استغناءً عن الحياة ونفياً للحياة. فأنْ نقرّ باللاحقيقة شرطاً للحياة يعني بالطبع أنْ نبدي، وبصورة خطرة، مقاومة ضد ما اعتدنا عليه من مشاعر قيميّة(5). إن فلسفة تجازف بهذا، تطرح نفسها، وبهذا وحده، ما وراء الخير والشر.

5

علميّة متكلّفة: ما يثير المرء ويحثّه على النظر إلى الفلاسفة

---

(5) بدل الجملة التالية جاءت خاتمة المقطع في الصياغة الأولى على النحو التالي: «والمطلوب هنا بالذات، إن صحّ هذا في محل ما، أن يتفادى المرء «الموت نزفاً» بفعل ما «عرفه من حقيقة». ففي هذا الوضع الذي يبلغ فيه الخطر أقصاه يجب عليه فوراً أن يستنهض فِطَر الإنسان الأصلية المبدعة، تلك التي هي أقوى من كل مشاعر قيمية لأنها والدة المشاعر القيمية نفسها، ولها، في التوليد المستمر، سموّ تعزيتها عن هلاك أولادها المستمر. وأخيراً: أية قوة يا ترى؟ استطاعت أن تجبرنا على جحد ذلك «الإيمان بالحقيقة»، إن لم تكن الحياة نفسها بكل فِطَرها الأصلية المبدعة بحيث لا يكون بنا حاجة إلى استنهاض هذه الوالدة: ـ ها هي ناهضة عيونها فينا، وها نحن ننفّذ ما أقنعنا به سحرها» (هامش من طبعة 1895).

جميعاً بنصف ارتياب ونصف تهكم، لا يعود إلى الاكتشاف المتكرّر لعظيم براءتهم - لكثير خطأهم وضلالهم ويسيرهما، وباختصار لطيشهم وصبيانيّتهم - بل لكونهم لا يتمتعون بنزاهة كافية: مع أنهم جميعاً يُحْدِثون جلبة كبيرة تنضح فضيلة ما إن يحاول المرء أنْ يمدّ يده، وإنْ عن بُعد، كي يمسّ مسألة الحقّانية. وهم يتظاهرون جميعاً وكأنهم اكتشفوا آراءهم الأصلية أو توصّلوا إليها بالتطوير الذاتي لجدل باردٍ نقيٍّ إلهي الصفاء (خلافاً لمختلف رتب المتصوّفين الذين، وهم أكثر صدقاً وبلاهة، يتكلمون على «الإلهام»)، بينما يدافعون، في الواقع، وبواسطة مبادىء يبحثون عنها فيما بعد، عن قضية يسلّمون بها سلفاً، عن خاطرة، عن وحي»، أو في الغالب، عن رغبة عزيزة على قلوبهم، ينخلونها ويجرّدونها: - فكلّهم محامون، وهم لا يقبلون هذا اللقب، لا بل كلّهم في الغالب شفعاء مكرة لتحكيماتٍ خاصّة بهم يعمّدونها «حقائق» - وما أبعدهم عن شجاعة الرأي التي تقرّ بذلك بالضبط، وما أبعدهم عن ذوق شجاعة الرأي الذي يُفصح أيضاً عن ذلك، يُفصح عنه سواءً لتحذير خصم أو صديق، أم للهزء من الذات بفعل بطرٍ مقدام. كنط العجوز يجرّنا بريائه المتكلف والمحتشم معاً إلى الشعاب الجدلية التي تقودنا، أو بالأحرى، تودي بنا إلى «الأمر الحملي»[1]. فيا لها من تمثيلية تجعلنا نبتسم، نحن المدلّلين، لأننا نجد متعة ليست بصغيرة إذ نراقب أصابع الأخلاقيين والوعّاظ العجائز وهي تؤدي حيلها

---

(1) Der kategorische Imperative الأوامر التي تعبّر عن مبدأ الواجب هي عند كنط (نقد العقل العملي) أوامر لأنّه ما من شرط يحدها (بعكس الأوامر الشرطية). وهي تشير إلى الضرورة الموضوعية للفعل من دون نسبةٍ إلى غاية أخرى.

اللطيفة. اسبينوزا ـ حدِّث عنه ولا حرج ـ بشعوذاته ذات الصورة الرياضية، يدرّع فلسفته ـ «حبه لحكمته»، تفسير صحيح ومنصف للكلمة ـ ويقنّعها ليثبط بدءاً عزيمة أيّ معتدٍ قد يجازف بإلقاء نظرة على هذه العذراء المحصنة، على أثينا الفتاة[1]. فكم ينمّ تنكّر ذلك الناسك المريض عن حياءٍ ووهن!

6

في ذاتية الفلسفات: لقد اكتشفت شيئاً فشيئاً ما كانت عليه كلّ فلسفة كبيرة حتى الآن: أعني أنّها اعتراف ذاتي لصاحبها، ونوع من المذكرات من غير أن يقصد أو يلاحظ، وأنّ النوايا الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) شكّلت في كل فلسفة بذرة الحياة الأصلية التي انبثقت عنها، في كل مرة، النبتة برمتها. وإذا ما أردنا أن نفسّر كيف أقيمت أبعد المزاعم الميتافيزيقة لفيلسوف ما، فمن الأحسن (ومن الحكمة) فعلاً أن نتساءل في البداية دائماً: ما هي الأخلاق التي يُسعى (أو يَسعى هو) إليها؟ ووفقاً لذلك لا أعتقد أن والدة الفلسفة هي «غريزة للمعرفة»، بل إن غريزة أخرى استعملت المعرفة (أو سوء المعرفة) استعمالها للأداة وحسب، هنا كما في غير محل. لكن ما إن يتفحّص المرء الغرائز البشرية الأصلية من أجل أن يرى إلى أيّ مدى قد تلعب هنا بالذات لعبتها كآلهة ملهِمة (أو كجن وعفاريت) حتى يلاحظ أنها كلّها قد تفلسفت مرةً، وأن كل واحدة منها تود بشدّة أن تعرض نفسها بالذات غاية نهائية للوجود وسيّدة شرعية على سائل الغرائز كلها. ذلك أنّ كل

---

(1) Pallas Athene: بالاس لقب للإلهة أثينا ويعني الفتاة.

غريزة تطمح إلى السيطرة وتحاول، بما هي كذلك، أن تتفلسف. ـ وطبعاً قد يكون الأمر على غير ذلك ـ «أحسن» إذا أردتم ـ عند العلماء، عند الأناس العلميّين حقاً، إذ قد يوجد عندهم فعلاً نوع من غريزة معرفة، عدّةُ ساعة صغيرة مستقلّة تعمل دون كللٍ أو ملل ما إن تعبَّأ جيداً، ومن دون أنْ تشارك سائر غرائز العالم في ذلك أصلاً. ولذا تكمن «مصالح» العالِم الحقيقيّة عادة في غير محل؛ في العائلة مثلاً، في كسب المال أو في السياسة، لا بل سيان تقريباً ما إذا وُضِعت عدّته الصغيرة في هذا المحلّ للعلم أو ذاك، وما إذا جعل العالم الشابّ «المأمول فيه» من نفسه عالِماً جيداً في اللغة أو في الفطريّات أو في الكيمياء: فأن يختار هذا أو ذاك لا يدلّ عليه. والعكس صحيح بالنسبة إلى الفيلسوف، فلا يوجد عنده شيء لا شخصي البتة، وتُعطي أخلاقه بخاصة شهادةً حاسمة وجازمة حول من هو؛ ويعني هذا: ما هي التراتبيّة التي تترتّب وفقها أكثر غرائز جبلّته جوانيّةً.

7

حول أبيقور: كم يمكن أنْ يبلغ خبث الفلاسفة! لا أعرف شيئاً يفوق لذع النكتة التي أطلقها أبيقور ضد أفلاطون والأفلاطونيين، إذ سماهم ديونيسيوخولاكس. ويعني ذلك حسب لفظ الكلمة وفي الظاهر «مدّاحي ديونيسيوس»، أي شيعة الطاغية ولاحِسي اللعاب؛ إضافة إلى هذا كله تقول الكلمة أيضاً «إنهم جميعاً ممثلون، ليس فيهم شيء أصيل» (لأن ديونيسيوخولاكس كانت تسمية شعبية للممثل)[8]. وهذا الأمر الأخير هو، تخصيصاً، اللاذعة الخبيثة

(8) إشارة إلى أن الممثلين هم خدم ديونيسيوس إله المأساة.

التي أطلقها أبيقور ضد أفلاطون. إذ كان مستاءً من فخامة اللباقة، ومن فنّ تسليط الأضواء على الذات الذي حذق فيه أفلاطون وكل تلاميذه، وهو أمر لم يحذق فيه أبيقور، ذاك المدرّس العجوز من ساموس الذي جلس متخفياً في حديقته في أثينا وألّف ثلاثمائة كتاب، ومن يدري؟ لعلّه كتبها غيظاً من أفلاطون وشغفاً بالتفوّق عليه؟ لقد مرّت مئة سنة قبل أن يدرك اليونان مَن كان أبيقور، إله الحدائق هذا ـ أتراهم أدركوا؟

8

أمر لا غنى عنه: في كل فلسفة هناك نقطة تظهر عندها «قناعةُ» الفيلسوف على خشبة المسرح. أو لأَقُلْ بلغةِ لُغزٍ قديم:

لقد جاء الحمار
جميلاً وقوياً[1].

9

«الطبيعة في رأس الرواقيين: تريدون أن تعيشوا «وفقاً للطبيعة»؟ آه، أيها الرواقيون الأفاضل، يا للتلاعب بالألفاظ! تصوّروا كائناً على غرار الطبيعة، مسرفاً بلا قياس، لا مبالياً بلا قياس، من دون نوايا ولا اعتبارات، من دون رحمة ولا عدل، مثمراً ومقفراً ومبهماً على السواء، تصوّروا اللامبالاة عينها سلطاناً ـ فكيف يمكنكم أن تعيشوا وفقاً لهذه اللامبالاة؟ والحياة ـ أليست بالضبط

(1) Adventavit asinus pulcher et fortissimus.

إراة كون مغاير لهذه الطبيعة؟ أليست الحياة تقديراً وتفضيلاً وظلماً ومحدودية وإرادة كون مختلف؟ ولنفترض أن شعاركم الآمر بـ«العيش وفقاً للطبيعة» يعني أساساً: «العيش وفقاً للحياة» ـ كيف بوسعكم ألاّ تفعلوا؟ ولِمَ تجعلون مما أنتم عليه، وما يجب أن تكونوا عليه، مبدأً؟ ـ لكن الأمر في الحقيقة على غير ذلك كلياً: فأنتم، إذ تدّعون بابتهاج بأنكم تقرؤون قانون شرعتكم في الطبيعة، تريدون شيئاً معاكساً، أيها الممثّلون المدهشون، يا خادعي أنفسكم! إنّ كبرياءكم تريد أن تملي على الطبيعة، أجل على الطبيعة، أخلاقكم وأمْثَلكم وتقحمها فيها. إنكم تطلبون من الطبيعة أن تكون «وفقاً للرواق» وترغبون في جعل الوجود كلّه حسب صورتكم الخاصة وحسب ـ كتبجيل عظيم وأبدي للرواقية وتعميم لها! ومع حبكم كلّه للحقيقة تجبرون أنفسكم، وبأيّ إصرار وأيّة إطالة وأيّ تخدير، على أن تروا خطأً، أعني رواقياً، الطبيعة حتى لا يعود بإمكانكم أن تروها على غير ذلك: ـ وفي الآخر يلوّح لكم صلف سحيق الأغوار بالأمل الجنوني بأن الطبيعة ستسمح لكم بأن تستبدّوا بها، لأنكم تعرفون كيف تستبدون بذواتكم ـ فالرواقية هي استبداد بالذات ـ: أليس الرواقي قطعةً من الطبيعة؟... لكن تلك قصة أزلية أبدية: ما حصل قديماً للرواقيين يحصل اليوم أيضاً، ما إن تبدأ فلسفة ما بالإيمان بذاتها حتى تخلق العالم أبداً على صورتها، ولا يمكن لها أنْ تفعل غير ذلك؛ فالفلسفة هي تلك الغريزة الطاغية عينها، هي إرادة القدْرة و«خلق العالم» والعلّة الأولى[1] الأكثر روحيّةً.

---

(1) Causa prima.

10

في عدمية نظرية المعرفة: إنّ الحميّة والدقّة، وأكاد أقول إنّ الشطارة التي يتصدّى بها المرء اليوم، في أنحاء أوروبا كلّها، لمشكلة «العالم الواقع والعالم الظاهر»، تدفع إلى التفكر والإصغاء. ومن لا يسمع هنا سوى «إرادة الحقيقة»، وراء الكواليس، ولا شيء سواها، لا يتمتّع بالتأكيد بأذن مرهفة. في حالات متفرقة ونادرة، قد يكون لإرادة الحقيقة هذه إسهام فعلي، نوع من الجرأة المجازفة والجامحة، طمع ميتافيزيقي يتشبّث بمواقع مفقودة ويظل يفضّل في النهاية حفنةً من «اليقين» على حمولة عربة كاملة من حسن الإمكانات؛ حتى أنه قد يوجد متطهرون غلاة الضمير يفضلون مضطجعاً من اللاّ-شيء الأكيد يهجعون إليه بانتظار الأجل، على مضطجع من شيء لا-يقيني. لكن هذا عدمية، وعلامة على نفسٍ قانطة وواهنة ومحتضرة، مهما أومأت فضيلة من هذا النوع بتراءٍ من البسالة. ويبدو الأمر على خلاف ذلك، عند مفكّرين أقوى وأكثر حيوية وما زالوا يتعطشون إلى الحياة: فتراهم يتحزّبون ضدّ الترائي، ويقولون لفظ «المنظور» بخيلاء وإزدراء ولا يقرّون لأجسادهم الخاصّة بمصداقيّة أكبر من مصداقية الـ على ما يبدو الذي يقول «الكرة الأرضيّة ثابتة». فيفلتون من أيديهم، وعلى ما يبدو عن كل طيبة خاطر، المُلْك الأكثر وثوقاً (إذ ما الذي يعدّ اليوم أكثر وثوقاً من الجسد الخاص؟) ـ ومن يدري ما إذا لم يكونوا راغبين أصلاً في أن يفوزوا من جديد بشيء كنّا نملكه في السابق على نحو أوثق [من الجسد]، بشيء من قديم تملّك إيمان الزمن الغابر، قد يكون «النفس الخالدة» أو «الإله العتيق»، وبكلمة بأفكار قد يمكن العيش

بالركون إليها على نحو أفضل، أي على نحوٍ أقوى وأبهج مما هو الحال عليه بـ «الأفكار الحديثة»؟ ثمة ارتياب إزاء هذه الأفكار الحديثة، ثمة جحود، لا-إيمان بكل ما شيّد بالأمس واليوم، يتخلله على الأرجح شيء من التهكّم والضجر لم يعد يطيق هذا السِقْط من أفاهيم مختلفة الحسب والنسب يعرضها في السوق اليوم ما يسمّى بالوضعيّة. إنه قرف ينتاب الذوق الأرهف لما يصادف من ترقيع وتزويق سوقيّ فاقع، لدى المتفلسفين حول الواقع كلهم، هؤلاء الذين لا جديد ولا أصيل عندهم غير هذا التزويق. ويخيّل إلي أن على المرء أن يوافق، في هذه النقطة، على رأي هؤلاء المعاصرين، هؤلاء الرَّيْبيّين المعادين للواقع ومحللي المعرفة المجهريين: إن فطرتهم التي تدفع بهم إلى الابتعاد عن الواقع الحديث لا تُدحض، ـ وما همّنا من نهجهم شعاب التقهقر! إن الجوهريّ فيهم ليس أنهم يريدون التقهقر، بل إنهم يريدون الابتعاد. ولو توفر لهم مزيد من القوة والتحليق والجرأة والبراعة لأرادوا الخروج ـ وليس التقهقر! ـ.

11

حول الفلاسفة الذين بلا قدرة: يبدو لي أنّ جهداً يبذل الآن في كلّ محلّ لصرف النظر عن التأثير الحقيقي الذي كان لكنط على الفلسفة الألمانية، وبخاصة للتخلّص بلباقة وحذْق من القيمة التي نسبها إلى نفسه. لقد تباهى كنط، في أول الأمر وأكثر من أيّ شيء، بلوحة مقولاته، وقال حاملاً هذه اللوحة بين يديه: «إن هذا أصعب أمر أمكن القيام به ذات مرة، خدمة للميتافيزيقيا» ـ لنفهم جيداً هذا الـ«أمكن»!. فهو يتباهى باكتشافه ملكة جديدة في

الإنسان، هي القدرة على أحكام تأليفية قبلياً. ولنفترض [جدلاً] أنه خدع نفسه في هذه النقطة، إلّا أن تطوّر الفلسفة الألمانية وازدهارها السريع تعلّقا، مع ذلك، بهذا التباهي وبتسابق كل المفكّرين الشبان إلى اكتشاف ما قد يكون مدعاة أكبر للتباهي، وإلى اكتشاف «قدرات جديدة» على كلّ حال! ـ لكن، لنعد إلى حسّنا السليم: فقد آن الأوان. إن كنط تساءل: كيف يمكن للأحكام التأليفية قبلياً أن تكون؟ ـ وجوابه ألم يكن باختصار: بقدرة قدرة؟ لكنه مع الأسف، لم يلخّص جوابه في كلمتين، بل لفّ ودار بتكلّف ووقار، وأفرط في التعمق والتنميق الألماني إفراطاً حرمنا من التمتّع بالترّهة الألمانية الكامنة في جواب من هذا النوع. وخرج الناس عن طورهم احتفالاً بهذه القدرة، وبلغ التهليل ذروته عندما اكتشف كنط في الإنسان، إضافة إلى ذلك، قدرة أخلاقية أيضاً: ـ ذلك أنّ الألمان كانوا آنذاك أخلاقيّين ولم يكونوا بعد البتّة من أنصار «السياسة الواقعيّة». ـ وجاء شهر عسل الفلسفة الألمانية، وتسارع كلّ اللاهوتيّين الشبان في معهد توبينغن الى التغلغل في الآجام بحثاً عن طريدة، وكلّهم بحثوا طبعاً عن قدرات. ويا لكثرة ما عثروا عليه في زمن الروح الألماني ذاك حين كان لا يزال فتيّاً وغنيّاً وبريئاً، ذاك الزمن الذي حلّت فيه الرومانسية، الجنيّة الشريرة، بنفحاتها وألحانها. آنذاك، حين كان المرء لا يفرّق بعد بين «العثور» على شيء و«اختراعه»[1]! وقد عثروا بدءاً على قدرة «ما يتعدّى الحسي»، وهي عمّدها شلنغ الحدس الذهني، وجامل بذلك أحرّ نزوات الألمان الذين كانوا، في الحقيقة، ورعين في نزواتهم. وعند النظر في مجمل هذه

(1) Erfinden/Finden، يقتصر «الفرق» بين الفعلين على إضافة السابقة «er».

الحركة المتدفّقة الجامحة، التي كانت فتيّة على الرغم من كل إقدامها على التنكّر بأفاهيم باهتة بالية، لا يمكن للمرء البتّة أن يرتكب ظلماً أكبر بحقّها من حملها على محمل الجدّ، والنظر إليها نظرة العذل الأخلاقي. وبمختصر مفيد: من كان فتيّاً شاخ، والحلم تبخر. جاء زمنٌ أخذ المرء فيه يحكّ جبينه، وما زال يحكّه حتى اليوم. كان الحلم وأوّل من حلمه، بادىء الأمر، كنط العجوز. لقد قال: «بقدرة قدرة» أو قصد هذا، على الأقل، ولكن، هل هذا جواب أو إيضاح؟ أوليس بالأحرى مجرد تكرار للسؤال؟ وعلى فكرة، كيف ينوّم الأفيون؟ يجيب ذاك الطبيب عند موليير «بقدرة قدرة»، هي القدرة المنوّمة[1]،

فيه قدرة منوّمة

من طبيعتها أن تخدّر الحواس[2].

لكن أجوبة من هذا النوع تنتمي إلى الكوميديا. لقد آن الأوان أخيراً لنستبدل السؤال الكنطي «كيف يمكن للأحكام التأليفية قبلياً أن تكون»؟ بسؤال آخر: «لماذا يكون الإيمان بمثل هذه الأحكام ضرورياً؟» ـ أي آن الأوان لنفهم أنه، من أجل الحفاظ على كائنات من نوعنا، علينا أن نؤمن بصواب مثل هذه الأحكام، وعليه يمكن لها بالطبع أن تكون أحكاماً خاطئة أيضاً! أو بتعبير أوضح، بتعبير قاسٍ ومحكم: من المفترض ألا «يمكن» للأحكام التأليفية قبلياً أن تكون البتة: لا حق لنا فيها، فهي في أفواهنا أحكام خاطئة وحسب. غير أن الإيمان بحقيقتها ضروريّ، كإيمان واجهة وإيمان الـ على ما يبدو، وإيمان تقتضيه منظوريّات الحياة.

(1) Virtus dormativa.

(2) Quia est in eo virtus dormativa
cujus est natura sensus assoupire.

وأخيراً، ولكي نتذكّر التأثير العظيم الذي كان «للفلسفة الألمانية» ـ وآمل أن يفهم حقّها في المزدوجين؟ ـ على أوروبا بأسرها، [أقول] إن قدرة منومة معيّنة، لا شك في ذلك، قد ساهمت هنا: لقد ساد الابتهاج في صفوف التنابلة الكرام وأنصار الفضيلة والمتصوّفين، بين الفنانيّن وأنصاف المسيحيّين والظلاميّين السياسيّين من كل الأمم، إذ وجدوا، بفضل الفلسفة الألمانيّة، ترياقاً ضد المذهب الحسي الذي ما فتىء يتدفّق قوياً، من القرن الماضي الى الحالي، وباختصار ـ «تخدرت الحواس»[1]...

12

فلسفة الصيرورة وفرضها النفسي: فيما يخص الذَّريّة المادية: إنها من بين الأمور التي دحضت على أفضل وجه، ويغلب على الظن أنه لم يبق اليوم واحد من علماء أوروبا جاهلاً إلى حد إيلائها أهمية جدية تتعدى الاستعمال اليدوي والبيتي المريح (أي كاختصار لوسائل التعبير) ـ والشكر، بادىء الأمر، لبوسكوفيتش، ذاك الدلماطي، الذي كان شأنه شأن البولوني كوبرنيقوس، من ألدّ أعداء الـ على ما يبدو وأرجحهم انتصاراً حتى اليوم. ذلك أن كوبرنيقوس أقنعنا بالإيمان بأن الأرض ليست ثابتة، مناقضاً كل الحواس، في حين أنّ بوسكوفيتش علّمنا أنْ نجحد الإيمان بآخر أمرٍ كان «ثابتاً» على الأرض، الإيمان «بالهيولى» وبالمادة، بالذرة، تلك الكُتَيْلة والفضلة الترابية: لقد سجّل أكبر انتصار على الحواس أُحرز حتى الآن على هذه الغبراء. ـ لكنْ، على المرء

(1) Sensus assoupire.

أنْ يخطو خطوة أخرى إلى الأمام ويعلن الحرب أيضاً على الحاجة إلى الذريّة التي ما زالت تحيا وتهدّد بأخطارها مجالات لا يرقى إليها الظنّ، شأنها شأن تلك «الحاجة الميتافيزيقية»، الأكثر شهرة منها ـ عليه أنْ يعلن عليها حرباً طاحنة وضروساً: ـ وعليه بدءاً أن يقضي أيضاً على تلك الذَّريّة الأخرى التي تفضي إلى نتائج أردأ، الذريّة التي علّمتها المسيحية على أفضل وجه ولأطول مدة، وهي الذَّرية النفسية. واسمحوا لي أن أطلق هذا اللفظ على ذلك الإيمان الذي ينظر إلى النفس بوصفها شيئاً لا-هالكاً، خالداً ولا يتجزأ، بوصفها مونادة وذرّة: هذا الإيمان يجب أن يطرد من العلم! وليس من الضروري بتاتاً، والكلام بيننا، أن نتخلّى بذلك عن «النفس» نفسها أو نتنازل عن واحد من أقدم الفروض وأكثرها وقاراً، على غرار ما يحصل عادة للطبيعيّين عن سوء تدبيرهم، إذ ما إنْ يمسّوا «النفس»، حتى يضيّعوها. لكن الطريق ممهَّد لصيغ جديدة لفرض النفس ولصقله: وأفاهيم مثل «النفس الفانية» و«النفس ككثرة ذوات» و«النفس كبناء اجتماعي للغرائز والأشاعير» تطالب، منذ الآن، بحقها في مدينة العلم. غير أن السيكولوجي الجديد، إذ يضع حداً للإيمان الباطل الذي تكاثر حول تصور النفس ليحيطه بغاب كثيف شبه استوائي، يلقي بنفسه في قفر جديد وارتياب جديد ـ وأغلب الظن أن السيكولوجيين القدامى كانوا أروح وأبهج حالاً ـ: لكنه يعرف، في النهاية، أن هذا الوضع بالذات يحكم عليه بالاختراع أيضاً ـ ومن يدري؟ لعله يحكم عليه بالعثور على[1]...

---

(1) Finden/ Erfinden.

13

الحفاظ على الذات ليس له الأولية: على الفيزيولوجيين أن يعيدوا النظر في حسبانهم غريزة الحفاظ على الذات بمثابة الغريزة الأساسيّة للكائن العضوي. فالحيّ يريد، قبل كل شيء، أن تنطلق قوته ـ الحياة نفسها إرادة للقُدْرة ـ: وليس الحفاظ على الذات سوى نتيجة غير مباشرة من نتائجها وأكثرها تكراراً. ـ وباختصار، حذار هنا وفي أي محل، من المبادىء الغائيّة النافلة! ـ ومنها غريزة الحفاظ على الذات (التي ندين بها لاسبينوزا ولا-اتّساقه). هكذا تحديداً يأمر المنهج الذي يجب أنْ يكون في الأساس، مقتصداً في المبادىء.

14

في واقعية الرعاع ربما يلوح اليوم لخمسة رؤوس أو ستة [فكرة] أن الفيزياء، هي الأخرى، مجرد تأويل للعالم وتكييف له (طبقاً لنا من غير مؤاخذة) وليست شرحاً للعالم: لكنّها، من حيث ركونها إلى الإيمان بالحواس، تُحسب بمثابة شيء أزْيَد ويجب أنْ تحسب، لمدة طويلة بعد، بمثابة شيء أزْيَد، أعني بمثابة شرح. تؤيدها العين واليد، ما يرى بأم العين وما يلمس لمس اليد: ولهذه الأمور تأثير فاتن ومطمئن ومقنع على عصر يسود فيه الذوق العامي ـ ذلك أنه يتبع فطرياً «قانون» الحقيقة الخاص بالحسيّة الشعبية أبداً. ما الواضح، ما «المشروح»؟ إنه بدءاً ما يشاهد ويلمس، ـ إلى هذا الحد يجب دفع أيّ مشكلة. وفي المقابل: في مقارعة الوضوح الحسي بالضبط إنما كان يكمن سحر النمط

الفكري الأفلاطوني الذي كان نمطاً فكرياً نبيلاً درج على الأرجح بين أناس تمتعوا أيضاً بحواسّ أقوى وأكثر تطلباً من حواسّ معاصرينا، لكنهم عرفوا كيف يتذوّقون انتصاراً أعلى بالبقاء أسياداً على هذه الحواسّ، إذ غطوا هرج الحواسّ الفاقع الألوان ـ أو سوقية الحواسّ على حد قول أفلاطون ـ بنسيج من الأفاهيم الباهتة، الباردة والرماديّة. وكان في هذا الترويض وفي هذا التأويل للعالم على طريقة أفلاطون، متعة من صنف مغاير لذلك الذي يقدمه لنا فيزيائيّو العصر أو شغّيلة الفيزيولوجيا من داروينيّين ومعادين للغائية، بمبدئهم القائل بـ «أصغر قوّة ممكنة»، وهو أكبر بلاهة ممكنة. «حيث لا يعود يجد الإنسان ما يمكن مشاهدته ولمسه، هناك لا يعود له ما يمكن البحث عنه» ـ هذا أمر مغاير بالتأكيد للأمر الأفلاطوني، أمر يصلح، مع ذلك، تماماً لجنس جلف وشغّيل، جنس مقبل من الميكانيكيين وبنّائي الجسور الذين عليهم أن يقوموا بالأعمال الخشنة وحسب.

15

في التناقض الذاتي للتَّجاوُزِيّة: كي يمارس المرء الفيزيولوجيا بضمير مرتاح، عليه أن يصرّ على أن أعضاء الحسّ ليست ظاهرات بمعنى الفلسفة المثالية: وأنها بما هي كذلك لا يمكن أن تكون أسباباً! وعليه أن يسلّم من ثمَّ بالحسيّة، وعلى الأقل، بوصفها فرضاً تنظيمياً، إن لم نقل بوصفها مبدأ كشفيّاً. ـ ماذا؟ هناك حتى من يقول حتى بأن العالم الخارجيّ من صنع أعضائنا؟ لكن، في هذه الحالة سيكون جسمُنا، بوصفه جزءاً من هذا العالم الخارجي، من صنع أعضائنا! وستكون أعضاؤنا عينها بالتالي من

صنع أعضائنا! وهذا على ما يبدو لي وقوعٌ في الخُلْف[1] مُحْكم: على افتراض أن أفهوم الهو-بذاته[2] خُلْف مطبق. ليس العالم الخارجي إذاً من صنع أعضائنا؟

16

في «حقائق الوعي»: لا يزال هناك أكثر من تأمّلانيّ ساذج يعتقد أنّ ثمّة «يقينيّات بلا توسّط» وعلى سبيل المثال «أنا أفكِّر» أو، على حسب الخرافة التي آمن بها شوبنهاور، «أنا أريد»: كما لو أنَّ المعرفة تدرك هنا موضوعها محضاً وعارياً، بوصفه شيئاً في ذاته ومن دون أيّ تزييف لا من قبل الذات ولا من قبل الموضوع. إلَّا أن «اليقين الـ بلا توسّط» شأنه شأن «المعرفة المطلقة» و«الشيء في-ذاته» - وأكرر ذلك للمرة المئة - ينطوي على تناقض وصفي[3]: يجب التخلص أخيراً من تضليل الألفاظ! وليعتقد الشعب أن المعرفة عَرْفٌ نهائي[4]، أمّا الفيلسوف فعليه أن يقول لنفسه: «عندما أحلّل المسار المعبَّر عنه بعبارة «أنا أفكر»، فإنّي سأحصل على عدد من المزاعم الجسورة التي يصعب وربّما يمتنع تسويغها، - وعلى سبيل المثال، الزعم أنّ الأنا هو من يفكّر، وبعامة أنّ ما يفكّر يجب أن يكون شيئاً ما، وأن التفكير فعل وأثر من جانب كائن يتصور بوصفه سبباً، وأن ثمة «أنا»،

(1) reductio ad absurdum: الإحالة إلى الخلف.

(2) Causa sui.

(3) Contradictio in adjecto: تناقض بين الموصوف وصفته على غرار الدائرة المربعة.

(4) Erkennen/ (zu) Ende-Kennen: جناس لفظي يستعمله نيتشه للإشارة إلى الالتباس في أفهوم المعرفة عند العامة.

وأخيراً أن ما ندلّ إليه بالتفكير أمر مثبت، ـ أي أنني أعرف ما هو التفكير. إذ من دون أن أحسم الأمر بنفسي سلفاً: بم سأقيس أن الحاصل الآن مميز من «اليُريد» أو من «الشعور»؟ بكلمة، إن ذلك الـ «أنا أفكر» يفترض أن أقارن حالي الآنيّة بأحوال أخرى أعرفها فيّ، لكي أعيّن ما هي على هذا النحو: وبسبب من هذه الإحالة إلى «عِلْمان» جلبته من مكان آخر لا تتمتع حالي البتّة، بالنسبة إلي، بأيّ «يقين» بلا توسّط». ـ عوض ذلك «اليقين البلا توسط» الذي نتركه للشعب ليؤمن به أنّى شاء، يحصّل الفيلسوف بهذه الطريقة مجموعة من الأسئلة الميتافيزيقية، أسئلة مصيرية، بكل معنى الكلمة، مطروحة على العقل وهي: «من أين أتيت بأفهوم التفكير؟ لماذا أؤمن بالسبب والمسبَّب؟ ما الذي يخوّلني الكلام على الأنا، بل على الأنا بوصفه سبباً، وأخيراً على الأنا بوصفه سبباً للأفكار»؟ إن من يجرؤ على الإسراع في الإجابة عن هذه الأسئلة الميتافيزيقية، بالاستناد إلى نوع من الحدس المعرفي، شأنه شأن من يقول: «أفكر وأعرف أن هذا، على الأقلّ، حقيقي ومتحقِّق ويقيني» ـ سيجد أن الفيلسوف اليوم قد أعدّ له ابتسامة وعلامتيْ استفهام. بل ربما أفهمه الفيلسوف قائلاً: «يا سيدي، من غير المحتمل ألاّ تكون على خطأ: لكن لِمَ الحقيقة بأيّ ثمن؟» ـ.

17

الفكر يبني «الأنا» نفسه: إذا ما دار الكلام على خرافات المناطقة، فلن أكلّ من التأكيد مراراً وتكراراً على حقيقة صغيرة قصيرة، لا يطيب لهؤلاء المخرّفين أن يعترفوا بها، ـ أعني أنّ

الفكرة تجيء حين يحلو لها «هي» وليس حين يحلو لي «أنا»: بحيث يغدو تزييفاً للوقائع أن يقال: إن المبتدأ «أنا» شرط الخبَر «أفكّر». إنه[1] يفكّر: لكن القول إن هذا الـ «ـهُ» بالذات هو ذاك «الأنا» العتيق الشهير، يبقى مجرّد فرض أو زعم، إن تكلّمنا باعتدال، وليس «يقيناً بلا توسّط» بأيّ حال. وفي النهاية نشتطّ حتّى بقولنا: «إنّه يفكِّر»: فذلك الـ «ـه» ينطوي، بحد ذاته على تأويل للمسار ولا ينتمي إلى المسار نفسه. فهنا يُستنتج تبعاً للعادة النحوية: «إن التفكير فعل ولكل فعلٍ فاعله وتالياً...» ـ وعلى نحو مماثلٍ كانت الذَّرية القديمة تبحث، إضافة إلى «القوة» التي تفعل، عن كُتَيْلة المادة التي تقعد فيها «القوة» وتفعل من جوّانها، أي عن الذرَّة. ولقد تعلمت الرؤوس الصارمة أخيراً أن تتدبر أمرها من دون «فضلة التراب» هذه، وربما سيتعوّد المناطقة بدورهم ذات يوم الاستغناء عن ذلك الـ «ـهُ» الصغير (هو ما بقي بعد تبخّر الأنا القديم الأمين).

18

من زمان انتهى أمرها ولا يزال أمرها ينتهي: للحق، إن قابلية نظرية ما للإبطال، ليس أقلّ مفاتنها إغراءً: فهي بذلك بالذات تغري رؤوساً فائقة اللطف. ويبدو أن نظرية «الإرادة الحرة» التي أُبطِلت للمرة المئة لا تدين باستمرارها إلَّا لهذه الفتنة الوحيدة ـ: ولا ينفكّ يأتي إليها من يحسّ نفسه قوياً بما يكفي لإبطالها.

---

(1) Es ضمير الغائب (ينوب في الألمانية عن اسم ليس مذكّراً ولا مؤنّثاً).

19

في تحليل الإرادة: يتكلّم الفلاسفة عادة على الإرادة كما لو أنها الأمر الأتم معرفة في العالم؛ بل يُعْلمنا شوبِنهاورْ أن الإرادة وحدها معروفة لدينا أصلاً، وأنها معروفة بالتمام والكمال، من دون زيادة أو نقصان. لكنه يخيّل إليّ، مرة تلو مرة، بأن شوبنهاور لم يفعل، في هذه الحالة أيضاً، سوى ما يفعله الفلاسفة عادةً: إنه تبنّى تحكيمة شعبية واشتطّ فيها. فالـ يُريد يبدو لي، بادىء ذي بدءٍ، شيئاً معقداً، شيئاً لا يشكّل وحدة إلّا من حيث هو لفظ، وفي هذا اللفظ الواحد بالذات تكمن التحْكيمة الشعبية التي غلبت حذر الفلاسفة الطفيف دوماً. لنكنْ إذن، ذات مرة، أكثر حذراً، لنكن «لافلسفيّين»، ولنقل: في كل يُريد، أولاً، كثرة من المشاعر، أعني الشعور بالحال التي نبتعد عنها والشعور بالحال التي نصبو إليها والشعور بالـ «عن»... والـ «إلى» نفسه ومن ثم الشعور العضلي المرافق الذي، ما إن «نريد» حتى يبدأ بتحرك [فينا] بفعل عادة معينة وحتى من دون أن نحرك «ذراعاً أو رجلاً». ومثلما يجب إذن الإقرار بأن الشعور، وأعني الشعور على تنوعه، هو من مكوّنات الإرادة، فإنه يجب علينا، ثانياً، أن نَعُدَّ الفكر ملازماً لها أيضاً: توجد في كلّ فعل إرادي فكرة آمرة: ـ وإياكم أن تعتقدوا أنه بالإمكان عزل هذه الفكرة عن «الـ يُريد»، كما لو أن إرادةً ما ستَفْضَل بعد ذلك! [وأنْ نقر] ثالثاً، أن الإرادة ليست مجمّعاً من الشعور والفكر وحسب، بل هي، قبل كل شيء، أُشْعور أيضاً: تحديداً أشعور الأمر ذاك. إن ما يسمّى «حرية الإرادة» هو، من حيث الجوهر، أُشعور التفوّق بالنظر إلى ذاك الذي يجب أن ينصاع: «أنا حرّ، وعليه «هو» أن ينصاع» ـ

هذا الوعي يلازم كلّ إرادة، كما يلازمها ذاك الانتباه المشدود، تلك النظرة الثابتة التي تحدّق في شيء واحد دون سواه، ذاك التقييم المطلق الذي يقول «الآن يلزم هذا ولا شيء سواه»، ذلك اليقين الجوّاني بأن الانصياع لا بدّ منه، إلى ما هنالك من أمور تنتمي إلى حال الآمر. إن الإنسان الذي يريد يُلقي أمراً على شيء ما فيه، على ما ينصاع له، أو ما يظن أنه ينصاع. لكنْ هاكم الآن أعجب ما في الإرادة ـ في هذا الشيء المتعدِّد الذي يطلق عليه الشعب لفظاً واحداً وحسب: حيث إننا في حالة معطاة، آمرون ومنصاعون معاً، ونعرف بوصفنا منصاعين، تلك المشاعر التي تنتابنا عادةً على أثر فعل الإرادة، كالإرغام والحثّ والحضّ والمناوأة والتحرّك، وحيث اعتدنا، من جهة ثانية، أنْ نتجاهل هذه الثنائية ونتحايل عليها باللجوء إلى الأفهوم التأليفي «الأنا»، فإن الـ يُريد يجرّ معه سلسلة كاملة من الاستدلالات الخاطئة وتالياً من التقييمات الخاطئة بصدد الإرادة نفسها، ـ مما يجعل المريد يؤمن عن حسن نية بأن الـ يُريد وحده يكفي للفعل. وبما أنّ المرء، في أغلب الأحيان، قد أراد وحسب، وبما أنّه قد أمكنه توقّع حصول أثر الأمر، أي الانصياع والفعل، فإن الظاهر تُرجم إلى شعور بضرورة الأثر؛ وباختصار، إن المريد يعتقد بدرجة عالية من الثقة أن الإرادة والفعل هما، على نحو ما، شيء واحد ـ إنه ينسب النجاح وتنفيذ المراد أيضاً إلى الإرادة بعينها ويستمتع جرّاء ذلك بتزايد في الشعور بالقدرة الذي يصاحب كلّ نجاح. «حريّة الإدارة» ـ ذاك هو الاسم الخاص بتلك الحال من المتعة المتنوعة التي للمريد وهو يأمر ويطرح ذاته، في الوقت عينه، بوصفه واحداً مع المنفِّذ، ـ ويتذوّق، بما هو كذلك، متعة الانتصار على العوائق، في حين يعتقد أن إرادته بعينها هي التي تتغلّب، في

الحقيقة، على العوائق. وهكذا يضيف المريد إلى شعوره الخاص بالمتعة بوصفه آمراً، مشاعر المتعة الخاصة بالأدوات المنفِّذة الناجحة، أي «الإرادات الرديفة» أو النفوس الرديفة المطيعة ـ جسدنا هو مجرد بناء جماعي لنفوس كثيرة. الأثر هو أنا[1]: يحصل هنا ما يحصل في كل جماعة سعيدة وحسنة التنظيم، أي أن الطبقة الحاكمة تتماهى مع نجاحات الجماعة. في كل يُريد تدور المسألة ببساطة على أمر وانصياع، على أساس بناء جماعي «النفوس» كثيرة، كما سبق القول: وعليه ينبغي على الفيلسوف أن يخوّل نفسه ضمّ اليُريد في حد ذاته إلى حيِّز الأخلاق: على أن يفهم بالأخلاق علم علاقات السيطرة التي في ظلّها ينشأ الفينُمان المسمّى «حياة».

20

الفلسفة والإيهام اللغوي: إن الأفاهيم الفلسفية المفردة ليست شيئاً اعتباطياً ونامياً لذاته، بل هي تنمو وترقى بصلة بعضها ببعض وبالقُربى. وهي تنتمي، ومهما كان ظهورها في تاريخ الفكر اعتباطياً وفجائياً، إلى سِستام واحد، شأنها شأن جملة العناصر التي تكوّن العالم الحيواني في إحدى القارّات: يتبين كلّ هذا، آخر الأمر، ما إن يلاحظ المرء بأيّ أمانة يعيد الفلاسفة على اختلافهم ملء قالب أساسي معين من الفلسفات الممكنة وهم يدورون بلعنة سحر آسر خفي أبداً، مرة تلو مرة، في الدائرة عينها؛ فمهما حسبوا أنفسهم مستقلين بعضاً عن بعض لما لهم من

(1) L'effet c'est moi.

إرادة نقدية أو سِستامية؛ فإن شيئاً ما فيهم يقودهم، وإنّ شيئاً ما يدفع بهم إلى الانسياق الواحد تلو الآخر على نسق معين، هو بالضبط تلك السِستامية الفطرية وتلك القُربى الفطرية التي للأفاهيم. وبالفعل، قلما يكون فكر الفلاسفة اكتشافاً، بل هو بالأحرى إعادة تعرّف وتذكّر، ورجوع وعودة إلى مؤونة للنفس واحدة أزلية نائية، مؤونة انبثقت منها تلك الأفاهيم في زمن غابر: ـ التفلسف من هذه الناحية، نوع من التأسّلية[1] الأعلى رتبةً. ومن السهل والبسيط جداً تفسير القربى العائلية اللافتة بين كل ما جاءت به الفلسفة الهندية واليونانية والألمانية. وحيث توجد قربى لغوية، لا مناص البتة من أن يكون كل شيء مهيَّأً سلفاً، لكي تتطور السِستامات الفلسفية وتترتب على نحو مماثل وهذا بفضل الفلسفة النحوية المشتركة ـ أعني بفضل الهيمنة والزعامة التي تمليها الوظائف النحوية الواحدة بصورة لا واعية: ـ هنا بالذات يبدو أيضاً وكأنه ما من سبيل إلى إمكانات ما أخرى لتأويل العالم. إن الفلاسفة المنتمين إلى المجال اللغوي لمنطقة أورال آلتاي (حيث بقي أفهوم الذات (الفاعل) على أدنى درجة من التطور) ينظرون، على الأرجح، بعين مختلفة «إلى العالم» ويسلكون دروباً أخرى غير تلك التي يسلكها الهندوجرمان والمسلمون: إن السحر الآسر الذي لوظائف نحوية معينة هو في قعر قعره، نفوذ تحقّقه أحكام قيميّة فيزيولوجية وظروف عرقية. ـ حسبكم هذا للرد على سطحية لوك بالنظر إلى أصل الأفكار.

(1) Atavismus: عودة إلى طباع الأسلاف.

21

لا-حرية الإرادة خاطئة، شأنها شأن حرية الإرادة: إن الـ سبب ذاته[1] أفضل تناقض ذاتي ابتدع حتى الآن، إنه نوع من الغصب والشذوذ المنطقي. لكن صلف الإنسان المشتطّ بلغ به، على نحو مفزع، حد الغرق في أغوار هذا الخُلْف بالذات. والحقّ أنّ المطالبة «بحرية الإرادة»، بذلك المعنى الميتافيزيقي المبالَغ فيه الذي ما زال سائداً في رؤوسٍ نصف متعلمة، وأن الرغبة في تحمل المسؤولية التامة والأخيرة المترتبة على الأفعال، وفي رفعها عن الله والعالم والأسلاف والمصادفة والمجتمع، ليست، في الواقع، بأقل من تطلّع المرء إلى أن يكون هو بالضبط ذلك الـ سبب ذاته وأن يمسك شعر رأسه بإقدام يفوق إقدام البارون مونشْهاوزن[2] ليجرّ نفسه من مستنقع العدم إلى الوجود. وهب أن أحدهم أدرك على هذا النحو، السذاجة القروية التي لأفهوم «الإرادة الحرة» الشهير هذا ومحاه من رأسه، فإني أطلب إليه الآن أن يخطو في «تنوّره» خطوة أخرى إلى الأمام، ويمحو من رأسه كذلك ضدّ ذلك اللا-أفهوم «الإرادة الحرة»: وأقصد «الإرادة اللا-حرة» التي تعود إلى سوء استعمال للسبب والمسبَّب. وينبغي على المرء ألا يشيّىء، خطأً، «السبب» و«المسبَّب»، كما يشيّئهما علماء الطبيعة (وكل من «يطبّع» مثلهم اليوم في الفكر) وفقاً للبلاهة الميكانيكية السائدة التي تدع السبب يضغط ويدفع حتى

---

(1) Causa sui.

(2) بطل مجموعة قصص خرافية طريفة. وتفيد القصة التي ألمح إليها نيتشه أن البارون الشهير وقع ذات يوم في مستنقع وهو يمتطي جواده، فأمسك بخصلات شعره وأنقذ نفسه من الغرق.

«يسبِّب»؛ بل على المرء أنْ يستعمل «السبب» و«المسبَّب» استعمال الأفاهيم المحضة وحسب، أي بوصفها بِدَعاً اصطُلح عليها في سبيل التسمية والتفاهم، وليس في سبيل الشرح. في الـ «في-ذاته» لا أثر «لروابط سببية» ولا «ضرورة» ولا «لا-حرية نفسية»، هناك لا ينتج «المسبَّب عن السبب» وما من «قانون» يحكم. إننا وحدنا من اختلق الأسباب والتتالي وكون الواحد لدن الآخر والنسبيّة والإكراه والعدد والقانون والحريّة والمبدأ والغاية. وإذا ما أقحمنا عالم الرموز هذا، بوصفه «في-ذاته» في الأشياء وخلطناه بها، فإننا نكرّر مرة أخرى التلاعب الذي طالما زاولناه، أعني التلاعب ميثولوجياً. إن «الإرادة اللا-حرة» هي ميثولوجيا: في الحياة الفعلية توجد إمّا إرادة ضعيفة وإمّا إرادة قوية لا غير ـ. إن الشعور بالإكراه والضيق والضغط واللا-حريّة وواجب الانصياع الذي قد ينتاب أحد المفكّرين ما إن يدور الكلام على «اقتران سببي» أو «ضرورة نفسيّة»، يكاد يكون في حدّ ذاته، دائماً عارضاً من عوارض ما يفتقر إليه هو نفسه: إنّ هذا الشعور لغدّار ـ إنه يغدر بالشخص إذ يفضح أمره. وحين أمعن النظر أرى أن «لا-حرية الإرادة» تعدّ على العموم، مشكلة تُتناول من وجهين متضادين تماماً، لكن دائماً بطريقة شخصية جداً: بعضهم لا يريد التخلي، بأيّ ثمن، عن «مسؤوليته»، عن الإيمان بنفسه وحقّه الشخصي في فضله (ومنهم الأعراق المغرورة) وبعضهم الآخر على العكس، يريد أنْ لا يحمل أيّ مسؤولية أو ذنب، ويطلب، إنطلاقاً من احتقار جوانيّ لذاته، إمكان رمي وزر نفسه في محلّ ما. واعتادت هذه الفئة الأخيرة اليوم، حين تؤلّف كتباً، أن تهتمّ بأمر المجرمين، وأجمل ما في تنكّرها ظهورُها بمظهر التراحم الاشتراكي. وبالفعل، فإن قَدَرِيّة ضعاف الإرادة تزداد رونقاً، على

نحو مدهش، كلما قُدّر لها أنْ تعرض نفسها بوصفها «دين العذاب الإنساني»[1]: هكذا تكون «حسنة الذوق».

22

ديموقراطية ماكروكوسمية: لا تؤاخذوني لأنني، وأنا فيلولوجي عتيق، ما زلت أزاول هوايتي الخبيثة وأضع الأصبع على الجرح بكشفي فنون تأويل رديئة: لكن «قانونية الطبيعة» تلك التي تتكلّمون عليها بتباهٍ، أيها الفيزيائيون كما لو أن. . . لا تقوم إلّا بفعل تأويلكم ورداءتكم في «الفيلولوجيا»، ـ فهي ليست بواقعة ولا بـ «نصّ»، بل هي بالأحرى مجرد تدبير إنساني ساذج وقلب للمعاني بهما تراعون الفِطَر الديموقراطية للنفس الحديثة وترضونها!. «في كلّ محلٍّ مساواة أمام القانون، ـ والطبيعة، هي الأخرى، ليست على غير ذلك ولا أفضل حالاً منّا»: إنها لفكرة مهذّبة يختبىء وراءها مرة أخرى العداء السوقي لكلّ عظيم مستبد وصاحب امتيازٍ حقوقي، ويتنكّر بها كذلك ضرب ثانٍ ألطف من الإلحاد. «لا إله ولا سيّد»[2] ـ هذا ما تبتغونه أيضاً: لذلك، «فلْيَحْيَا القانون الطبيعي»! ـ أليس كذلك؟ لكن هذا تأويل، كما قلت، وليس نصّاً. وقد يأتي أحدهم، بفنّ تأويل مضادّ ومقصد معاكس، ويحذق في أن يفسّر لكم الطبيعة عينها، وبالنظر إلى الظاهرات عينها، على أنها تحديداً، تحقيق لمطامع تسلطٍ غاشم وبطش لا هوادة فيه، ـ وقد يفلح ذاك المؤوِّل في أن يعرض لكم بصورة جلية ما تنطوي عليه كل «إرادة قدْرة» من إطلاقية ولا مشروطية،

---

(1) La religion de la souffrance humaine.

(2) «Ni dieu, ni maître».

بحيث يبدو [لكم] أو يكاد، آخر الأمر، أن كلّ الألفاظ، بما فيها لفظ «الطغيان» أيضاً، هي نافلة ومجرد استعارة تزيينيّة ـ ومفرطة في الإنسانية؛ ومع ذلك سينتهي به المطاف إلى زعم ما تزعمون بصدد العالم، أي إلى زعم أن له مجرى «ضرورياً» يمكن «حسبانه»، لكن ليس لأن ثمة قوانين فيه تسود، بل لأن لا قوانين فيه على الإطلاق، ولأن كل قدرة تنزع، في كل آن، إلى تحقّقها الأقصى. وعلى افتراض أن هذا بدوره مجرّد تأويل ـ وأظن أن لديكم حماساً كافياً لإبداء هذا الاعتراض؟ ـ أقول: حسناً، فليكن. ـ

23

شافعاً للحياة الكبيرة: لقد ظلت السيكولوجيا بأسرها معلّقة حتى الآن بتحكيمات ومخاوف أخلاقية: فلم تجرؤ على سبر الأغوار. أما تناولها بوصفها علم أشكال إرادة القدرة وتطوّرها، كما أتناولها أنا ـ فأمر لم يخطر بعد على بال أحد البتّة: إن كان من المسموح أن يُحسب ما كُتب حتى الآن عارضاً من عوارض ما كُتم حتّى الآن. لقد تغلغلت قوة التحكيمات الأخلاقية عميقاً إلى العالم الأكثر روحيّة، إلى العالم الذي يبدو عليه أنه الأشدّ برداً والأكثر خلوّاً من الفروض ـ فأثّرت عليه، كما يُفهم بداهة، تأثيراً مضرّاً ومعرقلاً ومُعمياً ومحرِّفاً. إنّ سيكولوجيا طبيعية، بصحيح المعنى، تناوىء عوائق لا-واعية في قلب الباحث، «فالقلب» ضدّها: وإنّ تعليماً يقول بالـ تشارط المتبادل بين الغرائز «الصّالحة» و«الطّالحة» هو في حدّ ذاته، وبالنسبة إلى ضميرٍ ما زال حيّاً وإلى جانب القلب، ضرب مرهف من اللا-أخلاقية يغمره

بالضيق والسأم، ـ فكيف بتعليم يدور على إمكان اشتقاق كل الغرائز الصّالحة من الغرائز الطّالحة. لكن، لنفرض أن أحدهم يذهب حتى إلى عدّ أشاعير كالحقد والحسد والجشع وشهوة السيطرة، أشاعير تشترطها الحياة، بوصفها شيئاً يجب أنْ يتوافر، مبدئياً وماهوياً، من ضمن مؤونة الحياة، شيئاً يجب على المرء تالياً أن يفعله بعد، إن أراد تفعيل الحياة، ـ إنّ صاحب هذا الرأي سيعاني من وجهة حكمه معاناته من دوار البحر. ومع ذلك، فهيهات أن يكون هذا الفرض هو الأكثر إحراجاً والأغرب في ملكوت المعارف الخطرة [هذا الملكوت] المترامي الأطراف والحديث العهد: ـ وثمة بالفعل، مئة سبب وسبب يأمر بأن يبتعد عنه كل من يسعه ذلك! وعلى العكس إذا قدّر لأحدهم أن يبلغ به زورقه هذه الربوع، فلينطلق! آن أوان العضّ بالنواجذ وفتح العينين وشدّ اليد على الدقّة! ـ فنحن بصدد المخور والمرور فوق الأخلاق، وقد نمعس ونسحق البقية الباقية من أخلاقيّتنا الخاصة، إذ نتوجّه إلى هناك ونجازف، ـ لكن، ما أهمية ما يجري لنا! لم يسبق لأيّ كان من الرحّالة والمجازفين الأشاوسة، أنْ بلغ مرةً مناطق تكشف له عالم رؤيةٍ أعمق من هذا: فالسيكولوجي الذي «يقوم بتضحية» من هذا القبيل ـ وهي ليست التضحية بالعقل[1]، بل بالعكس! ـ سيكون مخوَّلاً على الأقل، أن يطلب، بالمقابل، الاعتراف بالسيكولوجيا مرة أخرى سيدةً على العلوم، سيدة تخدمها سائر العلوم وتمهّد لها. ذلك أن السيكولوجيا تعود من جديد، ومنذ الآن، الطريق المؤدية إلى المشكلات الأساسية.

(1) Sacrifizio dell'intelletto.

الفصل الثاني

الروح الحر

24

إلى المؤمنين بالواقع: أيتها السذاجة المقدسة[1]! يا له من تبسيط وتزييف غريب يعيش فيه الإنسان! فما إن يفتح المرء عينيه ليبصر هذه الأعجوبة حتى لا يعود للعجب من نهاية! كم جعلنا كل شيء من حولنا باهراً وحراً، خفيفاً وبسيطاً! وكم برعنا في إفلات حواسنا على كل ما هو سطحي وفي تزويد فكرنا برغبة إلهية في البهلوة وفساد الاستدلال! ـ فيا للحذق الذي به حافظنا على جهلنا منذ البداية من أجل أن نتمتّع، على نحو يكاد لا يصدق، بما للحياة من حريّة وخفّة ونزق وجماح وبهجة، من أجل أن نتمتّع بالحياة! وعلى أساس الجهل هذا الذي بات الآن صلباً صلابة الصوّان، كان على العِلم أن يرتفع بدءاً، وكان على إرادة العِلْمان أن تتأسس على إرادة أكثر جبروتاً بكثير، إرادة الجهل

(1) O sancta simplicitasa!

واللايقيني واللاحقيقي. وذلك بوصفها لا ضدّها، بل صيغتها الملطّفة! لكن، إن عجزت اللغة، هنا كما في غير محلّ، عن تجاوز تثاقلها وظلت تتكلم على أضداد حيث لا توجد سوى درجات وتدرّجات غاية في الدقة؛ وأيضاً إن أمكن لرياء الأخلاق الذي صار ينتمي، على نحو لا يُقاوم، إلى «لحمنا ودمنا»، أن يَقلُب لنا بدورنا، نحن العالمين، [معنى] الألفاظ وهي لا تزال في أفواهنا: فإننا سنظلّ نتنبه للأمر، بين آن وآخر، ونضحك إذ نرى كيف أن أفضل عِلم تحديداً يريد أن يكبّلنا على أفضل وجه داخل هذا العالم المبسَّط، هذا العالم المُصطَنع والمُختلق والمُزيَّف على هوانا من القعر فصاعداً، وكيف أنه كرهاً ـ طوعاً يحبّ الأضلولة، لأنّه، وهو الحيّ، يحبّ الحياة!

25

«الحقيقة» وفرسانها: بعد مدخل على هذا القدر من المرح أرجو ألّا يسدّ المرء أذنيه دون كلمة جدّية: إنها موجّهة إلى المعشر الأكثر جِدِّية. إحترسوا أيها الفلاسفة وأصدقاء المعرفة، واحذروا من الاستشهاد، ومن المعاناة «في سبيل الحقيقة» وحتى من الدفاع عن أنفسكم! فإن ذلك يفسد كل ما لوجدانكم من براءةٍ ولطفِ حياد، ويجعلكم غلاظ الرقبة حيال الاعتراضات والمناديل الحمراء، يجعلكم أغبياء وبهائم وثيراناً، إن كنتم، في نضالكم ضدّ الخطر والافتراء والشبهة والنبذ وضدّ ما للبغضاء من عواقب أشدّ، تأبون إلّا أن تلعبوا، آخر الأمر، دور المدافعين عن الحقيقة على الأرض: وكأن «الحقيقة» امرأة ساذجة وخرقاء إلى حدّ أن بها حاجة إلى مدافعين: وكأن بها حاجة إليكم بالذات، يا فرسان

الهيئة المحزنة، أيها السادة التنابل، يا من تنزوون في الأركان وتغزلون خيوط الروح العنكبوتية! في النهاية، أنتم تعلمون جيداً أنه ليس من المهم البتة أن لا تكونوا أنتم بالذات على حقّ، وأن لا يكون أيُّ فيلسوف على حقّ حتّى الآن، وأنّ حقّانيةً، قد تكمن في كلّ علامة استفهام صغيرة تضعونها خلف ألفاظكم الأثيرة وتعاليمكم المفضلة (وأحياناً خلف أنفسكم)، لهي أكثر جدارةً بالإطراء مما يكمن في كل الإيماءات والانتصارات المهيبة في حضرة المدّعين والقضاة! فمن الأفضل لكم أنْ تروغوا جانباً! افزعوا إلى الخفاء! ارتدوا أقنعتكم ولباقتكم كي يخلط المرء بينكم وبين آخرين! أو كي يخافكم قليلاً! وإيّاكم أن تنسوا الحديقة، الحديقة ذات الأسيجة الذهبية! واجمعوا حولكم أناساً يشبهون حديقة أو ألحاناً فوق المياه عند المساء حين يمسي النهار ذكرى: إختاروا الوحدة الجيّدة، الوحدة الخفيفة الإرادية الحرّة، التي تخوّلكم أيضاً البقاء صالحين بمعنى من المعاني! يا لكثرة ما تنفث كلّ حرب طويلة لا تُشنّ بعنف صريح، من سمّ ومكر وشرّ! يا لشدّة وقع الخوف الطويل على الذات والمراقبة الطويلة للأعداء، بل لكلٍّ من قد يكون عدوّاً! فأولئك المنبوذون من المجتمع والملاحقون والمطادرون بشراسة ـ وحتى المتوحّدون اضطراراً، أمثال اسبينوزا وجيوردانو برونو ـ يتحوّلون جميعاً في النهاية وأبداً وربما من دون علمهم، يتحوّلون، رغم التنكّر الأكثر روحية إلى مسمّمين وحاقدين مكرة (فليُنبَش إذن أساس علم الأخلاق واللاهوت عند اسبينوزا!) ـ أضف أنّ بلاهة الاستهجان الأخلاقي تدل، عند الفيلسوف، بشكل دامغ على أنَّ روح الدعابة الفلسفية قد هجرته. فاستشهاد الفيلسوف «وتضحيته في سبيل الحقيقة» تظهر ما كان يخفيه من ممثّلٍ وداعيةٍ محرِّض؛ وعلى افتراض أنّ ثمّة مَن

تفرّج عليه، حتى الآن، بدافع الفضول الفني وحسب، فإنه سيكون من المفهوم أنْ يراوده الإحساس بتلك الرغبة الخطرة بالتفرّج مرة أخرى على الأقلّ على نوع من الفلاسفة ينحطّ (ينحطّ إلى «شهيد» ومحرّض وجعجاع). غير أن المرء، إذا ما شعر برغبة من هذا النوع، يجب عليه أن يدرك سلفاً أن ما سيشاهده دائماً في حالة كهذه لن يكون إلّا ملهاة ساخرة، لن يكون إلّا مهزلة الخاتمة والبرهان والمستمر على أنّ التراجيديا الأصلية الطويلة قد انتهت: هذا إن فرضنا أنّ كلّ فلسفة كانت في نشأتها تراجيديا طويلة ـ.

26

نصيحة إلى سيكولوجيين خارجين عن القاعدة: يتوق كل إنسان منتمٍ إلى الصفوة فطرياً إلى حصنه وخفائه، حيث ينعتق من العامّة والكثرة والسواد الأعظم، وحيث يسنح له أن ينسى القاعدة «إنسان» بوصفه استثناءً لها: ـ هذا إن لم تطرحه فطرة أقوى رأساً تحت هذه القاعدة، بوصفه عارفاً بمعنى كبير وغير مألوف. أما من لا يتلوّن بكل ألوان الضيق، عند مخالطة البشر، بين حين وآخر، ومن لا يصفرّ ويخضرّ قرفاً وسأماً، شفقة وتجهّماً ووحشةً، فذاك ليس بالتأكيد إنساناً رفيع الذوق؛ لكن، هبْ أنه لا يتطوّع لحمل كل هذا العبء والكدر، ويروغ عنه دائماً ويبقى، كما قلت، متحصّناً داخل قلعته في صمت وكبرياء، في هذه الحالة يمكن التيقّن من أمر واحد: إنّه ليس معدّاً للمعرفة ولا مجبولاً عليها. إذ، لو كان كذلك، لوجب عليه أنْ يقول لنفسه في يوم من الأيام: «تبّاً لذوقي: القاعدة أكثر إثارة من الاستثناء، منّي أنا الاستثناء!» ـ ولتوجّه إلى الأسفل، وقبل كلّ شيء، إلى

«الداخل». فدراسة الإنسان المعتدل دراسة طويلة وجديّة تتطلب كثيراً من التنكّر ومن غلب الذات ومن الابتذال والعِشْرة الرديئة ـ وكلُّ عِشرةٍ رديئةٌ ما عدا عِشْرة الأنداد ـ: كل هذا يشكّل صفحة ضرورية في سيرة حياة كلّ فيلسوف، والصفحة الأشدّ إزعاجاً ربّما، والأكره رائحة والأكثر خيبة. لكن إذا ما حالفه الحظّ، مثلما يجدر بصاحب المعرفة الحسن الطالع، فإنه سيلقى من يختصر ويسهّل له المهمة، ـ أقصد سيلقي من يسمّى بالكلبيّين، أي أولئك الذين يعترفون من دون إحراج بالبهيمية والعامية «والقاعدة» في أنفسهم، ويملكون إضافة إلى ذلك درجة معينة من الروحيّة والرغبة الجامحة تحفزهم إلى الكلام على أنفسهم وأمثالهم أمام شهود: ـ بل تراهم في بعض الأحيان، إذ يؤلّفون كتباً، يتمرّغون فيها وكأنهم في مزبلتهم الخاصة. فالكلبيّة هي الشكل الوحيد الذي به تتصل النفوس العاميّة بالاستقامة؛ وعلى الإنسان الأعلى أن يفتح أذنيه جيداً كلّما بلغ مسمعه أيّ ضرب من الكلبيّة، غليظة كانت أم لطيفة، وأن يهنّىء نفسه في كل مرّةٍ يجهر فيها، في حضرته بالذات، صوت المهرّج الماجن أو صوت المتهكّم العلمي. بل ثمة حالات يمتزج فيها الاشمئزاز بالافتتان: أعني هناك، حيث أرادت الطبيعة، لنزوة فيها، أن تزوّد بالعبقرية تيساً أو قرداً من ذاك النوع المهذار، كالأب غالياني، الإنسان الأعمق والأثقب نظراً وربما الأقذر في عصره ـ وكان أعمق بكثير من فولتير وبالتالي أكثر تكتّماً منه أيضاً. وثمة حالات أكثر تردّداً اقترن فيها، كما ألمحت، الرأس العلمي بجسد قرد، أو الفاهمة الفذّة الرفيعة بنفس وضيعة ـ وهذا ليس نادر الحدوث، وبخاصة عند الأطبّاء وفيزيولوجيّي الأخلاق. وكلمّا تكلم أحدهم من دون

سخط، بل بسذاجة، على الإنسان بوصفه بطناً له حاجتان ورأساً له حاجة واحدة، وكلّما بحث أحدهم عن الجوع والشهوة الجنسية والغرور وحسب، بحيث لا يرى، ولا يريد أن يرى سواها، وكأنّها الحوافز الوحيدة والأصلية لأفعال البشر؛ وباختصار، كلما تكلّم المرء «بالسوء» على الإنسان ـ وحتى من دون خبث ـ، كلّما كان يجب على عاشق المعرفة أن يصغي بدقّة وجدّ، بل يجب عليه عموماً أن يُصغي السّمع إلى حيث يدور الكلام من دون اشمئزاز. ذلك أن الإنسان المشمئزّ، وكل من ينهش ويفترس نفسه بأنيابه الخاصة (أو ينهش عوضاً عن نفسه العالم والله والمجتمع)، قد يكون من الناحية الأخلاقية أعلى مستوى من المتهكّم الضاحك الراضي عن نفسه، إلّا أنه يمثّل، من كل النواحي الأخرى، الحالة الأكثر شيوعاً والأقل إثارة وإفادة. وما من أحد يكذب بقدر ما يكذب المشمئز. ـ

27

نحن الذين لغزنا لا يُحزر!: يصعب فهم المرء، وبخاصة إذا ما فكّر وعاش غانجياً (بتدفق الغانج)(1) وسط قوم يفكّرون ويعيشون، على نحو مغاير، أي سلحفائياً(2) أو ضفدعياً(3) (قفزاً قفزاً) في أحسن الأحوال. ـ والحال أني أنا نفسي أفعل ما بوسعي كي يصعب فهمي ـ فالامتنان القلبي واجب تجاه التأويل المبذول عن

---

(1) gangasrotogati.

(2) kurmagati.

(3) mandeikagati.

طيب خاطر وبعض ذوق. أمّا فيما يخص «الأصدقاء الطيبين» الذين تستهويهم الراحة أبداً، ويظنّون أن الصداقة هذه تمنحهم الحقّ في الراحة، فيجدر بالمرء أن يترك سلفاً لسوء فهمهم فسحة للّعب والتمرغ: ـ وهكذا يتيسر له أن يضحك أو أن يتخلص من هؤلاء الطيّبين جملةً وأن يضحك أيضاً!

28

في إيقاع اللغات: إيقاع الأسلوب هو أصعب ما يمكن نقله من لغة إلى أخرى: فهو يجد أساسه في طابع اللغة العِرقي، أو بعبارة أكثر فيزيولوجية، في متوسط إيقاع «أيْضها». فهناك ترجمات سليمة النية تزيّف الأصل بما تضفي عليه من ابتذال غير متعمد، لسبب واحد وحسب: هو أنها تعجز عن نقل سرعته الشجاعة المرحة التي تقفز فوق كل ما هو خطر في الأشياء والأسماء وتتخطّاه. . . ويكاد الألماني يعجز دون الاندفاع السريع للغته: يمكن الاستنتاج إذاً وبكل حق أنه يعجز أيضاً دون معظم ما للفكر الحرّ وروحه المتحرّر من الفروق الأمتع والأشجع. وبقدر ما يكون غريباً قلباً وقالباً عن الهزل والهجاء، تمتنع عليه ترجمة أرستوفان وبيترون. فعند الألمان، يزدهر ويزخر كل التفخيم واللزاجة والبلادة المتثاقلة، وكل ألوان الأسلوب المطنِبة المضجِرة ـ واعذروني، إن قلتُ إنّ مؤلفات غوته النثرية نفسها، في مزيجها من التكلّف والتنميق، لا تشذّ عن ذلك، وهي صورة تعكس «الأيام الخوالي المجيدة» التي تنتمي إليها، وتعبير عن الذوق الألماني في زمن كان لا يزال هناك «ذوق ألماني»: وهو ذوق زخرفة مثقلة

(روكوكو)[1] في الأخلاق والفنون[2]. وقد شذّ لسينغ عن ذلك، بفضل جبلّته، وهي جبلّة ممثّل، ففهم الكثير وأتقن الكثير: هو الذي لم يكن بلا سبب، مترجماً لبايْل، والذي كان يهرب الى جوار ديدرو وفولتير، بل بالأحرى إلى وسط الشعراء الهزليين الرومان: وقد عشق لسينغ الروح الحرُّ، الهروب من ألمانيا في الإيقاع أيضاً. ولكن كيف للغة الألمانية، حتى في نثر لسينغ، أن تجاري إيقاع ماكيافيلي الذي يجعل قارىء «الأمير» يستنشق هواء فلورنسا الجاف العليل، والذي يأبى إلّا أن يعرض المسألة الأكثر جدّية في إيقاع سريع جداً طلق الأعنّة، وربما ليس من دون خبث شعور الفنان بالتضاد الذي يجازف به، ـ أفكار طويلة، رزينة، قاسية، خطرة وإيقاع يَرمَح بأفضل مزاج مقدام. ومن يجرؤ، أخيراً، على ترجمة بيترون بذاته الذي كان أكثر من أيّ مؤلف موسيقى عظيم، أستاذ الإيقاع السريع في الابتكارات والخواطر والكلمات: ـ وفي النهاية، ما أهميّة كل مستنقعات العالم الرديء المريض، «والعالم القديم» أيضاً، إنْ كان للمرء ما كان لبيترون، ساقان وهبوب ونسم من ريح، إن كان له هزء ريح محرّر وشافٍ من كلّ شيء، حيث يحثّ كل شيء على الركض! أما بخصوص أرستوفان، ذلك الروح المجلّي والمتمّم الذي، كرمى له، قد نغفر لليونانية بأسرها وجودها، شرط أن نفهم بكل عمق ما الذي فيها يقتضي الغفران والتجلّي ـ فإني لا أذكر شيئاً حملني على التأمل في سر أفلاطون وطبيعته الملغزة أكثر من واقعة صغيرة وصلتنا

(1) Rokoko: أساساً أسلوب في الفن الأوروبي في القرن الثامن عشر ويستعمل اللفظ للدلالة إلى الإفراط المبتذل في الزخرفة.

(2) In moribus et artibus.

لحسن الحظّ تقول: لم يكن تحت وسادة أفلاطون وهو على فراش الموت لا «إنجيل» ولا شيء مصرياً، فيثاغورياً أو أفلاطونياً، ـ بل نسخة من أريستوفان. إذ كيف كان لأفلاطون أن يطيق الحياة ـ حياة يونانية يرفضها ـ من دون أريستوفان!

29

قدر المتوحّدين الكبار: الاستقلال من شأن قلّة قليلة: ـ إنه امتياز الأقوياء. ومَن يقم بالمحاولة، حتى لو كان على حق، إنما من دون أن يكون مكرهاً على ذلك، يبرهن على أنه ليس قويّاً وحسب، بل، على الأرجح، مقدام إلى حد التهوّر. فهو يلج متاهةً ويضاعف آلاف المرات الأخطار الملازمة للحياة في حدّ ذاتها: وليس أقلّها أنّ لا أحد يبصر بأمّ عينه كيف وأين يضلّ أو يتوحّد أو يقع ضحيةً لمينوتورٍ ما يقبع في أحد كهوف الضمير فيمزقه إرباً إرباً. ولنفرض أن أمرأ من هذا القبيل بات على وشك الهلاك، فإن ذلك سيحصل بعيداً عن فهم البشر بحيث لا يشعرون به أو يَرقّون له: ـ فهو لا يعود بإمكانه التراجع! ولا يعود بإمكانه أيضاً الرجوع إلى رحمة البشر! ـ

30

إستبعدها أو استقبلها، حسب الحالة: لا مفرّ ولا بدّ من أن تقع أرقى تأملاتنا على السمع كأنها حماقات، وأحياناً وكأنها جرائم إن طرقت خلسة آذان مَن ليس معدّاً لها ومجبولاً عليها. فالتعاليم للعامّة أو الخاصّة التي ميّز بينها الفلاسفة قديماً، عند الهنود كما عند اليونان والفرس والمسلمين، وباختصار، في كلّ

مكان درج فيه الإيمان بالتراتبية وليس بالسواسية والحقوق المتساوية، ـ لا يتميّز بعضها من بعض أولاً لأن المنتمي إلى العامّة يقف خارجاً ويبصر ويقيّم ويقيس ويحكم من الخارج وليس من الداخل: بل إن الجوهري في الأمر هو أنه ينظر إلى الأشياء من أسفل إلى أعلى، في حين أن المنتمي إلى الخاصة ينظر إليها من أعلى إلى أسفل. وثمة أعالي للنفس تبدو فيها التراجيديا بعينها كما لو أنّ مفعولها التراجيدي قد أبطل؛ وحتى لو جمعنا كلّ آلام العالم جمعاً واحداً، فمن، يا ترى، سيكون مخوّلاً للجزم بكل جرأة في ما إذا كانت مشاهدتها ستودي بنا بالضرورة إلى التراحم بعينه وتجبرنا عليه، فتفضي من ثم إلى مضاعفة الآلام؟... إن ما يصلح غذاءً ورحيقاً للنوع الأعلى من البشر، يجب أن يكون بمثابة سمّ لنوع مختلف جداً وأوضع. وربما صارت فضائل الرجل العاميّ إن تبنّاها الفيلسوف، رذائل وعيوباً؛ ومن الممكن أن ينال إنسان من النوع الأعلى، إن فرضنا أنه ارتدّ عن نوعه وهلك، بفعل ارتداده وحده، صفاتٍ تضمن له بالضرورة أنْ يُعبَد كقديس في ذلك العالم الوضيع الذي هبط إليه. وثمة كُتُب لها، بالنسبة إلى النفس والصحة، قيمة مختلفة تتوقف على ما إذا استعملتها النفس الوضيعة، وقوة الحياة المتدنية، أم النفس العليا والقوة الأكثر جبروتاً: في الحالة الأولى ستكون كُتُباً خطرة، مُزعْزِعة ومفتِّتة، وفي الحالة الثانية ستكون صيحات استنفار لمن هم أشدّ بسالة كي يظهروا بسالتهم. والكتب المخصّصة للجميع تعبق دائماً برائحة غير ذكية: رائحة الناس الصغار لاصقة بها. وحيث يأكل الشعب ويشرب وحيث يعبد أيضاً، تهفّ دائماً رائحة كريهة. فعلى المرء إلّا يدخل الكنائس، إن أراد أن يستنشق هواء نقياً..

31

عن الروح الحرّ في شبابه: في مقتبل العمر يحترم المرء أو يحتقر، وهو لا يزال مفتقراً إلى لطف التمييز الذي هو أفضل مكسب تهبه الحياة. ويحصد عن حق جزاء قاسياً على تصدّيه للأشياء والبشر بقوله نعم ولا. وكل شيء معدّ للعبث والتشنيع بأردأ الأذواق قاطبة، بالذوق للمطلق، قبل أن يتعلم المرء أن يتفنن قليلاً في مشاعره، أو بالأحرى قبل أن يجرؤ على قليل من التصنّع: كما يفعل فنانو الحياة الحقيقيون. ويبدو أن ميل الشباب إلى الثورة أو إلى التهيّب لا يخلد إلى الراحة إلّا بعد أن يزيِّف ويكيف البشر والأشياء، بحيث يتيسَّر له أن يسرح ويمرح بينها على هواه: إن الشباب في ذاته شيء زائف وخادع. وفيما بعد، حين النفس الفتية القاسية لكثير الخيبات، ترتدّ أخيراً على ذاتها بارتياب، وهي لا تزال مشبوبة وجامحة في ارتيابها وتأنيب ضميرها أيضاً: حينها كم ستغضب ذاتها، وكم ستنهش ذاتها نافذة الصبر، وكم ستنتقم لانبهارها الذاتي الطويل كما لو أنه كان عمى بملء الإرادة! في عمر الانتقال هذا، يعاقب المرء نفسه بالارتياب في شعوره الخاص، ويعذّب حماسه بالشك، بل يحسّ راحة الضمير بحدّ ذاتها خطراً ونوعاً من التلثّم، نوعاً من وهن في استقامته المرهفة، وقبل كل شيء يتحزّب، ويتحزّب مبدئياً ضد «الشباب». ـ وما إن يمضي عقد آخر حتى يدرك أن هذا كلّه كان شباباً أيضاً!

32

لا النتيجة تشكل قيمة الفعل، ولا القصد، بل ما له من لا

قصدي: خلال الفترة الأطول من التاريخ البشري ـ والمسماة بفترة ما قبل التاريخ ـ استُنبِطت قيمة الفعل أو لا قيمته من النتائج المترتبة عليه: وهكذا قلّ الاهتمام بالفعل في حدّ ذاته، مثلما قلّ بنَسَبه؛ بل على غرار ما يحصل في الصين حتى اليوم من إحالة الشرف أو العار الذي للأولاد إلى الأهل، كان الدليل إلى حسبان الفعل صالحاً أو طالحاً هو القوة الارتدادية للنجاح أو الإخفاق. ولنسم هذه المرحلة مرحلة البشرية ما قبل \الأخلاق: حيث كان الأمر «إعرف نفسك»! لا يزال مجهولاً. بل إنه خلال العشرة آلاف سنة الماضية تمّ التدرّج خطوة خطوة في مساحات واسعة من الأرض نحو إضفاء القيمة لا على نتائج الفعل بل على نَسَبه: وهو حدث كبير في مجمله وتهذيب بالغ للنظرة والمقياس، تهذيب إن هو إلَّا أثر لاواعٍ لسيادة القيم الأرستقراطية وللإيمان بـ «النَّسَب»، ورمز مرحلة يمكن تسميتها، بالمعنى الأدق، المرحلة \الأخلاقية: وتلك هي أول محاولة لمعرفة الذات. ليس النتائج بل النسب: يا له من قلب للمنظور! وهو قلب لم يتحقّق، على الأرجح، إلَّا بعد صراعات وتأرجحات طويلة! إلَّا أنّ خرافة جديدة وخيمة العاقبة وتأويلاً ضيّقاً فريداً قبضا بذاك بالذات على زمام الأمور: فتمّ تأويل نسب الفعل، بالمعنى الأكثر تعيّناً، بوصفه نسباً نابعاً عن قصد؛ واتّفق الجميع على الإيمان بأن قيمة الفعل كامنة في قيمة قصده. القصد بوصفه كلّ ما لفعلٍ ما من نَسَبٍ وتاريخ يسبقه: في ظلّ هذه التحكيمة ظلَّ المرء حتى عهد قريب جداً يمدح ويعذل ويحكم ويتفلسف أخلاقياً على الأرض. ـ ولكنْ، ألم يبلغ بنا الأمر اليوم ضرورة العزم، مرة أخرى، على قلب القيم وتحويل أساسها، بفضل استفاقة جديدة للذات وتعميق جديد للإنسان؟ ـ

ألا نقف اليوم على عتبة مرحلةٍ يمكن تسميتها سلباً، باديء الأمر، بمرحلة خارج الأخلاق: اليوم، إذ بدأ يراودنا، نحن اللا-أخلاقيين على الأقلّ، ارتياب مفاده أن قيمة الفعل الحاسمة تكمن بالذات في ما له من لا-قصدي، وأن كل ما له من قصدية، كل ما يمكن أن يُرى ويُعرف «ويوعى» منه ينتمي بالأحرى إلى سطحه وقشرته التي، شأنها شأن كلّ قشرة، تبوح بشيء وتستر أشياء؟ وباختصار، بتنا نؤمن بأن القصد هو مجرد رمز وعارض، به بدءاً حاجة الى تأويل، أضف أنه رمز يدل على أمور في غاية التنوع ويدل، تالياً في حد ذاته، على لا شيء تقريباً ـ وبأن الأخلاق بالمعنى السابق، أي أخلاق المقاصد، كانت تحكيمةً وتهورًا وربما شيئاً مؤقتاً، نوعاً من تنجيم وألْكيمياء، لكنْ شيئاً يجب تخطّيه على أيّ حال. تخطّي الأخلاق، بل تخطّي الأخلاق لذاتها بمعنى ما: ليكن هذا هو الاسم الذي يطلق على ذاك العمل السري الطويل الذي يبقى حكراً على ألطف وجدان، بوصفه محكّاً حيّاً للنفس، وأنزه محكّ بل أخبثه في الزمن الحاضر. ـ

33

نكران الذات: دلالة على حياة مُقْفَرة: ليس باليد حيلة: على المرء أن يحاسب، من دون هوادة، مشاعر التفاني والتضحية في سبيل القريب، وأخلاق نكران الذات كلّها ويسوقها إلى المحكمة. وكذلك الأستيطيقا الداعية إلى «التأمل المنزّه عن الغرض»، وهو العنوان الذي يسعى من خلاله اليوم فنٌّ فاقدُ الرجولةِ إلى إراحة ضميره بطريقة مغوية جداً. لكن، في تلك المشاعر «من أجل الغير»، «لا من أجلي»، قدراً مفرطاً من السحر والسكر، أكبر من

أن يعفي المرء من الحاجة إلى مضاعفة الارتياب والسؤال: «أليست، بالأحرى إغواءات؟». ذلك أنّ نيلها للإعجاب ـ إعجاب من يملكها ومن يستفيد من ثمارها، بما في ذلك مجرّد المتفرّج ـ ليس حجة لصالحها، بل هو يدعو بالأحرى إلى توخّي الحذر. فلنكن إذن حذرين!

34

ظاهرة الدماغ (والأُشعور) المسمّاة «عالماً»: أياً كان الموقف الفلسفي الذي يمكن للمرء اليوم أن يقفه: فإن مغلوطية العالم الذي نعتقد أنّنا نعيش فيه، تبقى، من أي منظور كان، أوثق وأمتن ما يمكن أن يقع تحت بصرنا: ـ فنحن سنعثر على ألف حجة وحجة تودي بنا إلى تخمين مبدأ خادع في «ماهية الأشياء». أليس تحميل فكرنا نفسه، أي «الروح»، مسؤولية خطل العالم، ـ وهذا حسن تخلّص يلجأ إليه كل من هو محام لله[1] عن وعي أو من دون وعي ـ أليس حسبان هذا العالم، بما فيه من مكان وزمان وهيئة وحركة، بمثابة استنتاج فاسد، أليس فرصةً مناسبة لكي نتعلّم أخيراً التشكيك في الفكر نفسه جملةً؟ ألم يتلاعب هو بنا حتى الآن أيّما تلاعب؟ وما الذي يضمن ألا يستمر في فعل ما فعل دائماً؟ وبكل جدّ: إن براءة المفكّرين تستدرّ العطف وتبعث على الإجلال، وهي التي سمحت لهم حتى اليوم بالوقوف أمام الوعي راجين منه أن يعطيهم أجوبة صادقة: وعلى سبيل المثال، عما إذا كان هو «واقعياً»، ولماذا يصرّ الإصرار كله على إبعاد العالم

(1) Advocatus dei.

الخارجي عن خناقه؟ إلى ما هنالك من أسئلة على هذا المنوال. إن الإيمان بـ «يقينيات بلا توسّط» سذاجة أخلاقية تشرّفنا، نحن الفلاسفة: لكن المطلوب بالضبط أن لا نكون أناساً «أخلاقيّين وحسب»! فإن غضضنا النظر عن الأخلاق سيكون ذاك الإيمان بلاهة لا تشرّفنا البتة! وقد يُحسب الارتياب المتسرّع في الحياة البورجوازية علامة على «طبع رديء» وينسب تالياً إلى سلوك غير ذكي، أما هنا بيننا وما وراء العالم البورجوازي وما له من نعم ولا، ـ فما الذي يمنعنا من أن نكون لا-أذكياء ونقول: إن للفيلسوف فعلاً كل الحقّ في «الطبع الرديء»، بوصفه ذاك الكائن الأرضي الذي كان دائماً حتى الآن عرضةً لأفضل خداع ـ، إن عليه اليوم واجب الارتياب، واجب النظر بعين شزْراء خبيثة من قعر كل ارتياب. ـ وأرجو أن أُسامح على المزاح بهذه الشناعة السوداء: فأنا من جهتي قد تعلمت من زمان أن أعيد النظر في رأيي وتقييمي للخداع والانخداع، وأراني مستعداً على الأقل لمقابلة غيظ الفلاسفة الأعمى المستهجِن للانخداع ببعض لطمات. ولمَ لا؟ أن تكون الحقيقة أكثر قيمة من الترائي، ذاك ليس أكثر من تحكيمة أخلاقية، بل ذاك هو الفرض الأوهى برهاناً في العالم. ولنعترف على الأقل بالتالي: لو لم يكن للحياة أساس من التخمينات والترائيات المنظورية، لما كان ثمة من حياة البتة، ولو شاء المرء، باندفاع وحمق ينضحان فضيلةً وعلى غرار بعض الفلاسفة، أن يلغي «العالم المترائي» كلياً ـ وعلى فرض أنكم قادرون على هذا ـ، لما فَضِلَ، في هذه الحالة على الأقل، أيّ شيء من «حقيقتكم» أنتم أيضاً! لا بل ما الذي يجبرنا، بعامة، على الظن أن ثمة تضاداً ماهويّاً بين «الحقيقي» «والمغلوط»؟ ألا يكفي أن نسلم بدرجات للترائي، بظلال وألوانٍ للترائي، تكون

أفتح تارةً وأغمق تارةً أخرى، بقيم لونية مختلفة، إن شئنا التكلم بلغة الرسّامين؟ ولِمَ لا يمكن للعالَم الذي يخصّنا أن يكون توهماً؟ فإن كان مَن يسأل هنا: «ألا يُنسب إلى التوهّم خالق؟»؛ ألا يمكن أن يجاوب بكل بساطة: لماذا؟ «ألا يُنسب هذا الـ «يُنسب» إلى التوهّم أيضاً يا ترى؟ أليس من المسموح أن نتهكّم قليلاً حيال الفاعل والفعل والمفعول به؟ أليس للفيلسوف أن يتعالى عن الإيمان بالنحو؟ كل التقدير للمؤدّبات! لكن، ألم يَئِنْ أوان أن تجحد الفلسفة إيمان المؤدِّبات؟ ـ.

35

سذاجة غير مسموح بها: آه فولتير! يا للإنسانية! يا للبلاهة! إن للـ «حقيقة» وللبحث عن الحقيقة خطباً ما؛ فإذا ما انكبّ الإنسان عليه بإنسانية مفرطة ـ «وهو لا يبحث عن الحق إلّا من أجل فعل الخير»(1) ـ أُراهن على أنه لن يجد شيئاً!

36

فرض استقرائي حول إرادة القدرة: هبْ أنّه ما من شيء «معطى» بوصفه واقعاً، غير عالم الأطماع والأهواء الخاص بنا، وأنه لا يمكن لنا أن ندرك أيّ «واقع» أعلى أو أخفض غير واقع غرائزنا بالذات ـ والتفكير ليس سوى تصرف هذه الغرائز بعضها إزاء بعض ـ: ألا يكون من المسموح به، عندئذٍ، أن يطرح السؤال، على سبيل التجريب، عما إذا لم يكن هذا المعطى كافياً

---

(1) «Il ne cherche le vrai que pour faire le bien».

أيضاً، لكي نفهم، قياساً على الشبيه، ما يسمّى بالعالم الميكانيكي (أو «المادي») وأعني، لا بوصفه خداعاً، و«ترائياً» أو «تصوّراً» (وفق مفهوم بركلي وشوبنهاور)، بل بوصفه من المرتبة الواقعيّة عينها التي لأشعورنا نفسه، ـ بوصفه صورةً بدائية لعالم الأشاعير الذي ما زال يضمّ، في وحدة قوية ومحكمة، كل ما يتفرّع ويتشكّل (ويا للإنصاف! كل ما يهن ويضعف أيضاً! ـ) من ثَمَّ في السيرورة العضوية، بوصفه ضرباً من ضروب الحياة الغريزية حيث لا تزال جميع الوظائف العضوية، من انتظام وتمثل وتغذٍّ وتصريف وأيض، مدموجة بعضها في بعض ومرتبطة تأليفياً، ـ بوصفه صورةً قبْليّة للحياة؟ ـ وفي النهاية ليس هذا التجريب مسموحاً وحسب، بل هو ما يوصي به ضمير المنهج: عدم التسليم بعدة ضروب من السببية، ما دام تجريب الاكتفاء بواحدة لم يُدفع بعد إلى حدِّه الأقصى (وإلى الخلُف، مع عدم المؤاخذة): هذا هو مغزى المنهج الذي لا يمكن للمرء التنصّل منه اليوم، ـ إنه ناتج «عن تعريفه»، كما يقول الرياضي. والسؤال المطروح في النهاية هو: هل نعترف بالإرادة فعلاً بوصفها فاعلة؟ هل نؤمن بسببية الإرادة؟ وإذا ما فعلنا ـ وإيماننا بهذا هو أساساً إيماننا بالسببية نفسها ـ، فعلينا أن نجرِّب طرح سببية الإرادة، فرضاً، بوصفها السببية الوحيدة. ويمكن «للإرادة» بالطبع أن تفعل في «الإرادة» وحسب، وليس في «المواد» (ليس في «الأعصاب» مثلاً): ـ وباختصار، علينا أن نجازف بطرح الفرض التالي: ألا تفعل الإرادة في الإرادة، أنّى تعرّف المرء إلى «مسبَّبات»؟ أليس كل حدث ميكانيكي، من حيث تفعل فيه قوةٌ، قوةَ إرادةٍ وفعلَ إرادةٍ بالضبط؟ ولنفرض أخيراً، أنه من الممكن تفسير حياتنا الغريزية بأسرها بوصفها تفرّعاً وتشكّلاً عن صورة أصلية واحدة من الإرادة ـ أعني

إرادة القدرة على حد تعبيري أنا؛ لنفرض أنه من الممكن إحالة كل الوظائف العضوية إلى إرادة القدرة هذه، وإيجاد حلّ بذلك لمشكلتي الإنجاب والتغذي أيضاً ـ وهما مشكلة واحدة ـ، فإن ذلك سيعطينا الحق في أن نعيّن صراحةً كل قوة فاعلة بوصفها: إرادةً للقُدْرة! وسيكون العالم، عند النظر إليه من الداخل وعند تعيينه والدلالة عليه بالنظر إلى «معقوليته»، ـ سيكون تحديداً «إرادة القُدْرة» ولا شيء سواها.

37

خلط: «ماذا؟ ألا يعني هذا بعبارة، شعبية، أن الله قد أُبطل، أما الشيطان فلا ـ؟» بالعكس! بالعكس، يا أصدقائي! وبحقِّ الشيطان، من يجبركم على الكلام شعبيّاً! ـ

38

علمنا بالماضي: على غرار ما جرى، منذ عهد قريب وفي كل وهج الأزمنة الحديثة، للثورة الفرنسية، لتلك المهزلة المرعبة، النافلة عند تقييمها عن كثب، التي أَقْحَم فيها مع ذلك غلاة المتفرجين الكرام من كل أنحاء أوروبا، ثورتَهم وحميّتهم الخاصة، فأوّلوها عن بعدٍ بتعسّفٍ وإطالةٍ وشغف، حتى توارى النص خلف التأويل ـ يمكن أن يأتي أيضاً جيل نبيل آخر ويسيء مرةً أخرى فهم الماضي كلّه، فيبدأ بإضفاء بعض القبول على منظره من جرّاء ذلك. ـ بالأحرى: أليس هذا ما قد حصل؟ ألم نكن أنفسنا هذا «الجيل الآتي النبيل»؟ وكل هذا، ألا ينتهي الآن بالذات، إذ ندركه؟

39

ثمة حاجة إلى مزيد من «التجربة»: إن كان هناك تعليم ما يجعل المرء سعيداً وفاضلاً، فلا أحد سيسارع إلى تصديقه لهذا السبب وحده، باستثناء «المثاليّين» الحلماء الذين يولعون بالخير والحق والجمال ويسرّحون في بركة سباحتهم سرباً من شتى ألوان المُنَى الزاهية البليدة الطيبة. لكنّ السعادة والفضيلة ليستا حجةً. إلّا أنه من المسرّ للمرء، إنْ كان من ذوي الروح الرصين، أن يتناسى أن الشقاء والرذيلة ليسا حجة مضادة كذلك. وثمة أمر واحد حقيقي على الأرجح، وإن كان مضرّاً وخطراً إلى أقصى درجة؛ أجل، ربما كان في أساس القوام الأصلي للوجود أن معرفته التامة تودي بالمرء ـ بحيث يكون مقياسَ قوّة الروح كمُّ «الحقيقة» الأقصى الذي يقدر على تحمله. وأوضح: درجة حاجته إلى أن يموّهها ويسترها ويحلّيها ويخفضها ويزيّفها. ومع ذلك ثمة أمر واحد لا يطاله الشك: إنّ الأشرار والتعساء أوفر حظّاً في اكتشاف بعض \الأجزاء من الحقيقة وأكثر احتمالاً في الإفلاح؛ ناهيك عن الأشرار السعداء، ـ وهم فصيلة يكتمها الأخلاقيون. ولعل القسوة والمكر يشكلان شروطاً أنسب، لولادة روح وفيلسوف قوي ومستقل، من تلك الطيبة الرقيقة الناعمة السمحاء وفنّ التهوين على النفس الذي يقدّره المرء عند العالِم، ويقدّره بحق. شرط ألّا يقتصر الأفهوم «فيلسوف» على الفيلسوف الذي يؤلّف كتباً أو حتى على الذي يدوّن فلسفته في الكتب! ـ إن خاصيّة أخيرة يضيفها ستاندال إلى صورة الفيلسوف الحر الروح، وإنّي، من أجل الذوق الألماني، آبى إلّا أن ألفت إليها الأنظار، لأنها تنافي الذوق الألماني. يقول آخر سيكولوجي كبير: «كي

يكون المرء فيلسوفاً جيداً، عليه أن يكون جافاً، واضحاً لا أوهام له. إن للمصرفي الذي جمع ثروة قسطاً من الطبع اللازم للقيام باكتشافات في الفلسفة، أي للنظر بوضوح في ما هو قائم»[1].

40

يريد أن يبقى لغزاً: إن كلّ ما هو عميق يحب القناع؛ والأشياء الأعمق تمقت حتى الصورة والمثال. أليس حياء الإله هو ما يدفعه بدءاً إلى التنكر في الضدّ؟ ـ سؤال جدير بأن يُسأل. وكان سيُعدّ أمراً عجيباً لو لم يجرُؤ عل مثله متصوّف ما. ثمة ماجريات في غاية الرقّة، بحيث يحسن المرء صنعاً بطمرها تحت فظاظة ما، وموارَاتها عن الأبصار؛ ثمة أفعال نابعة عن حبّ وكرم مشتطّ، يُستحسن، على إثرها، تناول العصا وإشباع شاهد العيان ضرباً: بهذا تتعكّر ذاكرته. البعض يتقن تعكير ذاكرته الخاصة والتنكيل بها، كي ينتقم على الأقل من هذا المُطَّلع والشريك الوحيد: ـ إن الحياء خير مخترع. وليس أردأ الأمور ما نستحي منه على أردأ وجه؛ فوراء القناع لا يوجد مكر وحسب؛ بل في الحيلة الكثير من الرفق. ويمكنني أن أتخيل إنساناً ما يكنّ شيئاً ثميناً ورقيقاً، يتدحرج عبر الحياة غليظاً ومبروماً مثل برميل نبيذ أخضر عتيق وثقيل ومصفَّح: إن رَهَفَ حياته يملي عليه ذلك. ويلاقي الإنسان

(1) «Pour être bon philosophe, il faut être sec, clair, sans illusion, Un banquier, qui a fait fortune, a une partie du caractère requis pour faire des découvertes en philosophie, c'est-à-dire pour voir clair dans ce qui est».

العميق الحياء أقدارَه وقراراتِهِ الرقيقة أيضاً على دروب تبلغها القلّة ذات يوم، ولا يعلم بوجودها مقرّبوه وألّافه: ويبقى الخطر الذي يهدّد حياته مخفياً عن أنظارهم، مثلما يبقى أَمْن حياته مخفياً، إن فاز به من جديد. إن أمراً خفيّاً من هذا القبيل يستعمل الكلام فطرياً للصمت والتكتّم، ويشبه نبعاً لا ينضب من وسائل الهروب من الإخبار، هو من يريد أن يجول عوضاً عنه قناع له، في قلوب أصدقائه ورؤوسهم ويشجّع على ذلك. وهب أنه لا يريد الأمر، فإنه سيفتح عينيه يوماً ليدرك أن له مع ذلك، قناعاً، ـ وأن الأمر جيّد على هذا النحو. فكل روح عميق بحاجة إلى القناع: بل أكثر أيضاً، حول كل روح عميق ينمو قناع من دون انقطاع، بفضل التأويل الخاطىء المستمر، أي التأويل الضحل لكل كلمة، لكل خطوة، لكل نأمة حياة تبدر منه.

41

التمسك «بالذات»، لا إضاعة «الذات»: يجب على المرء أنْ يختبر نفسه كي يعرف بأنه معدّ للاستقلال والإمرة: [وأن يأتي] ذلك في حينه. وعلى المرء ألّا يتفادى اختبار نفسه، على الرغم من أن الاختبار قد يكون أخطر لعبة يمكن أن يلعبها، وهو آخر الأمر، مجرد اختبار نقوم به ونحن شهوده وقضاته الوحيدون. وعلينا ألّا نركن إلى شخص: وإن كان أحبَّ الأشخاص إلينا، ـ فكلّ شخص هو سجن وانزواء أيضاً. وألّا نركن إلى وطن: وإنْ كان أكثر الأوطان معاناةً وأحوجها إلى المعونة، ـ تخلّي القلب عن وطن غالب أقلّ صعوبة. وألّا نركن إلى الشفقة، وإنْ كانت وجهتها أعلى أناس شاءت المصادفة أن ترينا شِدّتهم وعذابهم

الفريد. وألّا نركن إلى عِلم: وإن أغرانا بأثمن الكنوز التي تبدو وكأنها مرصودة لأجلنا بالذات. وألّا نركن إلى انعتاقنا الخاص، إلى شهوة البعد والغربة تلك التي للطائر وهو يفزع أكثر فأكثر إلى الأعالي، كي يتّسع المنظور تحته أكثر فأكثر ـ ذاك هو الخطر الذي يحيق بمن يطير. وألّا نركن إلى الفضائل الخاصة بنا ونقع بكليتنا ضحية خاصيةٍ مفردة لنا، وعلى سبيل المثال «حبّ الضيافة» ـ ذاك خطر الأخطار على نفوس غنيّة ورفيعة تُجْزِل بإسراف وتكاد لا تبالي بذاتها فتدفع فضيلة الكرم إلى حدّ الرذيلة. على المرء أنْ يعرف كيف يحفظ ذاته. ذاك هو أقوى اختبار للاستقلال.

42

فلاسفة للمستقبل: يلوح في الأفق جنس جديد من الفلاسفة: وأجرؤ على أنْ أعمّدهم باسم لا يخلو من الخطر. وكما أحزرهم، وكما يسمحون لي بأن أحزرهم ـ إذ من طبعهم أنْ يريدوا البقاء لغزاً في موضع ما ـ فإن فلاسفة المستقبل هؤلاء يودّون، عن حقّ أو عن لاحقّ أيضاً، أنْ يسمّوا مجرّبين. وفي آخر الأمر، ليس هذا الاسم نفسه سوى تجريب، سوى «التجربة»[1] إن شئتم.

43

تفوّقهم: هؤلاء الفلاسفة المقبلون، هل سيكونون أصدقاء

(1) Versuchung، بمعنى الإغواء في مثل قوله: «... ولا تُدْخِلنا في التجربة...».

«الحقيقة» الجدد؟ محتمل جداً: لأنّ الفلاسفة جميعاً أحبّوا حقائقهم، حتى الآن. لكنّهم لن يكونوا، بالتأكيد، دغمائيين. ويجب أنْ يُنافي كبرياءَهم وذوقَهم أيضاً، أن تكون حقيقتهم حقيقةً لكلّ طالب: لقد اختبأت هذه الفكرة والرغبة، الخفيّة حتى الآن، وراء كل الأطماع الدغمائية. وقد يقول فيلسوف مستقبلي كهذا: «إن حكمي هو حكمي أنا وليس لغيري حقّ فيه بكل بساطة». على المرء أن يتخلص من الذوق الرديء الذي يريد الاتّفاق مع الأكثرية. إن «الخير» لا يعود خيراً إذا تفوّه به الجار. فكيف يمكن أن يكون ثمّة «خير عام»! إن اللفظ يناقض ذاته: ما يمكن أنْ يكون عامّاً، له أبداً قيمة ضئيلة وحسب. وفي النهاية، يجب أن تكون الأمور على ما هي عليه وعلى ما كانت عليه دائماً: تبقى الأشياء العظيمة للعظماء، والأغوار للسابرين، والارتعاشات الرقيقة للمرهفين، وجملةً واختصاراً: يبقى كلّ نادرٍ للنادرين. ــ

44

لاحداثتهم وغناهم وإرادتهم المنظّمة: هل يجب عليّ، بعد كل هذا، أن أقول خصيصاً إنهم سيكونون أيضاً أرواحاً حرّة، حرّة جداً، فلاسفة المستقبل هؤلاء، ــ على أنهم، وبكل تأكيد، لن يكونوا أرواحاً حرّة وحسب، بل شيئاً أزيد، أعلى، أعظم، مغايراً جذرياً، شيئاً يأبى سوء التقدير والخلط؟ لكنّي، إذ أقول هذا، بصددنا، نحن دعاتهم والمبشّرين بهم، نحن الأرواح الحرّة! ــ وبصددهم هم كذلك وبقدر مماثل من الإلحاح، ــ أشعر بواجب أنْ أبدّد، بصددنا جميعاً، سوءَ فهم وتحكيمةً عتيقة بلهاء حجبت الأفهوم «الروح الحرّ» بضبابها وبهّمته طويلاً جداً. ففي كل

البلدان الأوروبية وفي أميركا أيضاً، يوجد اليوم مَن يسيء تسمية نفسه بهذا الاسم، وهو نوع من الأرواح ضيّق جداً ومسجون ومكبّل بالأغلال، وهو يريد تقريباً عكس ما نريد وما يكمن في قصدنا وفِطَرنا. ناهيك عن أنه سيكون، بالنظر إلى أولئك الفلاسفة الطالعين الجدد، بالذات، بمثابة نوافذ مقفلة وأبواب مغلقة المزاليج. فأولئك الذين يسمّون خطأً «أرواحاً حرّة» ينتمون بعبارة مقتضبة ولاذعة، إلى السواسيّين[1] بوصفهم عبيداً ذوي لسان ذرب وأصابع ماهرة [في خدمة] الذوق الديموقراطي و«أفكاره الحديثة»؛ وجميعهم أناس يفتقرون إلى التوحّد، إلى توحّدهم الخاص. وهم غلمان متثاقلون طيبون، لا ننكر عليهم لا الشجاعة ولا الآداب المحترمة، غير أنهم تحديداً لا-أحرار وسطحيون إلى حدّ يجعلهم أضحوكة، وبخاصة في ميلهم الأساسي إذ يرون في أنماط المجتمع القديم السابق سبباً لكل بؤس وإحباط بشري تقريباً: وإذا بالحقيقة تقف سعيدةً رأساً على عقب! وما يصبون إليه، بكلّ قوتهم، هو سعادة المراتع الخضراء للقطيع كله، سعادة خالية من الخطر، بل طافحة بالانشراح والأمان وبكلّ ما يهوّن حياة الجميع؛ ونَغْمَتاهُم وتَعْليماهُم الأكثر ابتذالاً هما «المساواة في الحقوق» و«الشفقة على كلّ من يتألّم»، ـ والآلام نفسها يحسبونها شيئاً يجب إلغاؤه. أما نحن المعاكسين، نحن الذين فتحنا عيناً وضميراً للسؤال: أين وكيف نَعمتْ نبتة «الإنسان» حتى الآن بأقوى نموّ نحو الأعلى؟ فإننا نظن أن هذا حصل كلّ مرّة تحت الظروف المعاكسة، وأنّه، من أجل ذلك، كان على أخطار وضع الإنسان أنْ تزيد وتتفاقم إلى حدّ الفظاعة، وعلى قوة اختراعه

(1) Nivellirer من «سواسية».

وريائه (أيْ على «روحه») أنْ تتطور تحت طول الضغط والإكراه إلى حدّ الرهافة والإقدام، وعلى إرادته للحياة أنْ تُفعَّل إلى أن تغدو إرادة لا-مشروطة للقدرة ـ إننا نظن أن القسوة والعنف والعبودية، والخطر في الزقاق، والقلب، والسرية والرواقية، وفنّ التجريب والتعويذ على أنواعه، وكلّ شرّ مرعب ومستبدّ، وكلّ ما يشبه الأفاعي والضواري في الإنسان، يصلح جيداً، شأنه شأن ضدّه، لإعلاء النوع المسمّى «إنساناً»: ـ ولا نقول كفاية بعد إذ نكتفي بهذا القدر من القول، لكننا نقف، على كل حال، بما نقوله وما نصمت عنه ههنا، في الطرف الآخر من كل الإيديولوجيا الحديثة وكل مُنَى القطيع: بوصفنا نقيضاً لها، ربما؟ وما العجب إنْ لم نكن بالضبط، نحن «الأرواح الحرة»، ممن يستفيض في الإخبار؟ وإن لم نرغب، من كلّ ناحية، في إفشاء ما الذي يمكن للروح أنْ يتحرّر منه، وإلى أين قد ينقاد حينئذٍ. أما بخصوص الشعار الخطر «ما وراء الخير والشر» الذي يقينا الخلط، على الأقل، [فأقول]: إننا شيء مغاير للـ-«Libres penseurs» والـ «Liberi pensatori» والـ «Freidenker» (للمفكّرين الأحرار) وللألقاب التي تروق لكلّ محبّذي الأفكار الحديثة الفضلاء. لقد وجدنا بيتاً في العديد من بلاد الروح، أو نزلنا ضيوفاً فيها على الأقل؛ مراراً وتكراراً تملّصنا من المخابىء الخافتة المريحة التي يزجّنا فيها على ما يبدو التقرّب والتبعّد، والفتوّة والأصل، ومصادفة البشر والكتب، بل ومتاعب حياة التجوال نفسها؛ ننضح بالخبث حيال مغريات التبعية الكامنة في الأمجاد والأموال، في المناصب وملذّات الحواس؛ إننا ممتنّو الشِّدّة والمرض المتقلِّب الذي حرّرنا كل مرّةٍ من قاعدة ما ومن «تحكيمتها»؛ ممتنو الله والشيطان والخروف والدودة فينا؛

حشريّون إلى حدّ الرذيلة، باحثون إلى حدّ الضراوة، بأصابع لا تتردّد في لقْف ما لا يُلقف، بأسنان وأمعاء تهضم ما لا يُهضم؛ مستعدّون لأيّ صنعة تتطلب رهافة حسّ وحواسّاً مرهفة؛ مستعدّون لكل مجازفة بفضل فائضٍ من «الإرادة الحرّة» بنفوس أمامية وخلفية لا يبصر أحد بسهولة مقاصدها الأخيرة، بواجهات وخلفيات لا يمكن لساقٍ أن تجري إلى نهايتها، مخفيون تحت أردية النور، غزاة، وإن كنا نشبه ورثة ومبذّرين، منظِّمون ومجمِّعون من الفجر إلى الشفق، بخلاء في ثروتنا وجواريرنا المليئة، مقتصدون في التعلّم والنسيان، مبدعون للشَيمات[1]؛ فخورون بلوحات مقولاتنا حيناً، ومتحذلقون حيناً آخر، وبوم ليلي نشط في وضح النهار؛ وعند الحاجة، نعم! نصير بمثابة فزّاعة... واليوم ثمة حاجة حقاً: أعني من حيث ولدنا لنكون أصدقاء التوحّد الغيارى اللداد، أصدقاء توحّدنا الخاصّ الأعمق عند منتصف الليل والظهيرة: ـ أناس من هذا القبيل نحن، نحن الأرواح الحرة! ولعلّكم أنتم أيضاً شيء من هذا القبيل، أيها المقبلون؟ أيها الفلاسفة الجدد؟.

---

(1) Schematen.

الفصل الثالث

الحال الدينية

45

أيها المعاونون، تعالوا: إن النفس الإنسانية وحدودها ومدى ما بلغته التجارب الإنسانية الجوانية بعامة، حتى الآن، وقمم هذه التجارب وأغوارها وأبعادها، وكلّ التاريخ السابق للنفس وإمكاناتها التي لم تُتْرع حتى الثمالة: تلك هي منطقة الصيد المخصّصة لمَن ولد ليكون سيكولوجياً ومحبّاً «للصيد الكبير». لكن، كم مرّة، عليه أن يقول لنفسه يائساً: «امرؤ واحد، أوه، واحد وحيد! وهذه الغابة، هذه الأدغال الضخمة!» فيتمنّى لو كان بتصرّفه بضع مئات من المعاونين ومن كلاب الصيد المدرّبة المرهفة الحواس، فيدفع بهم إلى تاريخ النفس الإنسانية ليحاصر طريدته هناك ـ. عبثاً: مرة تلو مرة يختبر، بعمق ومرارة، كم يصعب العثور على معاونين وكلاب لكلّ الأشياء التي تثير فضوله بالذات. فهو إذ يريد أن يبعث بعلماء إلى مناطق صيد جديدة وخطرة تسود فيها الحاجة إلى الشجاعة والفطنة والرهافة بكلّ

معاني الكلمة، يخطىء ذلك أبداً: صلاح هؤلاء يبطل هناك بالذات حيث يبدأ «الصيد الكبير» ويبدأ معه الخطر الكبير أيضاً. هناك بالضبط يضيّعون حدّة بصرهم ورهافة شمّهم. وعلى سبيل المثال، ولكي يحزر المرء ويعيّن ما هو التاريخ السابق لمشكلة العِلْمان والوِجْدان في النفس التي للمؤمنين[1]، قد يتوجّب عليه أنْ يكون هو نفسه عميقاً ومجروحاً وعظيماً مثل وجدان باسكال العقلاني: ـ ولا يكفي هذا، إذ سيبقى به حاجة، من ثم، إلى تلك الروحية البهية الخبيثة التي بوسعها أن تطلّ من حالقٍ كسماء واسعة الانبساط، على هذا الهرج والمرج من تجارب العيش المؤلِمة الخطرة، لترتّبها وتقحمها في صِيَغ. ـ لكن مَن يسدي لي هذه الخدمة؟ لكن من له الوقت لينتظر خدّاماً من هذا القبيل؟ ـ يا لندرة أن يصادَفوا، ويا لقلة احتمال وجودهم في كلّ الأزمنة! في النهاية، على المرء أنْ يعمل كل شيء بنفسه إن أراد أن يَعلَم بنفسه بعض الأشياء. هذا يعني أنّ أشغاله ستكون كثيرة! ـ لكنّ فضولاً من النوع الذي لديّ، يبقى، شئتَ أم أبيتَ، أبهج الرذائل جميعاً، ـ عفواً! كنتُ أريد أن أقول: إنّ حبَّ الحقيقةِ له ثوابه في السماء وكذلك على الأرض. ـ

46

كيف تعلّم العالم القديم أن يقول لنفسه لا: الإيمان الذي دعت إليه المسيحية الأولى وحقّقته أكثر من مرّة، وسط عالم متشكّكٍ وجنوبيٍّ حرّ الروح، عالمٍ استوعب وتخطّى قروناً من

(1) Homines religiosi.

العراك بين المدارس الفلسفية. أكثر، استوعب قروناً من التربية على التسامح التي كانت قد تبنّتها الإمبراطورية الرومانية، ـ هذا الإيمان ليس ذاك الإيمان الخنوع الحوشي الطيب الذي من خلاله تعلّق أمثال لوثر وكرومْويل وغيرهم من برابرة الروح الشماليين بإلههم ومسيحيّتهم؛ بل هو أقرب بكثير إلى إيمان باسكال الذي يشبه، على نحو مفزع، انتحاراً مستمراً للعقل ـ لعقلٍ لزج دوديّ طويل العمر، عقل لا يمكن قتله دفعةً واحدة وبضربة واحدة. والإيمان المسيحيّ هو منذ البداية، تضحية: التضحية بكلّ ما للروح من حرية وكبرياء ويقين ذاتيّ؛ وهو معاً استعباد وسخرية من الذات وجدْع لها. ثمة نوع من السبْعية والتقوى الفينيقية في هذا الإيمان الذي يُملى عنوةً على وجدان متخمّر متعدّد متطلّب: أن شرطه المسبق هو أن يكون إخضاع الروح موجعاً إلى حدّ لا يوصف، وأن يناوىء الروح هذا، بكل ما لديه من ماضٍ وعادات، الخُلْف الأعظم[1] الذي يواجهنا هنا بوصفه «الإيمان». أما الإنسان الحديث الذي بات قليل التأثّر بكل التسميات المسيحيّة، فلم يعد يشعر بالمبالغة المرعبة التي انطوت عليها مفارقة «الإله المصلوب» بالنسبة إلى الإنسان القديم وذوقه. فلم يسبق للمرء أنْ صادف، في أي مطرح إقداماً مماثلاً على قلب [القيم]، وشيئاً مروِّعاً وحرجاً ومريباً يضاهي هذه الصيغة التي أعلنت قلباً لكل القيم القديمة. ـ إنّه الشرق، الشرق السحيق، إنّه العبد الشرقي، ذاك الذي يثأر، على هذا النحو، من روما ومن تسامحها النبيل المستهتِر، ومن «كثلَكة» الإيمان الرومانية: ـ وكلّ مرّة لم يكن الإيمان هو ما أثار العبيد على أسيادهم ودفع بهم

(1) Das Absurdissimum.

للثورة عليهم. بل التنصّل من الإيمان، أي ذاك الاستهتار نصف الرواقي المبتسِم الذي لا يبالي بجديّة الإيمان. «التنوير» يثير الثائرة. ذلك أن العبد يريد المطلق، وهو لا يفهم سوى الطغيان، حتى في الأخلاق؛ يحبّ ويكره من دون تمييز دقيق، يحب ويكره وصولاً إلى القعر، إلى الألم والمرض، ـ وآلامه الكثيرة الخفيّة تثور على الذوق النبيل الذي يبدو وكأنه ينكر الألم. إن التشكّك في الألم، وهو ليس سوى موقف خاص بالأخلاق الأرستقراطية أصلاً، أسهم أيضاً إسهاماً لا يستهان به في شنّ آخر انتفاضة كبيرة للعبيد بدأت مع الثورة الفرنسية.

47

ظاهرات التوبة: أينما ظهر على الأرض العصاب الديني حتى الآن، نراه مقروناً بثلاثة أوامر خطرة على الصحّة: التوحّد والصوم والعفة، ـ لكنْ، من دون أن يكون بوسعنا الحسم في كون أي منها سبباً، وأي منها مسبَّباً، وما إذا كان الأمر هنا يدور أصلاً على علاقةٍ بين سببٍ ومسبَّب. لكنّ ما يبررّ الشك الأقصى، هو أننا، عند الشعوب البريّة كما عند الشعوب الأليفة، نجد من بين أكثر عوارض ذلك العصاب انتظاماً، الشهوة الأكثر استعاراً وفجوراً تلك التي سرعان ما تنقلب إلى نوبةٍ من التوبة، وإلى سلبٍ للعالم والإرادة. وربما يمكن تأويل الظاهرتين بوصفهما صرعاً مقنعاً؟. لكنه يجدر بالمرء أن يمتنع، هنا أكثر من أيّ محل آخر، عن التأويلات: فما من طراز تكاثر حوله الخُلف والخرافة، حتى الآن، بالغزارة التي نراها هنا، بل ما من طراز أولاه البشر، بمن فيهم الفلاسفة اهتماماً أكبر، حتى الآن ـ قد يكون آن الأوان

لأنْ نتحلّى، هنا بالذات، بقليل من البرود، لأن نتعلّم الحذر، أو بالأحرى لأن نصرف النظر وننصرف. ـ لقد انتصبت في كواليس أخر فلسفة جاءتنا، وهي فلسفة شوبنهاور، علامة استفهام مرعبة، وكأنها المشكلة في ذاتها، علامة الاستفهام تلك التي تسأل عن أزمة الدين وإحيائه. كيف يمكن لسلب الإرادة أنْ يكون؟ كيف يمكن للقديس أنْ يكون؟ ـ يبدو أنّ هذا السؤال بالفعل هو الذي جعل من شوبنهاور فيلسوفاً، وأوحى إليه بنقطة الانطلاق. ولذا أدّى سحب شوبنهاور إلى نتيجته المنطقية من قبل نصيره الأكثر اقتناعاً (والأخير ربما، فيما يخصّ ألمانيا)، أعني من قبل ريشارد فاغنر، إلى أنْ يختم عملَ حياتهِ هنا بالذات، إذ يعرض على خشبة المسرح، وفي النهاية أيضاً، ذاك الطراز المفزع والخالد، يعرضه بشحمه ولحمه، Type vécu، في شخصية كونْدري[1]. هذا في الوقت الذي يجد فيه أطباء المجانين في معظم البلاد الأوروبية خيرَ مناسبة لدراسة هذا الطراز عن كثب، في كلّ محل يستعدّ فيه العصاب الديني ـ أو كما أسمّيه «الحال الدينية» ـ لآخر موكب وآخر تفشٍّ وبائي له، في حلّة «جيش الإنقاذ». ـ لكنْ، إن تساءل المرء: ما الذي يثير أصلاً ذاك الاهتمام الشديد بظاهرة القديس جملةً الذي شمل الناس، بمن فيهم الفلاسفة، على اختلاف أنواعهم وأزمنتهم؟ فالجواب بلا أدنى ريب: ظاهر الإعجاز الذي يلازمه، أعني التتالي المباشر للأضداد، لأحوال نفسية تحسب متضادّة أخلاقياً، مما يحمل المرء على الاعتقاد أنه يلمس هنا

---

(1) Kundry: شخصية الغاوية في أوبرا «بارسيفال». حسب رأي نيتشه يتناول فاغنر في كل أعماله مشكلة «الخلاص»، وهنا بالذات خلاص المرأة من شرّها على يد البطل الطاهر.

لمس اليد أن «إنساناً شريراً» يتحوّل دفعة واحدة إلى «قديس»، إلى إنسان خيّر. على هذه الصخرة يتحطّم زورق كل السيكولوجيا السابقة: ألم يحصل هذا، بالدرجة الأولى، لأنها أسلمت مقاليد السلطة إلى الأخلاق، لأنها نفسها آمنت بأضداد القيم الأخلاقية، وأقحمت هذه الأضداد في النص وواقع الحال، لترى وتقرأ فيه، من ثمّ، ما يحلو لها وتؤوّله على هواها؟ ـ ماذا؟ أتكون «المعجزة» مجرّد خطأ تأويلي؟ مجرد قصور فيلولوجي؟

48

المسيحية الرومانية وحرية الروح: يبدو أن الكَثْلَكة التي للأعراق اللاتينية تنتمي إليها بصورة أكثر جوّانية بكثير مما تنتمي المسيحية بعامة إلينا نحن قاطني بلاد الشمال؛ وأنّ للزندقة في بلدان كاثوليكية تالياً دلالةً تختلف كلياً عن دلالتها في البلاد البروتستنتية ـ أعني أنها ضرب من التمرّد على روح العرق، في حين أنها عندنا بالأحرى عودة إلى روح (أو لاروح) العرق. فنحن الشماليين نتحدّر بلا ريب من أعراق بربرية، والأمر نفسه بالنظر إلى موهبتنا للدين: ملكتنا بصدده رديئة. ويمكن استثناء السلّتيين الذين كانوا، لهذا السبب، أصلح تربة لتلقّى العدوى المسيحية في الشمال. ـ في فرنسا بلغ المثال المسيحي، وبقدر ما سمحت به شمس الشمال الباهتة، ذروة ازدهاره. كم هو غريب عن ذوقنا ذاك الورع الذي يزيّن حتى آخر الريبيين الفرنسيين إن سرى في عروقهم قليل من الدم السلْتي: يا للرائحة الكاثوليكية اللاألمانية التي نشمّها في «سوسيولوجيا» أوغوست كومت ومنطقه الروماني في الفِطَر! كم يبدو لنا شيشرون الفطن اللطيف يسوعياً من پورْ رويال، وسانْتْ بوف مع كلّ عدائه لليسوعية! فكيف

بأرنست رينان: كم تقع غريبة وممتنعة على أسماعنا، نحن قاطني بلاد الشمال، لغة رينان هذا الذي في أي لحظة يخلخل أدنى توتّر ديني توازنَ نفسهِ المتألقة في ما تشتهي والمحبة لما يريحها وتتوسّد ارتياحاً! فلننشد معه هذه العبارات الجميلة التالية ـ ولندع الخبث والجموح يتأججان رداً عليها في نفسنا، وهي في أغلب الظن، أقل جمالاً وأكثر قسوة، أعني أكثر ألمانية! ـ: «دعونا إذن نجرؤ على القول إن الدين هو من صنع الإنسان العادي وإن الإنسان يكون أقرب إلى الحقيقة، عندما يكون أكثر تديّناً وثقة بالقدر اللامتناهي... فهو حين يكون خيّراً يريد أن تتناسب الفضيلة مع نظام أبدي، وحين يتأمل الأشياء بتنزّه عن الغرض يجد الموت مغيظاً وعبثياً. فكيف لنا ألّا نفرض أن الإنسان، في هذه اللحظات عينها، يرى على أفضل ما يكون؟...»[1] إن هذه العبارات تضادّ أُذني وعاداتي مضادّةً تامة، إلى حدّ أنني حين عثرت عليها، دفعني غيظي الأول، إلى أن أدوّن على هامشها: «الحماقة الدينية بامتياز!»[2] ـ ولم يلبث أنْ جاء غيظي الأخير واستلطف، مع ذلك، هذه العبارات بحقيقتها المقلوبة رأساً على عقب! فكم هو أنيق ومتميّز أنْ يكون للمرء أضداد يخصّونه وحده!

---

(1) «Disons donc hardiment que la religions est un produit de l'homme normal, que l'homme est le plus dans le vrai quand il est le plus religieux et le plus assuré d'une destinée infinie... C'est quand il est bon qu'il veut que la vertu correspond à un ordre êternel, c'est quand il contemple les choses d'une manière désintéressée qu'il trouve la mort révoltante et absurde, Comment ne pas supposer que c'est dans ces moments-là, que l'homme voit le mieux?...».

(2) «La niaiserie religieuse par excellence».

49

دين السادة ينحطّ إلى دين عبيد: ما يثير الدهشة في تديّن الإغريق القدامى، هو غزارة الامتنان الجامحة التي تتضوّع منه: ـ يا له من ضرب نبيل جداً من البشر ذاك الذي يقف هكذا أمام الطبيعة والحياة! ـ فيما بعد، حين يرجّح الرعاع في اليونان الكفّة لصالحهم، يغلب الوجل في الدين أيضاً، وتشقّ المسيحية طريقها.

50

حول آداب الأتقياء: الشغف بالله: هناك أنواع قروية، ساذجة ولجوجة، على غرار لوثر، ـ وكل البروتستنتية تفتقر إلى الرهافة[1] الجنوبية. وهناك الجذب الشرقي، كما عند عبدٍ أُنعم عليه ورُقّي عن غير استحقاق، وعلى سبيل المثال أوغسطينس الذي يفتقر، على نحو مهين، إلى كل نبلٍ في الإيماءات والرغبات. وهناك حنان وشغف أنثوي يتوق بخجل وجهل إلى وحدة صوفية وفيزيائية[2]، كما عند مدام دي غيّون، ويظهر هذا [الشغف] في حالات عديدة، بطريقة عجيبة جداً، بوصفه تنكراً لمراهقة فتى أو فتاة: وهنا وهناك بوصفه هيستيريا عانس عجوز وبوصفه طموحها الأخير أيضاً: ـ في عدد من مثل هذه الحالات أعلنت الكنيسة قُدسية امرأة.

---

(1) Delicatezza.

(2) Unio mystica et physica.

51

المستبد والمستبد الديني بذاته: ما زال أعظم الناس، إلى اليوم، ينحنون أمام القدّيس إجلالاً، بوصفه لغز الاستبداد بالذات والاستغناء الطوعي النهائي: لماذا ينحنون؟ إنهم يظنّون فيه ـ وخلف علامة استفهام مظهره الواهن والبائس، إن صحّ التعبير ـ القوة المتفوّقة التي أرادت أن تختبر نفسها باستبداد من هذا النوع. يظنون فيه شدّة الإرادة التي عرفوا أن يحترموا فيها شدتهم ولذّتهم الاستبدادية الخاصة، وها هم يتعرّفون إليها؛ فحين يجلّون القديس، يجلّون شيئاً ما في أنفسهم. أضفْ أنّ منظر القديس يوحي إليهم بالارتياب: إن هذا العِظَم من النفي ونقض الطبيعة لا يرغب فيه المرء عبثاً، بكلّ تأكيد، هكذا قالوا لأنفسهم وتساءلوا. وربما ثمة سبب لذلك، خطر عظيم جداً، يعلَم به الناسك تماماً بفضل روّاده ومُناجيه السريّين؟ وباختصار، إن عظماء العالم تعلّموا منه خوفاً جديداً، إذ حسبوا فيه قدرة جديدة، عدوّاً غريباً لم يُقهر بعد: ـ إنها «إرادة القدرة» التي أرغمتهم على التوقّف أمام القدّيس. وكان لا بدّ لهم من أنْ يسألوه...

52

الاحترام «للعهد القديم»: في «العهد القديم» اليهودي، في كتاب العدالة الإلهية، أناس وأشياء وأقوال عظيمة الطراز بحيث لا يمكن للكتابات اليونانية والهندية أن تضاهيها بشيء. والمرء يقف بوجل ورهبة أمام هذه البقايا العظيمة لِما كان عليه الإنسان في زمن غابر، وتراوده أفكار محزِنة حول آسيا القديمة وأوروبّا، شبه جزيرتها المتصدرة لها، التي تأبى إلّا أنْ تعني، بالنظر إلى

آسيا، «تقدّم الإنسان». والحق يقال: إن من كان هو نفسه مجرد حيوان داجن أليف هزيل ولا يعرف سوى حاجات الحيوانات الداجنة (كالمتعلمين في أيامنا، بمن فيهم مسيحيو المسيحية «الثقِفة» ـ) فليس عليه، لا أنْ يعجب، ولا أنْ يحزن بأي حال، تحت ذاك الركام من الأطلال ـ إن تذوّق العهد القديم فيصل لتفريق «الكبير» عن «الصغير» ـ: وقد يجد العهد الجديد، كتاب الرحمة، أقرب إلى قلبه بقليل (وفيه الكثير من تلك الرائحة الناعمة الفاترة الصالحة لإخوان الصلاة والنفوس الصغيرة). إلصاق هذا العهد الجديد، وهو من كل النواحي نوع من الروكوكو[1] الذوقي، بالعهد القديم، ليكوّنا معاً كتاباً واحداً، هو «الإنجيل»، «كتاب الكتب»: لعلّ وخز ضمير أوروبّا الأدبي يكمن في ذلك التجرّؤ الأكبر وتلك «الخطيئة الكبرى بحقّ الروح».

53

لِمَ الإلحاد اليوم؟: لقد نُقض اللّه بوصفه «الآب» نقضاً جذرياً، وبوصفه «القاضي» و«المثيب» أيضاً، وكذلك أبطلت «إرادته الحرة»: إنه لا يسمع، ـ ولو سمع لما عرف أن يساعد مع ذلك. والأنكى أنه يبدو عاجزاً عن التعبير عن نفسه بوضوح: فهل هو مبهَم؟ ـ هذا ما كشفتُه، سائلاً ومصغياً أثناء أحاديث شتى، من أسباب أدّت إلى انحطاط الألوهيّة الأوروبية. إن الفطرة الدينية تبدو لي بصدد نموٍّ يطّرد، هذا صحيح، ـ إلَّا أنها ترفض بارتياب عميق المائدة الألوهية بالذات.

---

(1) أنظر الهامش رقم (1) الفصل الثاني، ص58.

54

حركة مضادة للمسيحية: ماذا تفعل، يا ترى، كل الفلسفة الحديثة أساساً؟ منذ ديكارت ـ وليس لأنه السابق، بل بالأحرى نكايةً فيه ـ يقوم كل الفلاسفة باعتداء على أفهوم النفس القديم بذريعة نقد أفهومَيْ المبتدأ والخبر ـ ويعني هذا: باعتداء على الشرط الأساسي للتعليم المسيحي. فالفلسفة الحديثة بوصفها ريبية في نظرية المعرفة، هي مضادّة للمسيحية علناً أو ضمناً: وإن لم تكن ـ نقول ذلك لآذان مرهفة ـ معارضة للدين البتة. ذاك أن المرء كان يؤمن قديماً «بالنفس» كما آمن بالنحو والمبتدأ (الذات): وكان يقول «أنا» شرطٌ، و«أفكّر» خبر ومشروط ـ والفكر نشاط يجب أنْ يضاف إليه بالتفكير مبتدأ بوصفه السبب. وبعد ذلك جرّب المرء، بإصرار ومكر جديرين بالإعجاب، ما إذا كان بوسعه الخروج من هذه المصيدة، ـ ما إذا كان العكس بالأحرى هو الصحيح: «أفكر» شرط و«أنا» مشروط؛ «الأنا» إذن، بدءاً تأليف يقوم به التفكير نفسه. وأراد كنط أنْ يبرهن، في الواقع، على أنّ التدليل على الذات (المبتدأ) انطلاقاً من الذات[1] ممتنع، ـ والتدليل على الموضوع (الخبر) أيضاً: ويُرجّح أن إمكان أن يكون للذات المفرد، وللنفس اذن، مجرّد وجود ظاهري، لم يكن غريباً عنه دائماً، وتلك فكرة حضرت ذات مرة على الأرض بجبروت عظيم في فلسفة الفيدانتا.

(1) يستعمل في اللغة الألمانية لفظ واحد، وهو Subjekt، للدلالة على الذات (ضد الموضوع) وعلى «الفاعل» النحوي، والمبتدأ (ضد الخبر).

55

تضحيتنا: التضحية بالأخلاق المحايثة: هناك سُلّم طويل للسبْعية الدينية وله درجات عديدة؛ لكنّ ثلاثاً منها هي أهمها. منذ زمن بعيد كان المرء يرفع إلى إلهه ضحايا بشرية، وكان هؤلاء على الأرجح ممن يحبّهم على أفضل وجه، ـ من هنا التضحية بالطفل البكر المتبعة في كل ديانات ما قبل التاريخ، وكذلك تضحية القيصر تيبيريوس في مغارة ميثراس على جزيرة كابري، وهي أفظع خطأ في التوقيت ارتكبه الرومان. أما فيما بعد، في العهد الأخلاقي للإنسانية، فكان المرء يضحي لإلهه بأقوى الفطر التي كانت لديه،؟ «طبيعته»؛ ونشوة الفرح هذه تبرق في النظرة السبْعية التي للناسك، لذلك المتعصّب «المعارِض للطبيعة». وفي النهاية: ما الذي بقي بعدُ، كي يضحّي به المرء؟ ألم يكن عليه أخيراً أن يضحي، ذات مرة، بكلّ عزيز ومقدَّسٍ وشافٍ، بكلّ أمل وكلّ إيمان بانسجام خفيّ ونعيم وعدلٍ مستقبليّين؟ ألم يكن عليه أنْ يضحّي بالله نفسه وأنْ يعبد، انطلاقاً من سبْعية منصبّة على الذات، الحجرَ والحمقَ والجاذبية والقدر واللاشيء؟ التضحية بالله من أجل اللاشيء ـ إن لغز السبْعية الأخير المتناقض هذا متروك للجيل الطالع الآن: وجميعنا نعرف شيئاً منه. ـ

56

في التشاؤم الديونيسي: مَنْ سعى مثلي طويلاً، مدفوعاً برغبة ملغِزة، إلى أنْ يفكّر التشاؤم حتى الثمالة وأنْ يخلّصه من الضيق والحمق نصف المسيحي ونصف الألماني الذي عرض نفسه به

مؤخراً في هذا القرن، وتحديداً في فلسفة شوبنهاور ـ من نظر فعلاً ذات مرة بعين آسيوية وما بعد آسيوية، إلى الداخل وإلى القعر من أكثر نمط فكري سلباً للعالم ممكن ـ من نظر إليه من وراء الخير والشر وليس كمن يسيّره سحر الأخلاق الآسر وهذرها، مثل بوذا وشوبنهاور ـ ربما يفتح عينيه، بذلك بالذات، ومن دون أنْ يقصد ليبصر المثال المعاكس، مثال الإنسان الأكثر جموحاً وحيويةً وقبولاً للعالم، الإنسان الذي لم يرض وحسب بما كان وبما هو، ولم يتعلّم التكيّف معه وحسب، بل الذي يريد أن يعود كلّ شيء كما كان وكما هو وإلى أبد الآبدين، فيظلّ يصرخ ولا يرتوي، أَعِدْ من جديد[1]، ليس لنفسه وحسب، بل للمسرحية وللعرض بكامله، وليس لعرض واحد وحسب، بل، في الواقع، لذاك الذي به حاجة إلى هذا العرض بالذات ـ ولذاك الذي يجعله ضرورياً: لأنه، مرة تلو مرة من جديد، يحتاج إلى ذاته ـ ويجعل ذاته ضرورياً ـ ماذا؟ ألن يكون هذا الله الحلقة المفرغة؟[2]

57

لا تناهي التأويل: مع تنامي قوة الرؤية والبصيرة الروحية، ينمو البعد، وعلى نحوٍ ما، الفضاء المحيط بالإنسان: عالمه يزداد عمقاً ونجوم جديدة وألغاز وصور جديدة تحضر أبداً في أفق نظره. وربما لم يكن كلّ ما دَرّبت عليه عينُ الروح رهافةَ حسّها وبعدَ غورها إلّا مناسبة للتمرّن واللعب، شيئاً ما للأطفال والعقول الصبيانية. وقد لا يبدو لنا، ذات يوم، أكثر الأفاهيم مهابةً، تلك

(1) Da capo: مصطلح موسيقي يعني الإعادة من البداية فصاعداً.

(2) Circulus vitiosus deus.

التي دارت عليها أشدّ الصراعات وتكبّدت من أجلها أشدّ المعاناة، أي أفهوما «الله» و«الخطيئة»، أكثر أهمية مما تبدو لعبة أطفال وما يبدو ألم أطفال لرجل عجوز ـ وربما سيكون «بالرجل العجوز» وقتذاك حاجة من جديد إلى لعبة أخرى وألم آخر، ـ وهو لم يزل طفلاً بما فيه الكفاية، طفلاً أبدياً!

58

بؤس الفطر الدينية: هل انتبهتم جيداً إلى أن الحياة الدينية، بصحيح المعنى، (وشغلها الشاغل تمحيص الذات مجهرياً، ومعاً ذاك الاسترسال الرقيق المسمى «صلاة»، أي الاستعداد الدائم «لمجيء الله») تقتضي إلى حد بعيد البطالة أو نصف البطالة الخارجيّة، وأقصد البطالة براحة ضمير وعن أصل عريق منذ القِدَم، بطالة لا يغرب عنها كلياً الشعور الأرستقراطي بأن العمل يدنّس ـ بمعنى أنه يجعل النفس والجسد عاميين؟ وهل انتبهتم تالياً إلى أن الانشغال الحديث المجعج، الذي يبتاع الوقت كلّه ويتباهى بصلف أبله، يربّي ويهيِّىء أكثر من أي شيء آخر «للاإيمان» بعينه؟ وفي صفوف الذين يعيشون اليوم، في ألمانيا مثلاً، بعيداً عن الدين، أجد أناساً من ذوي «الفكر الحر» المختلف النوع والأصل، لكنهم في غالبيتهم من ذاك النوع الذي أذيبت فِطَره الدينية، جيلاً إثر جيل، من جراء الانشغال بالعمل: فلم يعد يعرف البتة فائدة الأديان، بل صار يكتفي، إن صح التعبير، بتسجيل وجودها في العالم بنوع من الذهول البليد. ويتراءى لهؤلاء الناس الطيّبين أن لديهم أشغالاً كافية، عملاً أو تسلية، ناهيك عن «الوطن» والجرائد و«الواجبات العائلية»: ويبدو

أنْ لا وقت لديهم البتة للدين، وبخاصة أنهم لا يعرفون ما إذا كان الأمر هنا يدور على عمل جديد أو تسلية جديدة، ـ إذ من المستحيل، على حد قولهم، أن يدخل المرء الكنيسة من أجل أن يعكّر مزاجه الجيد لا غير. وهم ليسوا من أعداء الطقوس الدينية، وإن طُلب إليهم في حالات معيّنة، ومن قبل الدولة مثلاً، الاشتراك في مثل هذه الطقوس، نفذوا المطلوب، مثلما ينفّذ المرء أموراً كثيرة ـ بجدية صابرة ومتواضعة ومن دون الكثير من الفضول أو النفور؛ ذلك أنهم يعيشون خارج دائرة مثل تلك الأمور وعلى مسافة منها أبعد بكثير من أنْ يشعروا معها بمجرّد الحاجة إلى تأييدها أو رفضها. إلى هؤلاء اللامبالين تنتمي أكثرية الفئات المتوسطة من البروتستانت وبخاصة في مراكز التجارة والمواصلات الكبرى النابضة؛ وكذلك أكثرية العلماء المنهمكين في العمل وكل مِتاع الجامعات (ما عدا اللاهوتيين، ووجود هؤلاء وإمكانهم عينه يطرح على السيكولوجي دائماً ألغازاً جديدة بالغة الدقة). وقلّما يمكن للمرء، إن كان إنساناً تقيّاً أو مجرد إنسان كنسي، أن يتصور كم من الإرادة الطيبة بل من الإرادة الإرادية، لازمة الآن كي يحمل عالِمٌ ألمانيّ مشكلة الدين على محمل الجدّ؛ فهو بسبب من حرفته (وكما سبق القول، بسبب من انشغاله الحرفي الذي يوجبه عليه وجدانه الحديث) أقرب بالأحرى إلى انشراح، يكاد يكون كريماً، متعالٍ إزاء الدين، انشراح يتخلّله أحياناً ازدراء خفيف بـ «لا نظافة» الروح التي يفترضها المرء أينما أعلن انتماءه إلى الكنيسة. ولا ينجح العالِم إلّا بفضل التاريخ (أي ليس انطلاقاً من تجربته الخاصة) في أنْ يتحلّى بجدّية مهيبة ونوع من المراعاة الخجولة بالنظر إلى الأديان. لكن، حتى لو سما بشعوره إلى حدّ الامتنان لها، فإنه، كشخص، لا يدنو أيّ خطوة

من ذاك الذي ما زال قائماً بوصفه الكنيسة أو التقوى: بل ربما صحّ العكس. إن اللامبالاة العملية إزاء أمور الدين والتي نشأ وتربّى عليها، تتسامى عنده عادة إلى حيطة ونظافة تخشيان الاختلاط بأناس متدينين وبأمور الدين. وقد يوصيه عمق تسامحِه وإنسانيتِه بالذات، بتفادي حال الشِّدّة الدقيقة التي يصاحبها فعل التسامح نفسه: ـ لكلّ عصر ضرب من السذاجة إلهي وخاص به، ولعصور أخرى أنْ تحسده على ابتكاره: ـ وكم من السذاجة، كم من السذاجة الصبيانية، الجديرة بالإجلال، والبَلْهاء بلا حدود، تكمن في إيمان العالِم بتفوّقه وفي راحة ضمير تسامحِه، وفي الثقة البسيطة الطيبة السريرة التي بها تعامل فطرتُه الإنسانَ المتديّن بوصفه طرازاً أوضع وأقلّ قيمة، طرازاً تخطّاه وابتعد عنه وترفّع ـ هو القزم والسوقي الصغير المدّعي، هو الشغّيل المجتهد العجول، المنشغل، رأساً ويداً، «بالأفكار»، «بالأفكار الحديثة»!

59

خشية ورعة من الواقع: من يسبر غور العالم يحزر فعلاً أيّ حكمة تكمن في سعي البشر إلى السطحية. إنها فطرتهم للبقاء تلك التي تعلّمهم أنْ يكونوا عجِلين وخفاقاً ومزيّفين. ويمكن العثور، هنا وهناك، عند الفلاسفة كما عند الفنانين، على تعبّدٍ «للصور المحضة» شغوف ومبالغ فيه: ولا ريب في أن مَنْ به مثل هذه الحاجة إلى طقوس السطح، قد اكتشف، ذات مرة، ما تحت السطح واكتوت يده. ولعل ثمة تراتبية حتى بين أولئك الأطفال المكتوين من الذين ولدوا ليكونوا فنانين، فلا يجدون، من ثمّ، من متعة للحياة إلّا في نيّة تزييف صورتها (كما لو أنهم ينتقمون

من الحياة انتقاماً طويلاً عويصاً ـ)؛ وقد يمكن لنا أن نقيس الدرجة التي فيها ضاقت بهم الحياة بمدى رغبتهم في رؤية صورتها مزيّفة ومخفّفة وما بعدية ومؤلّهة، ـ ويمكن حسبان المؤمنين من بين الفنانين بوصفهم أعلاهم رتبةً. إنه الخوف المرتاب العميق من تشاؤم لا يمكن شفاؤه، ذاك الذي يُلزم دهوراً كاملة بأن تتشبّث بأسنانها بتأويل ديني للوجود: إنه خوف تلك الفطرة التي تتوجّس من أنْ يدرك المرء الحقيقة قبل \الأوان، قبل أن يكسب ما يكفي من القوة والقسوة والفن... ومن ينظر من هذه الزاوية إلى التبتّل وإلى «الحياة في الله»، سيبدو له ذلك بمثابة النتاج الأخير والأرفع للخوف من الحقيقة، وبمثابة تعبّد الفنان وسكرته أمام أكثر التزييفات اتساقاً، وبمثابة إرادة قلب الحقيقة وإرادة اللاحقيقة بأيّ ثمنٍ. وربما يعني هذا، أننا لن نصادف حتى الآن أيّ وسيلة أقوى من التبتل ذاك لتجميل الإنسان نفسَه: به يمكن للإنسان أنْ يستحيل إلى فنٍ وسطحٍ ورفقٍ وسرابٍ ملوَّن، بحيث لا يعود منظره يثير الألم. ـ

60

حب القريب بوصفه حباً لله: حب الإنسان كرمى لله ـ ذاك هو أنبل وأنأى شعور بلغه بنو البشر حتىء الآن. حب الإنسان من دون أي قصد مقدّس في كواليسهِ، هو حماقة وبهيمية أخرى. وعلى الميل إلى حب الإنسان هذا أنْ يحصل أولاً من ميل أعلى على قياسه ورهفه وحَبَّةِ ملحه وذرّة عنبره: ـ أياً كان الإنسان الذي شعر بذلك لأول مرةً «وعاشه»، ومهما تعثّر لسانه، على الأرجح، حين حاول التعبير عن أمر رقيق كهذا، فإنه جدير بأن

يبقى بالنسبة إلينا مقدساً وحقيقياً بالإجلال إلى أبد الآبدين، بوصفه الإنسان الذي حلّق، حتى الآن، إلى أعلى ما يكون، وضَلَّ على أجمل ما يكون!

61

الدين في يد الفلاسفة المقبلين: إن الفيلسوف، كما نفهمه، نحن الأرواح الحرة ـ، بوصفه الإنسان الذي يتحمل المسؤولية الأشمل ويحمل همّ مجمل تطور الإنسان: إن هذا الفيلسوف سيستعمل الأديان لأجل عمله التأديبي والتربوي، كما يستعمل الأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة. أما التأثير الاصطفائي التربوي، الذي يعني دائماً التأثير المهدِّم والمبدِع المكوِّن على السواء، الذي يمكن تحقيقه بواسطة الأديان، فهو متعدّد ومختلف بحسب أنواع البشر التي توضع تحت وصايتها ومظلتها. فبالنسبة إلى الأقوياء المستقلين المجبولين على الأمر والمهيّئين له، الذين يتجسّد فيهم عقل العرق الحاكم وفنّه، سيكون الدين خير وسيلة لتجاوز العوائق وتحقيق إمكان السيطرة: بوصفه رابطةً تربط الأسياد والأتباع معاً وتكشف ضمائر هؤلاء، أي كوامنهم ودواخلهم التي ترغب في التملص من الانصياع لأولئك وتسلّمهم إيّاها؛ فإن مالتْ جرَّاء روحية رفيعة، طبائع فريدة ذات أصل نبيل، إلى حياةٍ أكثر انعزالاً وتأملاً، واحتفظت لنفسها فقط بأرفع نوع من السيطرة (على حواريّين وإخوان مختارين)، فإنه من الممكن استعمال الدين نفسه وسيلة لتأمين الهدوء بعيداً عن ضجيج أعمال الحكم الغليظة وعنائه، ولتأمين الصفاء الذي يقيها القذارة الملازمة ضرورةً لكل شؤون السياسة ومزاولتها. ذاك ما

أدركه، على سبيل المثال، البراهمة: فمن خلال تنظيم ديني خوّلوا أنفسهم السلطة لتعيين الملوك على الشعب، في حين أنهم بذواتهم مكثوا بعيداً وخارجاً وأحسوا أنفسهم كذلك، بوصفهم أناساً لهم مهام أسمى تفوق حتى مهامّ الملوك. أما في أيامنا هذه، فإن الدين يعطي لقسم من المحكومين أيضاً إرشاداً ومناسبة كي يستعدّوا لتولّي الحكم والأمر ذات يوم، وتحديداً لتلك الطبقات والفئات المتصاعدة شيئاً فشيئاً، التي نصادف فيها، بفضل عادات زوجية سعيدة، قوة الإرادة ولذّتها، إرادة السيطرة على الذات، ساعية إلى تصاعد مستمر: ـ فلهم يقدّم الدين حوافز وإغراءاتٍ عديدة لانتهاج الدروب المؤدية إلى روحية عليا ولاختبار مشاعر الصمت والوحدة والتجاوز الكبير للذات: ـ إن الزهد والتطهّر يكادان أنْ يكونا وسائل لا غنى عنها للتربية والتهذيب، إن أراد عرق ما أنْ يتغلّب على أصله ونسبه الرعاعي ويرتقي إلى تولّي مقاليد السلطة في يوم من الأيام. أما فيما يخصّ البشر العاديين أخيراً، أي السواد الأعظم الموجود للخدمة والمصلحة العامة والمسموح له بالوجود لهذه الغاية وحسب، فإنّ الدين يمدّهم برضى عن وضعهم ونوعهم لا يقدّر بثمن، بسلام مضاعف في القلب، بإعلاء لشأن انصياعهم، بسعادة وآلام جديدة يشاطرونها أمثالهم، بنوع من التسامي والتزيين، بنوع من التبرير لكلّ الحياة اليومية، لكل الدعة، لكل البؤس نصف البهيمي الذي في نفوسهم. إن الدين وأهمية الحياة الدينية يضفيان بريقاً نيِّراً على أولئك البشر المعذّبين أبداً ويمكّنانهم من تحمّل منظرهم الخاص، وتأثيرهما أشبه بالتأثير الذي لفلسفةٍ أبيقورية، عادةً، على متألمين من رتبةٍ أعلى. إنه ينعش ويصقل ويستغلّ الآلام، إن صح التعبير، بل إنه يقدِّسها ويبرّرها آخر الأمر أيضاً. وربما لا يوجد في

المسيحية والبوذية أمر أكثر مهابةً من فنّهما في تعليم حتى أوضع إنسان كيف يضع نفسه، بفضل التبتّل، ضمن نظام للأشياء ظاهري وسامق، وكيف يتعلّق تالياً بالرضى عن النظام الفعلي الذي يعيش فيه حياة قاسية جداً. ـ هذه القسوة بالذات تلزم هنا!

62

الدين وتشويه الإنسان: أما في النهاية، ومن أجل أن ندعو أدياناً من هذا النوع إلى حساب معاكس وخطير النتائج، ونفضح في وضح النهار أخطارها المقلقة، [فإنه يجب القول]: ـ إن الثمن المدفوع سيكون غالياً ومرعباً أبداً، إذا لم تكن الأديان وسيلةً تأديبية وتربوية في يد الفيلسوف، بل إذا سرحت على هواها ويسيادة. إذا أرادت لنفسها أنْ تكون غايات أخيرة وليس وسيلة بين وسائل أخرى. عند البشر كما عند سائر أنواع الحيوان فائض من المعاقين وأصحاب الأمراض والعاهات والمرتدين عن النوع والمتألمين ضرورة؛ أما الحالات الناجحة فهي دوماً وعند البشر أيضاً، استثناء بل هي من أندر النوادر إذا أخذنا في الحسبان بأن الإنسان هو حيوان غير مثبَّت بعد(*). لكن، ثمة ما هو أردأ: كلما ارتقى نوع الطراز المتمثّل في إنسان ما، كلما ازداد لا احتمال نجاحه: إن المصادفة، أي قانون الخُلْف في مجمل مؤونة الإنسانية، تتبيّن، على أفزع نحوٍ، في تأثيرها المهدِّم على الإنسان الأعلى الذي له شروط حياتية دقيقة متعددة وصعبة الحسبان. والآن، كيف ينظر الدينان الكبيران المذكوران إلى هذا الفائض من

(*) بمعنى: أن صورته الحالية ليست نهائية بعد.

الحالات الفاسدة؟ إنهما يسعيان إلى الحفاظ على كل ما يمكن حفظه وإلى إبقائه على قيد الحياة، لا بل إنهما يتحزّبان مبدئياً لصالحه، بوصفهما دينين للمتألمين. يؤيّدان كلّ من يعاني من الحياة معاناته من مرض، ويرغبان في الوصول إلى وضع يُحسب فيه أيّ شعور آخر بالحياة خاطئاً ويغدو معه ممتنعاً. ومهما أولينا هذه العناية المهاودة والمحافظة، من تقدير عالٍ، من حيث إنّها لا تنصبّ على العامّة وحسب، بل على الطراز البشري الأعلى أيضاً الذي كان حتى الآن أو يكاد أن يكون الأكثر عرضة للألم أيضاً: فإنه يجب القول، وفقاً لحصيلة الحساب النهائي: إن الأديان التي سادت حتى الآن تدخل في باب الأسباب الرئيسية التي كبّلت طراز «الإنسان» وأبقته على درجة متدنّية، ـ إنها أفرطت في الحفاظ على الكثير مما كان يجب أنْ يهلك. على المرء أن يكنّ لها الامتنان لإنجازها أموراً لا تُقدّر بثمن؛ ومن، يا ترى، يملك من غنى الامتنان ما يقيه الإفقار في حضرة كلّ ما قام به، على سبيل المثال، أنصار المسيحية «الروحانيين» من أجل أوروبا حتى الآن! لقد أمّنوا للمتألمين تعزية، وللمقموعين واليائسين طمأنينة، وللاّمستقلين عماداً وسنداً، وأبعدوا عن المجتمع المحطّمين والمتبربرين جوّانياً واستدرجوهم إلى الأديرة والسجون النفسية: فماذا كان عليهم بعد أن يفعلوا، إضافة إلى ذلك كلّه، من أجل العمل مبدئياً على حفظ كل مريض ومتألّم، من أجل العمل إذن، فعلاً وحقيقةً، بكلّ راحة ضمير، على إفساد العرق الأوروبي؟ كان عليهم أنْ يقبلوا كل التقييمات رأساً على عقب ـ نعم، هذا ما كان عليهم! وأنْ يحطّموا الأقوياء، ويُسقِموا الآمال الكبيرة، ويرموا الشبهة على السعادة [الكامنة] في الجمال، وينكّسوا كل

متجبّر، رجولي، غازٍ تائق إلى السلطة، وكل الفطر الخاصة بأعلى طراز بشري وأنجح، وأنّ يحوّلوها إلى قلقٍ وإزعاج ضمير وتدمير ذاتي، بل أن يقلبوا كل الحب للدنيوي والسيطرة على الأرض، كرهاً للأرض والدنيوي ـ هذا ما طرحته الكنيسة، وما وجب عليها أن تطرحه، مهمةً على نفسها، حتى انتهى بها الأمر أخيراً، حسب تقديرها، إلى خلط «الزهد بالعالم والحواس» بـ «الإنسان الأعلى» ليكوّنا معاً شعوراً واحداً. وهبْ أن المرء قادر على أن يشرف، بالعين المتهكِّمة واللامكترثة التي لإله أبيقوري، على كوميديا المسيحيّة الأوروبيّة المؤلمة على نحو مذهل، الغليظة واللطيفة على السواء، فإنّه لن يكفّ البتة عن التعجّب والضحك: ألا يبدو وكأنّ إرادة واحدة سيطرت على أوروبا طوال ثمانية عشر قرناً، إرادة تحويل الإنسان إلى طِرْح جليل؟ لكن، ألا يجب على مَن يتصدى مزوّداً بحاجات معاكسة لم تعد أبيقورية، لهذا الارتداد عن نوع الإنسان وهذا الذبول شبه الإرادي الذي يجسده الأوروبي المسيحي (باسكال مثلاً)، بل حاملاً بيده مطرقة إلهية ما، ألا يجب عليه أنْ يصرخ بغيظٍ وشفقةٍ وهلع: «آه، أيها المغفّلون، أيها المغفّلون المدّعون المشفقون، ماذا فعلتم! أكان هذا عملاً لأيديكم؟ كيف أفسدتم قطعتي الأجمل وشوّهتموها! يا لتطاولكم»! ما أردت قوله: إن المسيحيّة كانت، حتى الآن، أخطر ضرب من ضروب تجبّر الذات. إن أناساً ليس لهم قسوة وعلو يكفيان ليُسمح لهم بأن ينحتوا \الإنسان كفنانين؛ أناساً ليس لهم قوة وبُعد نظر يكفيان ليقبلوا\، باستبداد ذاتي رفيع، بسيادة قانون الواجهة، قانون الإخفاق والهلاك المتكرر آلاف المرات؛ أناساً ليس لهم نبل يكفي ليبصروا التراتبيّة والهوّة السحيقة في الرتب بين إنسانٍ وإنسان: أناساً من هذا\ القبيل قد سادوا حتى

الآن، بشعارهم «سواسية أمام الله»، على مصير أوروبا، حتى تم أخيراً تربية نوعٍ مصغَّرٍ يكاد يكون أضحوكة، حيوان قطيع طيب السريرة، سقيم ووسطيّ: هو الأوروبي الحاضر...

الفصل الرابع

أقوال وفواصل

63

وسيط: من كان معلّماً من أخمصيه إلى رأسه لا يحمل أي أمر على محمل الجد إلّا بالنسبة إلى تلاميذه، ـ بما في ذلك هو نفسه أيضاً.

64

زهد الروح: «المعرفة للمعرفة». ـ هذا آخر شرك تنصبه الأخلاق: به يقع المرء مرة أخرى فريستها.

65

إغواء أيضاً: إغواء المعرفة كان سيقلّ، لو لم يكن علينا التغلب على الكثير من الحياء في الطريق إليها.

65 أ

في التيوصوفيا: المرء أقل صدقاً إزاء إلهه: لا يسمح له بالخطيئة!

66

منحطّ أم إله: قد يكون الميل إلى إذلال الذات، إلى الخضوع للنهب والكذب والاستغلال حياء إله مقيم بين البشر.

67

الحب والعدل: الحب لواحد بربرية لأنّه يأتي على حساب كل الباقين. بما فيه حب الله.

68

إعادة تأهيل الذات أخلاقياً: تقول ذاكرتي: «فعلتُ هذا». فتردّ كبريائي: لا يمكن أن أكون قد فعلتُ هذا ـ وتبقى مصرّة. وأخيراً تلين الذاكرة.

69

المشاهدون اللطفاء: مُشاهد رديء للحياة من يغفل اليد التي تقتل برفق.

70

تضايف قدري: من له طابع مميّز له أيضاً تجربة حياتية مميّزة تتكرّر أبداً.

71

الحكيم كفلكي: طالما شعرتَ بأن النجوم «تعلوك»، فأنتَ لا تزال تفتقر إلى نظرة العارِف.

72

سمة الإنسان العالي: ما يصنع الإنسان العالي ليس شدّة الإحساس الرفيع بل دوامه.

73

بما للأمثل من قوة خاصة: من بلغ أمثله تخطّاه بذلك بالذات.

73 أ

غرور ألطف: رب طاووس يخفي ذيله الفاخر أمام أعين الجميع ـ ويسمّى ذاك فخره.

74

ضروري ليُعدّ صالحاً: إن إنساناً ينعم بالعبقرية لا يطاق، إلّا إذا زاد عليها شيئين على الأقل: الامتنان وحبّ النظافة.

75

لا يُخفى: يُبحث عن درجة الجنس عند الإنسان ونوعه حتى في أعلى ذرى روحه.

76

إلى جوّان: في الأحوال السلمية ينقضّ الإنسان المحارِب على نفسه.

77

تطبيق مبادىء: يريد المرء، بواسطة مبادئه، أنْ يقمع عاداته أو يبرّرها أو يكرمها أو يشتمها أو يخفيها: ـ فإنسانان يحملان المبادىء نفسها يسعيان بها، على الأرجح، إلى أمور متباينة جذرياً.

78

إحترام!: من يحتقر نفسه ما زال يحترم نفسه بوصفه محتقِراً.

79

حب من جهة واحدة: إن نفساً تعرف بأنها محبوبة ولا تبادل الحب تنضح بثفلها: ـ أسفلها يطفو إلى السطح.

80

عدمية الأنوار: الأمر الذي يتّضح يكفّ عن أن يهمّنا. ـ ماذا

قصد ذاك الإله الذي نصح: «إعرف نفسك»! أكان يعني، يا ترى: «كفّ عن أنْ تهمك نفسك! صرْ موضوعياً!» ـ وسقراط «والإنسان العلمي»؟ ـ

81

حقائق الغورغون[1]: فظيع هو الموت عطشاً في البحر. أعليكم حقاً أنْ تملّحوا حقيقتكم إلى أنْ لا تعود قادرة حتى على إرواء العطش؟

82

من القفا: «الإشفاق على الكل» ـ تلك قسوة وطغيان بالنسبة إليك، يا جاري الكريم! ـ

83

الفطرة: إن اشتعل البيت ينسى المرء تناول الغداء. ـ لكنه يستدرك الأمر فوق الرماد.

84

تأثير منقلب: تتعلّم المرأة أن تكره بقدر ما تنسى كيف تسحر.

85

(1) Gorgonen: بنات إله البحر الثلاث.

مصدر للهو: الانفعالات عينها تختلف إيقاعاً عند الرجل عنها عند المرأة: لذا يستمر سوء التفاهم بينهما.

86

«يعرفن أنفسهن»: تحتفظ النسوة، خلف كواليس الغرور الشخصي كله، بازدرائهن اللاشخصي «للمرأة».

87

قلب مكبّل، روح حرّ: من يكبّل قلبه بقسوة ويقيّده، يمكن له أن يعطي لروحه حرياتٍ كثيرة. لقد قلتُ هذا ذات مرة؛ لكن لم يصدّقني أحد، إلّا من كان يعرف ذلك سلفاً...

88

لأنّه غير محتمل: يبدأ المرء بالتشكيك في أشخاص فائقي الذكاء عندما يرتبكون.

89

تجارب العيش: تجارب العيش المريعة تطرح السؤال عمّا إذا كان من عاشها مُريعاً.

90

المكتئب في «فورته»: المكتئبون السوداويون يغدون بفعل ما يُثقِل على الآخرين، بفعل المقت والحب بالذات، أكثر خفةً، فيطفون لبعض الوقت على سطحهم.

91

خلط: يا له من إنسان بارد برود الثلج: إنه يحرق الأصابع ويُفزِع كل يد تلمسه: ولذا بالذات يعتقده البعض ملتهباً.

92

كرمى للسمعة: من منّا لم يقدّم يوماً ذاته قرباناً على مذبح الصيت الحسن؟

93

الأنس: ليس في لطف المعشر أي أثر لكره البشر، لكنّ فيه، لهذا بالذات، قدراً مفرطاً من الازدراء بالبشر.

94

على طرق ملتوية إلى الذات: نضج الرجل: هذا يعني استرجاع الجِدّ الذي كان له حين كان طفلاً يلعب.

95

في تدمّر الأخلاق تلقائياً: أنْ يخجل المرء من لاأخلاقيته، تلك درجة على السلّم الذي سيخجل، في أعلاه، من أخلاقيّته أيضاً.

96

محتضراً: على المرء أنْ يودّع الحياة كما ودّع عولِس ناوْزيكا، ـ ليس مغرماً بل بالأحرى مبارِكاً.

97

مشتهر: ماذا؟ رجل عظيم؟ لا أرى سوى ممثِّل لأمثله الخاصّ.

98

مغرور حين يسيء: من روّض ضميره نال منه؛ مع العضّة القبلة أيضاً.

99

يقول خائب الأمل: «كنتُ أصغي إلى الصدى ولم أسمع سوى الإطراء» ـ.

100

وحيداً مع نفسه: نتظاهر أمام أنفسنا بسذاجة أكبر مما نحن عليه: هكذا نرتاح من أخينا الإنسان.

101

مذلّلاً للأضلولة: يميل العارف اليوم إلى الشعور بأنه إله استحال إلى حيوان.

102

اكتشف تبادل الحب: إن اكتشف الحبيب أنّ الكائن المحبوب يكنّ له الحب أيضاً، عليه أصلاً أن يصحو من سكرته. «ماذا؟ هو متواضع بما يكفي ليحبّك أيضاً؟ أو غبي بما يكفي؟ أو ـ أو ـ؟»

103

الخطر في السعادة: «الآن كل شيء حسن في عينيّ، ها إني أحبّ أيّ قَدَر: ـ مَن يرغب في أنْ يكون قَدَري؟»

104

لذا ما زلنا أحياء: ما يمنع مسيحيّي اليوم من أن يحرقونا ليس حبّهم للبشر، بل لأن هذا الحبّ لا حول له ولا قوة.

105

الروح الحرّ والكنيسة: إن نفور ذوق الروح الحرّ، ذوق «تقي المعرفة» (أي نفور «تقواه») هو نفور من التدليس التقي[1] أكثر بكثير مما هو من التدليس اللاتقي[2]. من هنا الجهل العميق بالكنيسة العائد إلى طراز «الروح الحر» بوصفه لا حريته.

---

(1) Pia fraus.

(2) Impia fraus: المتهتك.

106

الهوى من أجل الهوى: بفضل الموسيقى تمتّع الأهواء نفسها بنفسها.

107

شروط لطبع قويّ: ما إن يتخذ القرار حتى تسدّ الأذن أمام أفضل حجّة مضادّة: تلك هي سمة الطبع القويّ. وتالياً إرادة ارتكاب حماقة بين الحين والآخر.

108

فتّحوا العيون!: ما من ظاهرات أخلاقيّة البتة، بل ثمة تأويل أخلاقي لظاهرات ما وحسب...

109

مجرم غير كامل: غالباً يضيق المجرم ذرعاً بجرمه: إنه يصغّره ويشوّه سمعته.

110

نقص في الذوق التراجيدي: قلما يكون محامو المجرم على درجة كافية من التفنّن لِيَقلبوا ما للفعلِ من فظيعٍ جميل لصالح فاعله.

111

في الإذلال: يصعب جرح غرورنا أكثر ما يمكن على أثر جرح كبريائنا.

112

دون النبل الكافي بالنسبة إلينا: من يحسّ نفسه مجبولاً على المشاهدة، لا على الإيمان، يعدّ كل المؤمنين مفرطين في الجلبة والإلحاح: يتملّص منهم.

113

نصيحة: «تريد أن تستميله؟ تظاهر أمامه بالإرباك ـ».

114

إضطراب أنثوي في الحس والحواس: إن الآمال العريضة التي تعقدها النسوة على الحب الجنسي، وحياءها[1] في هذه الآمال يفسد عليها كل الآفاق سلفاً.

115

المرأة من دون أشعور: حيث لا يلعب الحب أو الحقد دوراً تكون المرأة ممثّلة فاترة.

---

(1) إستعملنا صيغة غير العاقل مع النسوة.

116

الدرب الخاص: المراحل الكبيرة في حياتنا هي هناك، حيث نجرؤ على أنْ نغيّر اسم شرّنا ونعمّده خيرنا.

117

«التغلب على الذات»: إرادة التغلب على أشعور ما، هي آخر الأمر مجرد إرادة أشعور آخر أو عدّة أشاعير أخرى.

118

معجبون ساذجون: ثمة براءة في الإعجاب: مَن يتحلّى بها لم يخطر على باله بعد، أنّه قد يكون بدوره محط إعجاب ذات يوم.

119

حيث لا نبذّر أنفسنا: قد يبلغ القرف من القذارة مبلغاً يمنعنا من أنْ ننظّف أنفسنا ـ من أنْ «نبرّر» أنفسنا.

120

حب عادي: في الغالب تفوق الشهوانية نمو الحب سرعةً، فتبقى جذوره ضعيفة وسهلة الاستئصال.

121

الله ولغته اليونانية: من لطائف الأمور أنّ الله تعلّم اليونانية

حين أراد أنْ يصير كاتباً ـ وأنه لم يتعلّمها على نحو أفضل مما حصل.

122

المعتزّ متظاهراً بالغرور: عند بعضهم يكون السرور بالإطراء مجرّد لياقة قلبية ـ وتحديداً نقيض غرور الروح.

123

التسرّي والزواج: لقد فسدت أخلاق التسرّي أيضاً: ـ وذلك من خلال الزواج.

124

نحن أكثر بطولة مما نعتقد: مَن يهلّل وهو على المحرقة، لا ينتصر على الألم، بل يفرح بأنه لا يشعر بالألم حيث توقّعه. هذا مثال.

125

إنسان التطور: حين نضطر إلى تغيير رأينا في شخص ما، نحاسبه بشدّة على الأتعاب التي سببها لنا من جراء ذلك.

126

الغاية ووسائلها: الشعب هو الطريق الملتوي الذي تسلكه

الطبيعة للوصول إلى ستة رجال كبار أو سبعة. ـ نعم: وللتخلّص منهم فيما بعد.

127

الغريزة العارفة والنساء: يخدش العِلم حياء كل امرأة حقة. إنّها تشعر إزاءه وكأن المرء يريد أنْ يلقي نظرة إلى ما تحت بشرتها، ـ بل أردأ أيضاً! إلى ما تحت فستانها وزينتها.

128

حيلة: كلما كانت الحقيقة التي تريد أنْ تعلّمها أكثر تجريداً، كلما وجب عليها أن تزيّنها لإغواء الحواس.

129

إبليس: آفاق رؤية الشيطان لله هي الأوسع، لذا يبعد عنه مثل هذا البعد: ـ أعني الشيطان بوصفه أعتق صديق للمعرفة.

130

محك للطاقة الجوّانية: حين تهجع موهبة شخص ما، ـ حين يكفّ عن إظهار ما يُتقن، يبدأ بإفشاء ما هو. فالموهبة زينة أيضاً، والزينة مخبأ أيضاً.

131

الحب وفقاً لـ «الصورة الخاصة»: يخطىء الجنسان واحداً

بصدد الآخر: ذلك أنهما يحترمان ويحبّان، في الواقع، ذاتهما وحسب (أو أمثلهما الخاص، بتعبير ألطف ـ). هكذا، يريد الرجل أنْ تكون المرأة مسالمة ـ في حين أنّ المرأة في جوهرها لا مسالِمة مثل القطة، مهما أحسنتْ تدرّبها على الظهور بمظهر السلام.

132

فضيلتنا[1]: يحظى المرء بأفضل عقاب على ما له من فضائل.

133

الضالّون: من لا يعثر على الطريق إلى أمثله، يعِشْ أكثر خفةً وتهوّراً من الإنسان الذي لا أمثل له.

134

معلّمو المَيْن والزور الخمسة: عن الحواس تنبثق بدءاً كل مصداقية، كل راحة ضمير وكل تراءٍ للحقيقة.

135

فرّيسية: ليست الفرّيسية ارتداداً عن نوع الإنسان الخيّر، بل هي بالأحرى، في قسم كبير منها، شرط لكل ما هو خير.

---

(1) Le nostre virtù.

136

حوار: واحد يبحث عن قابلة لأفكاره، والثاني عن شخص يقدّم إليه المساعدة: هكذا ينشأ حوار جيد.

137

علماء وفنانون: عند معاشرة العلماء والفنانين يخطىء المرء بسهولة في الاتجاه العاكس: فوراء عالِم لافت يجد غالباً إنساناً عادياً، ووراء فنان عادي، في الأعم الأغلب، إنساناً لافتاً جداً.

138

بين الأطياف أبداً: نتصرّف في اليقظة كما في الحلم: نبتكر ونختلق بدءاً الإنسان الذي نعاشره ـ وننسى ذلك على الفور.

139

المرأة في اللاشعور: المرأة، في الانتقام والحب، أكثر بربريةً من الرجل.

140

نصيحة بمثابة لغز: «لمتانة الرابطة، ـ عليك أن تعضّ عليها».

141

عائقة: أسفل البطن هو السبب الذي يمنع الإنسان من أنْ يستسهل حسبان نفسه إلهاً.

142

في الحب: أكثر ما سمعتُه من الكلام احتشاماً: «في الحب الحقيقي تغلّف النفس الجسد»[1].

143

الفطرة تريد أن تسمّى فضيلة: يريد غرورنا أنْ يحسب ما نُتقِنه على أفضل وجه بالذات، الأمرَ الأصعب علينا. ذاكم أصل بعض أنماط الأخلاق.

144

النساء الْمُثَقّفات[2]: إنْ كان لامرأة ما ميول عِلمية يكون لديها في الجنس خطب ما عادة. فالعقم يؤهل في حدّ ذاته لرجولة معيّنة في الذوق؛ ذلك أنّ الرجل، ومن غير مؤاخذة، هو «الحيوان العقيم».

145

الولع بالزينة ومعناه: عند المقارنة بين الرجل والمرأة إجمالاً، يمكن القول: لو لم يكن للمرأة فطرة الدور الثاني، لما كان لها عبقرية الزينة.

---

(1) «Dans le véritable amour c'est l'âme qui enveloppe le corps».

(2) Les femmes savantes.

146

لمن يتأثر: من ينازع وحوشاً يجب أنْ ينتبه جيداً ألا يتحول إلى وحش. فحين تطيل النظر إلى الهاوية، تنظر الهاوية أيضاً إليك وتنفذ فيك.

147

إلماح: من قصص فلورنسا القديمة، ـ ومن الحياة أيضاً: إن المرأة الصالحة والمرأة الطالحة بحاجة إلى الضرب. ساتشيتي[1].

148

فنانات في الغرور: إغراء الغريب بحسن الظنّ بنا، ومن ثم الإيمان المصدِّق لظن القريب هذا: مَن يضاهي النساء في هذه الحيلة؟

149

في إيثولوجيا[2] الخير: ما يحسبه عصر ما شرّاً، هو في العادة راسب غير عصري لما حُسب في عصرٍ سابق خيراً، ـ هو إحياء لأمثل قديم.

---

(1) «Buona femmina e mala femmina vuol bastone» (فرانكو ساتشيتي: 1330 ـ 1440 شاعر وقصصي).

(2) Aetiologie: علم الأسباب، (بخاصة أسباب الأمراض).

150

المحيط؟ بالعكس!: في محيط البطل يصير كل شيء تراجيدياً، في محيط نصف الإله مهزلةً، وفي محيط الله يصير كل شيء ـ ماذا؟ يصير الـ: «عالم»، ربما؟

151

غفران لموهبتنا: الموهبة وحدها لا تكفي المرء: يلزمه أيضاً سماحكم بها، ـ أليس كذلك؟ يا أصدقائي؟

152

أجمل كذبة: «حيث شجرة المعرفة، هناك الجنة أبداً»: هكذا تتكلّم أعتق الأفاعي وأحدثها.

153

فوق كل القوانين: ما نفعله عن حبّ، يجري دائماً ما وراء الخير والشرّ.

154

من دون تزمّت: الاعتراض، والمغامرة، والارتياب المرح، وحب التهكّم علامات للصحة: فكل مطلق ينتمي إلى المرَضِيّات[1].

---

(1) Pathologie.

155

الفن والحب: الإحساس بالتراجيدي يقوى أو يضعف مع الشهوانية.

156

العصبية[1]: يندر الجنون عند الأفراد، ـ لكنه القاعدة عند الجماعات والأحزاب والأقوام والأجيال.

157

لعبة مريض الوهم: فكرة الانتحار وسيلة تعزية قوية: بها يجهز المرء جيداً على شرّ بعض الليالي.

158

سيّد الكل: لأَقوى غريزة، للطاغية فينا، لا يرضخ عقلُنا وحسب، بل وجداننا أيضاً.

159

جازِ نفسك: الأفعال الصالحة أو الطالحة يجب أن تنال جزاءها: لكن، لِمَ نجازي بالذات الشخص الذي أذاقنا الصالح أو الطالح؟

---

(1) L'esprit de corps.

160

الهتك والتهتّك: لا يعود المرء يحبّ معرفته حبّاً كافياً، إن باح بها.

161

حميمية الشعراء: الشعراء قليلو الحياء حيال تجاربهم: إنّهم يستغلونها.

162

بين الأقوام: «قريبنا ليس جارنا، بل جار الجار» ـ هكذا يفكر كلّ قوم.

163

في حال الاستثناء: يلقي الحب نوراً على صفات العاشق العالية والمخفيّة، ـ على ما هو نادر واستثنائي فيه: لذا يَخدع بسهولة بصدد ما هو القاعدة فيه.

164

لا أخلاقي أيضاً: قال يسوع ليهوده: «القانون للعبيد، ـ أحبّوا الله كما أحبّه، بوصفي ابناً له: ماذا تخصنا، نحن أبناء الله، الأخلاق؟».

165

إلى الأحزاب جميعاً: يحتاج كل راعٍ أبداً إلى كرّاز أيضاً، ـ أو عليه أحياناً أن يكون هو نفسه الكراز.

166

فشل الكذب: قد يكذب المرء بفمه؛ لكن الفم الكاذب يصير بوزاً يقول، مع ذلك، الحقيقة.

167

قطرة الذهب: عند القساة يكون الوجْد أمراً حييّاً ـ وشيئاً ثميناً.

168

إيروس ودين الحب: سقت المسيحية إيروس سمّاً: ـ لم يودِ به، هذا صحيح، لكنه ارتدّ وصار رذيلة.

169

الصدارة للضجيج: كثرة كلام المرء على نفسه، يمكن أنْ تكون أيضاً وسيلة لإخفاء نفسه.

170

مدح وذمّ: في المدح قدر أكبر من الإلحاح مما في الذمّ.

171

الشفقة عند الفيلسوف: تكاد الشفقة على إنسان المعرفة تبدو مضحِكة، شأنها شأن يدين رقيقتين على السيكلوب[1].

172

أياً كان: أحياناً يعانق المرء، حباً بالبشر، أيّاً كان (لأنه لا يستطيع أن يعانق الجميع): لكن هذا بالذات يجب كتمه عن هذا الـ «أياً كان». . .

173

وجهة الكراهية: إن المرء لا يكره طالما يزدري، بل إنه يكره بدءاً عندما يقدّر أو يحترم.

174

ليس لطيفاً[2]: أيها النفعيون، أنتم أيضاً تحبّون كل نافع قطاراً لميولكم وحسب، ـ وأنتم أيضاً لا تطيقون أصلاً جلبة عجلاته؟

175

كلام موجه إلى الغيريين: آخر الأمر يحبّ المرء رغبته، لا المرغوب فيه.

---

(1) في الميثولوجيا عملاق بعين واحدة.

(2) Non dulce.

176

غرور واحد يقاطع الآخر: لا ينافي غرور الغير ذوقنا، إلّا إذا نافى غرورنا.

177

الإنسان الكذّاب[1]: ربما لم يسبق لأحد بعد أن كان حقّانياً كفايةً في التعريف بما هي «الحقّانية».

178

غبن الأذكياء: لا نصدّق حماقات الناس الأذكياء: يا للخسارة في حقوق الإنسان!

179

الأخلاق يجب أن «تكون» لا أن «تصير»: تأخذ نتائج أفعالنا بناصيتنا ولا تبالي البتة بأننا قد «تحسّنّا» في هذه الأثناء.

180

وَهْم المهتدين الجدد: ثمة براءة في الكذب هي العلامة على حسن الإيمان بشيء ما.

---

(1) Homo mendax.

181

موعظة جديدة على الجبل: إنه لا إنساني أن يُبارِك المرء حين يُلعن.

182

من دون تبادل: اللاتكلّف عند المتفوِّق يغيظ لأنه لا يُتبادل.

183

نهاية الثقة: «ما هزّني، ليس أنّك كذبتَ عليّ، بل أنّي لم أَعد أُصدّقك».

184

عن النفس الكبيرة: هناك رفق مفرط يبدو كأنه خبث.

185

من قفا الظهر: «إنه لا يعجبني». ـ لماذا؟ ـ «لا أقدر عليه». ـ هل سبق لإنسان أن أجاب هكذا؟

الفصل الخامس

في تاريخ الأخلاق الطبيعي

186

أحدث العلوم طرّا: إن الإحساس الأخلاقي في أوروبا الآن رقيق ومكتهل ومتعدّد وحسّاس ومرهف بقدر ما لا يزال «علم الأخلاق» المنتمي إليه فتياً ومبتدئاً وبليداً وغليظ الأصابع: ذاك تضاد جذّاب يتجلى ويتجسّد، وبين حين وآخر، في شخص واحد من الأخلاقيين بعينه. وحسبك أن عبارة «علم الأخلاق»، بالنظر إلى ما تدلّ عليه، مفرطة في الكبرياء ومنافية للذوق السليم، الذي اعتاد دائماً على أنْ يكون ذوقاً يستعمل كلماتٍ أكثر تواضعاً. ويجب الاعتراف بشكل حاسم بكل ما لا يزال ينقصنا هنا على المدى البعيد، وبأن ما هو مشروع في هذا الصدد على المدى القريب وحسب هو: تجميع المواد والدرْك الأفهومي والتنسيق لملكوت شاسع من لطيف المشاعر القِيَمِيَّة والفروق القِيَمِيَّة التي تعيش وتنمو وتتوالد وتهلك. وربما إجراء تجارب لتبيّن ما لهذه التَبَلُّرات الحيَّة من أشكال تتكرّر وتُصادف غالباً. تمهيداً لعلم طُرُز

الأخلاق. وكما هو متوقع، لم يُظهِر أحَدٌ حتى الآن مثل هذا القدر من التواضع. فالفلاسفة جميعاً ما إن يتناولون الأخلاق كعِلم، حتى يطرحوا على أنفسهم، بعبوسٍ متكلّفٍ يُضحك، إنجاز ما هو أكثر علواً وتطلباً ومهابةً بكثير: فهم يريدون تأسيس الأخلاق؛ وقد ظنّ كلّ واحد منهم حتى الآن أنه أسّس الأخلاق؛ أما الأخلاق نفسها فقد سلّم بها بوصفها «معطاة». وشتّان ما بين صلفهم البليد وما هو مطلوب من وصفٍ يخيّل إليهم أنّه أمر تافه فيَدَعونه للغبار والعفن، في حين أن أرهف الأيدي والحواسّ قد لا تكون مرهفة كفاية للقيام به! وبما أنّ فلاسفة الأخلاق لم يعرفوا الوقائع الأخلاقية إلّا بصورة فظّة ومن خلال ما اختير اعتباطاً واختصر مصادفةً، وعلى سبيل المثال، من خلال خُلُقية محيطهم وطبقتهم وكنيستهم وروح عصرهم ومناخهم وموقعهم الجغرافي؛ وبما أنهم كانوا على سوء معرفة بأخبار الشعوب والأزمنة والماضي، وقليليّ الشغف بالعلم بها؛ فإنهم، ولذلك بالذات، لم يكشفوا عن أيّ وجه من مشكلات الأخلاق الحقيقية، تلك التي لا تظهر إلّا بالمقارنة بين أنماط أخلاق كثيرة. إن «علم الأخلاق» السابق كلّه، ومهما وقع ذلك عجيباً على السمع، لا يزال يفتقر إلى مشكلة الأخلاق نفسها: يفتقر إلى الارتياب في أن ثمة مشكلاً ما هنا. وإن ما سمّاه الفلاسفة «تأسيس الأخلاق» وطرحوه على أنفسهم، كان، إذا ما نظرنا في وضح النهار، مجرّد ضربٍ منمّق من طيّب الإيمان بالأخلاق السائدة ووسيلة جديدة للتعبير عنها، وكان من ثم واقعة أخلاقية معينة، بل كان في صميمه نوعاً من رفض جواز تناول هذه الأخلاق بوصفها مشكلة: والضدّ من التمحيص والتفكيك والتشريح لهذا الإيمان عينه أو التشكيك فيه بأي حال من الأحوال. ولنصغ مثلاً إلى شوبنهاور

نفسه كيف يعرض، وببراءة تكاد تكون جديرة بالإجلال، مهمّته الخاصة، ولنستخلص ما يمكن استخلاصه حول علمية «عِلمٍ» ما زال آخر أساتذته يتكلّم كالأولاد والعجائز: يقول شوبنهاور (ص، 136، مشكلتا الأخلاق الأساسيتان): «إنّ المبدأ... إنّ القضية الأساسية التي يتفق بالفعل كل الأخلاقيين على مضمونها؛ «لا تؤذِ أحداً، بل ساعد كلَّ واحد بقدر ما في وسعك»[1] هي بالفعل القضية التي يسعى كلّ معلمي الأخلاق إلى تأسيسها... وهي الأساس الفعلي لعلم الأخلاق الذي يبحث عنه المرء منذ آلاف السنين، بحثه عن حجر الفلاسفة». قد تكون صعوبة تأسيس القضيّة المذكورة كبيرة طبعاً ـ ومعلوم أنّ شوبنهاور لم ينجح في ذلك هو الآخر ـ: في حين أنّ من أحسّ ذات يوم، بكلّ عمق، كم هي زائفة ومبتذلة وعاطفية وسط عالم ماهيته إرادة القدْرة، قد يسمح لنا بتذكيره أنّ شوبنهاور، رغم كونه متشائماً، كان بالفعل عازف ناي... كلّ يوم، بعد الطعام: ويمكن الرجوع بهذا الصدد إلى كاتب سيرة حياته. سؤال على الهامش: إن متشائماً، منكراً لله والعالم، يتوقّف أمام الأخلاق، ويقول نعم للأخلاق ويعزف الناي لأخلاق الـ «لا تؤذِ أحداً»: أيكون متشائماً بالفعل، يا ترى؟

187

ما تكشفه أنماط الأخلاق: بصرف النظر عن قيمة مزاعم من نوع «يوجد فينا أمر حملي» فإنه لا يزال من الممكن طرح

---

(1) Neminem leade, immo omnes, quantum potes, juva.

السؤال: ماذا يقول زعم كهذا بصدد من يزعمه؟ هناك أنماط أخلاق ينبغي أنّ تبرّر صاحبها أمام الغير؛ وأنماط أخرى ينبغي أنْ تطمئنه وتجعله راضياً عن نفسه؛ وأخرى يريد بها أنْ يصلب نفسه ويذلّها، وأخرى يريدها لينتقم، وأخرى ليختبىء، وأخرى ليسمو ويضع نفسه خارجاً وعالياً وبعيداً؛ أخلاق تساعد صاحبها على أنْ يَنسى وأخرى على أنْ يُنسى هو أو شيء ما يتعلّق به؛ وربّ أخلاقي يرغب في أنْ يطلق سلطانه ومزاجه المبدع على الإنسانية؛ وآخر، وربما كنط بالذات أيضاً، يعلن بأخلاقه: «ما يستحقّ الاحترام فيّ هو أنني أستطيع أنْ أنصاع، وعندكم ينبغي أنْ لا يكون الأمر على غير ما هو عليه عندي!». باختصار، ليست أنماط الأخلاق هي الأخرى، سوى لغة علائم الأشاعير.

188

ما لكلّ أخلاق من قيمة لا تقدّر: إن كل أخلاق هي، على عكس الـ «دَعْهُ يمرّ»، نوع من الاستبداد بـ «الطبيعة» و«العقل» أيضاً: ولا اعتراض على ذلك اللّهمّ إلّا إذا شاء أحدهم أنْ يحظّر بموجب أخلاقٍ ما، كلَّ أنواع الاستبداد واللاعقل. ذلك أنّ جوهر الأخلاق وقيمتها التي لا تقدّر بثمن هي أنّها إكراه طويل. وكي يفهم المرء الرواقية أو الپورْيّالية أو التطهّرية، يجدر به أن يتذكّر أنّ اللغة، أيّ لغة حتى الآن، إنما بلغت مبلغ القوة والحرية تحت وطأة ذلك الإكراه، إكراه الوزن واستبداد القافية والإيقاع. ويا للعناء الذي تكبّده الشعراء والخطباء من كلّ قوم!. من دون أنْ نستثني منهم بعض الناثرين المعاصرين الذين يسكن آذانهم ضمير لا يرحم ـ وكل ذلك «التزاماً بترّهة ما»، على حد قولِ

يتذاكى به مغفّلون نفعيون ـ أو «خضوعاً لقوانين تعسّفية»، على حد قول فوضويين يظنّنون بذلك أنهم «أحرار» وأحرار الروح. غير أنّ واقع الحال المذهل يفيد أنّ كل ما هو على الأرض، وكل ما كان عليها من حريّة ورهَف وإقدام ورقص وثقة رائعة، سواء في الفكر نفسه أم في الحكم، أم في الكلام والإقناع، وفي الفنون كما في الخلقيّات، إنّما لم يتطور إلّا بفعل «طغيان مثل تلك القوانين التعسّفية»؛ وبكل جِدّ، ثمّة احتمال كبير أنْ يكون هذا الطغيان بالذات، وليس ذاك الـ «دعْه يمرّ»، هو «الطبيعة» و«الطبيعي»! ويعرف كل فنّان أنّ الفرق شاسع بين شعوره بـ «الدعْه يمر» وحاله الأكثر «طبيعة»، حين، في لحظات «إلهامه»، ينظّم بحرية ويطرح ويتصرّف ويشكّل، ـ ويعرف أنّه ينصاع، عندها بالذات، بصرامة ورهافة بالغتين لألف قانون وقانون يهزأ بسبب من قسوته وتعيّنه بالذات، من كل صياغة بموجب أفاهيم (بالمقارنة مع ذلك، يبدو حتى أمتن الأفاهيم شيئاً مبهماً ومتعدداً وملتبساً). أكرّر، يبدو أن المسألة الأساسية «في السماء كما على الأرض» هي أنْ ينصاع المرء طويلاً وباتجاه واحد: فعن هذا [الانصياع] تولّد ويتولّد على المدى الطويل أبداً شيء ما يستأهل أنْ نعيش لأجله على الأرض، وعلى سبيل المثال، الفضيلة والفنّ والموسيقى والرقص والعقل والروحية، ـ شيء ما فوقاني، مرهف، جنونيّ، إلهيّ. إن عبوديّة الروح الطويلة والإكراه المشكّك بتواصل الأفكار، والانضباط الذي فرضه المفكّر على نفسه لكي يفكّر وفقاً لخطٍ كنسيّ وبلاطيّ أو وفقاً لمصادرات أرسطيّة، إنّ طويل إرادة الروح لتأويل كلّ ما يجري وفقاً لنموذج مسيحي، ولإعادة اكتشاف الإله المسيحي وتبريره حتى في المصادفة أياً كانت ـ كلّ هذا القسريّ والتعسّفي والقاسي

والمرعب والمنافي للعقل تجلّى بوصفه الوسيلة التي بها تربّى الروح الأوروبي وبلغ قوّته وفضوله الجارف ومرونته المرهفة: مع الاعتراف بأنّ الكثير من القوّة والروح الذي لا يمكن تعويضه وجب أنْ يُطمس ويُخنق ويَفسُد بذلك أيضاً. (إذ هنا كما في أيّ محل آخر تظهر «الطبيعة»، كما هي، في كامل روعتها المسرِفة اللامبالية المثيرة، إنما النبيلة). إنّ كون المفكّرين الأوروبيين قد فكّروا، عبر آلاف السنين، للبرهنة على شيء ما وحسب ـ في حين نرتاب اليوم من أمر كلّ مفكّر يريد «البرهنة على شيء ما» ـ، وإنّ كونهم عيّنوا دائماً ما كان ينبغي أنْ يتحصل نتيجةً لتفكيرهم الأكثر صرامة، على غرار علم التنجيم الآسيوي سابقاً أو على غرار التأويل المسيحي الخلقي الساذج اليوم لأقرب الحوادث الشخصية بوصفها حاصلة «لمجد الله» و«من أجل خلاص النفس»: ـ هذا الطغيان، هذا التعسّف، هذا الغباء الصارم والبديع هو الذي ربّى الروح. فالعبودية، غليظة كانت أم لطيفة، هي، على ما يبدو، الوسيلة التي لا غنى عنها لتأديب الروح وتربيته أيضاً. ويمكن النظر في كلّ أخلاق من هذه الوجهة: إن «الطبيعة» فيها هي التي تعلّم كره الـ «دَعْه يمرّ» والحريّة المفرطة، وتزرع الحاجة إلى آفاق محدودة ومهامّ قريبة، ـ هي التي تعلّم تضييق المنظور، وإذن، وبمعنى من المعاني، الغباءَ بوصفه شرطاً للحياة والنمو، «عليك أنْ تنصاع لواحد ما ولمدة طويلة، وإلّا هلكت وفقدت آخر ما لديك من احترام لنفسك». هذا ما يبدو لي أمر الطبيعة الأخلاقي الذي ليس «حملياً»، بالطبع، كما أراده كنط العجوز (لذلك قال «وإلّا»)، ولا موجّهاً إلى الفرد (بماذا يهمّها الفرد!)، بل إلى الأقوام والأعراق والأجيال والطبقات، لكن أكثر من أيّ شيء إلى الحيوان المسمّى «إنساناً» بأسره، إلى الـ إنسان.

189

تجويع موقّت للغرائز: تجد الأعراق الشّغيلة حرجاً بالغاً في تحمّل البطالة: وإنّها لمأثرة للفطرة الإنكليزية أنْ تكون قدّست يوم الأحد أيّما تقديس واضجرت به النفس، بحيث إنّ الإنكليزي صار يشتهي من جديد ومن دون أن يدرك أيام الأسبوع والعمل: [الأحد] بوصفه نوعاً من الصوم ابتُكر وأُدرج بذكاء، مثله مثل الكثير المشاهَد منه في العالم القديم (لكن، إنصافاً لشعوب البلاد الجنوبية، ليس بالنظر إلى العمل بالذات.). يجب أن تكون ثمة أنواع عديدة من الصوم؛ فحيث تسود الغرائز والعادات القوية، على المشرِّع أنْ يحرص على إدخال أيام كبيسة تكبّل تلك الغرائز وتعلّمها أنْ تجوع من جديد. إنّ أجيالاً وعصوراً كاملة، في حال بدت مصابة بتعصّب أخلاقي ما، تتجلّى، عند النظر إليها من مكان أعلى، بوصفها أزمنة قسرٍ وصوم من ذاك القبيل، أزمنة تتعلّم الغريزة أثناءها أنْ تنحني وترضخ، ولكن، أنْ تطهّر وتشحذ نفسها أيضاً. وإن مذاهب فلسفية متفرّقة (وعلى سبيل المثال الرواقية وسط الحضارة الهِلِّينية بهوائها الذي صار شبقاً وطافحاً بالروائح الأفروديسية) تسمح كذلك بتأويل من هذا النوع. بذلك يعطى أيضاً إلماع إلى تفسير المفارقة التالية: لماذا تسامت الغريزة الجنسية إلى حبّ (إلى هوى متيّم)[1] في عهد أوروبا الأكثر مسيحيّة بالذات، وبدءاً تحت وطأة أحكام قِيَميّة مسيحية بعامة؟

190

الرياء الأخلاقي في القدم: ثمة شيء في أخلاق أفلاطون لا

---

(2) Amour-passion.

ينتمي إلى أفلاطون أصلاً، بل يصادف في فلسفته وحسب، ويمكن القول، رغماً عن أفلاطون: أعني السقراطية التي كانت، في الحقيقة، دون نبله، «لا أحد يريد أنْ يضرَّ نفسه، لذا يحصل كل سوءٍ لا إرادياً. ذلك أنّ السيّىء يضرّ نفسه: ولو عرف [الفاعل] أنّ السوء سيّىء لما فعل ذلك. وتبعاً لذلك ليس السيّىء سيئاً إلّا عن خطأ؛ وإنْ رفعنا عنه الخطأ جعلناه بالضرورة ـ حسناً». تفوح من استدلال كهذا رائحة الدهماء التي تنتبه وحسب إلى ما لفعلة السوء من نتائج مزعجة، وهي إذ تقرّر أنه «من الغباء أنْ يفعل المرء سوءاً»، تساوي من دون تردّد بين «الحسن» و«النافع» والمريح. ويحقّ للمرء أنْ يشتمّ هذا الأصل في كل نفعيةٍ أخلاقية من أول الأمر فيتبع أنفه: فقلّما يضلّ... لقد فعل أفلاطون كل ما بوسعه ليقحم، من خلال تأويله، شيئاً ما لطيفاً ونبيلاً، بل ليقحم نفسه في قضيّة معلّمه، هو الأكثر إقداماً بين المؤوّلين جميعاً، هو الذي اتخذ سقراط كلَّه بمثابة موضوع ولحنٍ شعبيّ من الأزقّة، لينوّع عليه تنويعاً لا متناهياً يكاد يبلغ الممتنع: أعني ليضفي عليه كلّ الأقنعة والتلوينات الخاصّة به. ويمكن القول، مزاحاً، بل بلهجة هوميروس أيضاً: ما هو سقراط الأفلاطوني أصلاً، إن لم يكن: من الأمام أفلاطون ومن الخلف أفلاطون وفي الوسط خيميرا[1].

191

الشعور القيمي والجدل القيمي عند سقراط: إن المشكلة

---

(1) خيميرا = الخرافة.

اللاهوتية القديمة، مشكلة «الإيمان» و«العِلْمان» ـ أوضح: مشكلة الفِطْرة والعقل ـ وإذن السؤال: هل تستحقّ الفطرة بالنظر إلى تقييم الأشياء، سلطة أكبر من التعقّل الذي يريد أنْ يقيّم ويفعل وفقاً للأسباب و«اللماذا»، وفقاً للغائية والنفعية، ـ إن هذه المشكلة الأخلاقية لا تزال على حالها، كما ظهرت بدءاً في شخص سقراط وفرّقت العقول قبل المسيحية بزمن طويل. وصحيح أن سقراط وقف في البدء، بفضل ذوق موهبته ـ موهبة الجدليّ المتفوّق ـ إلى جانب العقل؛ وماذا فعل، في الحقيقة، طوال حياته غير الضحك على القصور الغشيم لأثينيّيه النبلاء الذين كانوا، ككل النبلاء جميعاً، أصحاب فِطرة ولم يستطيعوا يوماً أنْ يفسّروا أسباب أفعالهم تفسيراً وافياً؟ إلّا أنه ضحك، آخر الأمر في السرّ والخفاء على ذاته أيضاً: فلقد وجد في نفسه، أمام ضميره المرهف واستنطاقه الدقيق لذاته، الحَرَج والقصور عينه. فسارع إلى إقناع نفسه: لِمَ على المرء أنْ يهمل ما فُطِر عليه بسبب من ذلك؟ عليه [بالأحرى] أنْ يقف إلى جانبه كما إلى جانب العقل لينال كلّ حقّه؛ عليه أنْ يتبع الفطر، لكن مع إقناع العقل بأنْ يدعمها في ذلك بأسباب وجيهة. ذاك هو الرياء الحقيقي لذلك المتهكّم الكبير الحافل بالأسرار؛ لقد أوصل ضميره إلى أنْ يرضى عن ضرب من التحايل على الذات: بينما نفذت بصيرته، في الواقع، إلى لا-عقلانيّ الحكم الأخلاقي. أما أفلاطون الذي كان، في أمور كهذه، أكثر براءةً ودون المكر الخاص بالعاميّ، فقد أراد أنْ يبرهن لنفسه، وبكلّ ما له من قوة ـ وهي أكبر قوة استطاع فيلسوف أنْ يبذلها حتى الآن! ـ أنّ العقل والفطرة يتبعان تلقائياً غايةً واحدة هي الخير و«الله». ومنذ أفلاطون يسير كل اللاهوتيّين والفلاسفة في المسار عينه، ـ ويعني هذا أنّ ما انتصر

حتى الآن في أمور الأخلاق، هو الفِطْرة، أو كما يسمّيه المسيحيّون «الإيمان»، أو كما أسميّه أنا «القطيع». ويجب في الحقيقة أنْ يُستثنى ديكارت، أبو العقلانية (وجَدّ الثورة بالتالي)، الذي أقرّ بالسلطة للعقل دون سواه: لكنّ العقل مجرد أداة، وديكارت كان سطحيّاً.

192

دُنْ كيخُوتيّة حواسّنا: من يتبع تاريخ علم من العلوم يجد في تطوّره دليلاً إلى فهم أكثر المسارات قدماً وشيوعاً في كل «عِلمانٍ ومعرفة»: هنا وهناك تتطوّر أولاً الفروض المتهوّرة والتخرّصات وإرادة «الإيمان» الغبيّة الطيِّبة وقلّة الارتياب والصبر ـ فحواسّنا تتعلم متأخّراً ولن تتعلم تماماً ذات يوم أنْ تكون أعضاء حذرة ومرهفة ومخلصة للمعرفة. إن العين تجد في مناتجة صورة سبق لها أنْ أنتجتها مراراً على أثر مناسبة معطاة، راحة أكبر مما نجد في لقْفَ ما لانطباع ما من غريب وجديد: لهذا يلزم قوة أكبر، «وأخلاقية» أكبر. والاستماع إلى جديدٍ يُحرج الأذن ويصعب عليها؛ فهي لا تصغي جيّداً إلى موسيقى غريبة. وعندما نسمع لغةً أخرى نحاول لا إراديّاً تحويل الأصوات المسموعة إلى كلمات ذات وقع أكثر ألفة وقرابة على سمعنا: وعلى سبيل المثال، فقد تصرّف الألماني على هذا النحو حين سمع arcubalista وحوّلها إلى Ambrust[1]. كذلك يجد الجديد حواسّنا عدائية وكارهة؛ وحتى في «أبسط» مجريات الحساسية تسود أشاعير مثل الخوف

(1) نوع من سلاح شبيه بالقوس. يبدو اللفظ الألماني تقليداً صوتياً للأصل اللاتيني من دون اعتبار المعنى.

والحب والمقت، أضف إليها أشاعير الكسل الخائرة... أما القارىء فقلما يقرأ اليوم الألفاظ المفردة (أو مقاطع اللفظ) في صفحة ما ـ بل يختار بالأحرى اعتباطاً خمسة ألفاظ من بين عشرين لفظاً «ويحرز» ما يظنه المعنى الخاص بهذه الألفاظ الخمسة. وكذلك قلما ننظر إلى شجرة بدقة وتماماً، لنرى الأوراق والأغصان واللون والهيئة؛ إنه يسهل علينا أكثر بكثير أن نتوهّم شيئاً ما يشبه شجرة. وحتى أثناء أغرب تجارب العيش نتصرّف على النحو عينه: نختلق القسم الأكبر من التجربة. ويكاد لا يوجد شيء يمكن أنْ يجبرنا على أنْ نشاهد مساراً ما من حيث لا «نبتكره» نحن. وكل هذا يعني: إننا معوّدون، من صميمنا فصاعداً ومنذ القدم، ـ على الكذب. أو بعبارة أكثر فضيلة ورياءً، أي ألطف: إن المرء فنّان أكثر بكثير ممّا يظنّ. في مجرى حديث حام، غالباً ما أرى أمامي وجه من أكلّمه، تبعاً للفكرة التي يبديها أو التي أظنّ أني أثرتُها فيه، واضحاً جداً ودقيق التعيّن إلى حد أنّ درجة الوضوح هذه تفوق قوة قدرتي البصرية بكثير: فدقّة لعبة العضلات وتعبير العينين يجب أنْ يكونا إذن أمراً أضفته بخيالي. ويغلب على الظن أن تعبير الشخص كان على غير ذلك كليّاً أو أنه لم يكن له أيّ تعبير البتة.

193

الحلم وتجربة العيش: ما يحدث في الضوء يظلّ يفعل في الظلام:[1] لكنّ العكس صحيح أيضاً. وما نعيشه في الحلم،

(1) Quidquid luce fuit, tenebris agit.

بشرط أن يتكرر غالباً، ينتمي آخر الأمر إلى مجمل «مؤونة» نفسنا، شأنه شأن ما عشناه على نحو «متحقق»: فبفضله نزداد فقراً أو غنى، نضيف حاجةً إلى حاجاتنا أو ننقص واحدة منها، وبفضله ترانا أخيراً في عزّ وضح النهار، وحتى في أبهر لحظات روحنا اليقظ، مسيّرين بعض التسيير بما تعوّدنا عليه في أحلامنا. ولنفرض أنّ أمرأً يحلّق غالباً في أحلامه وينتهي به الأمر، حين يحلم، إلى إدراك قوة تحليقه ومهارته بوصفها امتيازاً له وأيضاً سعادةً خاصةً به يُحسد عليها: إنّ امرأً كهذا يؤمن بأنّ في وسعه أنْ يحقّق، بأخفّ حركة، شتّى أنواع الالتفاف والانحناء، أمرأً يشعر بخفّة إلهيّة معيّنة، «بصعود» من دون شدّة وإكراه و«بهبوط» من دون تنازل وإذلال ـ من دون ثقل! ـ كيف له، كيف للإنسان الذي له مثل هذه التجارب والعادات في أحلامه، أنْ لا يرى في يقظته، أيضاً، لوناً آخر وتعيناً آخر للفظ «السعادة»! كيف له أنْ لا يطلب السعادة على نحو مغاير؟ إن «خفق الجوانح»، كما يصفه الشعراء، يجب أنْ يكون بالمقارنة مع ذاك «التحليق»، ترابياً وعضلياً وقسرياً و«ثقيلاً» جداً عليه.

194

درجات عطش التملّك وألوانه: لا يتبيّن الاختلاف بين البشر من اختلاف لوحة قيم الخير الخاصّة بهم وحسب، أعني من كونهم يحسبون قيم خير مختلفة جديرةً بالسعي ولا يتّفقون فيما بينهم على كبير القيمة أو قليلها، على تراتبيّة قيم الخير التي اعترفوا بها جميعاً ـ بل إنه يتبيّن أيضاً وعلى نحو أفضل من ما يعدّونه حيازة فعلية وامتلاكاً فعلياً لخير ما. وفيما يخص المرأة،

على سبيل المثال، فإن متواضعاً قد يعدّ التصرّف في الجسد والمتعة الجنسية دليلاً كافياً وشافياً للحيازة والملك؛ في حين أنّ آخر بعطشه التملّكي الأكثر ارتياباً وتطلّباً يطرح «علامة استفهام» ويرى في حيازة من هذا النوع مجرّد وهم، ويريد اختبارات أكثر دقّة من أجل أن يعلم، قبل أيّ شيء، بأن المرأة لا تسلّم له نفسها وحسب، بل تتخلّى من أجله أيضاً عمّا لها وعمّا ترغب في أنْ يكون لها: هكذا وحسب يعدّها «مملوكة». لكنّ ثالثاً لا يصل بذلك بعد إلى نهاية ارتيابه وإرادته للحيازة، فيتساءل: إنْ تخلّت المرأة من أجله عن كلّ شيء، هل، فعلت ذلك يا ترى، من أجل طيف له: إنّه يريد بدءاً أنْ تعرفه جيّداً وجذريّاً، بل أنْ تسبر غوره، كي يصير من الممكن بعامّة أنْ تحبّه، إنه يجرؤ على أنْ يدعها تحلّ لغزه... وعندما تكفّ الحبيبة عن خداع نفسها بصدده، عند ذاك وحسب، يشعر بها في حوزته تماماً، عندما تحبّه من أجل شيْطنته ونهمه الخفيّ بقدر ما تحبّه من أجل رفقه وصبره وروحيّته. يريد واحد أنْ يملك شعباً: فيقبل لهذا الغاية بكلّ فنون كاغليوسترو وكاتيلينا[1] الرفيعة. ويقول آخر بعطش تملّكي «ألطف»: «على المرء ألّا يَخْدع حيث يريد أنْ يَملك»، ـ فهو ينزعج ويقلق عندما يتصور بأن قناعاً له يتملّك قلب الشعب: «يجب عليّ إذن أنْ أدعهم يعرفوني، وأوّل الأمر، أن أعرف نفسي!». ويُصادف عند الناس المُعينِين والمحسنين، بصورة شبه منتظمة، ذاك المكر الغليظ الذي يبتكر بدءاً شخصاً سيقدّم له العون: وعلى سبيل المثال، ما إذا كان يستحق العون، وما إذا كان يتوق إلى عونهم بالذات، وما إذا كان سيظهر لهم، مقابل كلّ

(1) Cagliostro: مغامر إيطالي شهير؛ Catilina: متآمر روماني.

عون، جزيل الشكر والإخلاص والخنوع، ـ وهم وبمثل هذه التخيّلات، يتصرّفون في المحتاج إليهم تصرُّفهم في ملكيّة ما، مثلما يصيرون أناساً محسنين ومُعينين من جراء الطمع بملكيّة ما بعامة. ونراهم غيارى إنْ منَعَهم واحد ما من تقديم العون أو سبقهم إليه. أما الأهل فيجعلون، لا-إرادياً، من الولد شيئاً يشبههم ـ ويسمّون ذلك «تربية» ـ، وما من أمّ تشكّ في صميم قلبها في أنّها بوضعها طفلاً، إنما ولدت لنفسها مُلْكاً، وما من أب ينكر على نفسه الحقّ في أنْ يُخضع الولد لمفاهيمه وتقييماته. بل لقد بدا، من قديم الزمان، للآباء أنّ من الإنصاف أنْ يتصرّفوا على هواهم في حياة المولود الجديد أو موته (كما عند الألمان القدامى). والمعلّم والطبقة والكاهن والأمير، كلّ منهم، شأنه شأن الوالد، ما زال يرى، اليوم أيضاً، في كلّ إنسان جديد فرصة سائغة لامتلاك جديد، مما يعني. . .

195

إعادة تقييم القيم على الطريقة اليهودية: ـ إنّ اليهود ـ وهم شعب «ولد للعبودية»، على حد قول تاتسيتوس وكل العالم القديم، أو هم «الشعب المختار بين الشعوب» على حد قولهم واعتقادهم ـ حقّقوا تلك المعجزة في قلب القيم التي أضفت على الحياة الدنيوية لبضعة آلاف من السنين فتنةً جديدة وخطرة: لقد صهر أنبياؤهم الألفاظ «غنيّ» و«كافر» و«شرّير» و«عنيف» و«حسّي» في كتلة واحدة وحوّلوا لفظ «الدنيا» لأوّل مرة إلى عملة عار. وفي قلب القيم هذا (وينتمي إليه استعمال لفظ «فقير» مرادفاً لـ «مقدّس» و«صديق») تكمن أهمية الشعب اليهودي: به تبدأ انتفاضة العبيد في الأخلاق.

196

أمر لا يمكن أن يُحزر إلّا من خلال آثاره: المطلوب التدليل على وجود ما لا يحصى من الأجرام المظلمة في جوار الشمس، ـ أجرام لن نشاهدها البتة. أقول هذا، والكلام بيننا، على سبيل الكناية؛ فالسيكولوجي الأخلاقي لا يقرأ مجمل ما هو مدوّن في النجوم إلّا بوصفه لغة كنايات وعلائم تسمح بكتمان الكثير من الأمور.

197

حيوان القطيع يريد أن يكون معيار الإنسان: يسيء المرء جذرياً فهم الحيوان الضاري والإنسان الضاري (وعلى سبيل المثال قيصر بورْغيا)، بل يسيء فهم «الطبيعة»، ما دام يبحث عن «داء» في جذور هذه المخلوقات الأكثر صحّةً بين كل الوحوش والنباتات الاستوائية، أو حتى عن «جحيم» متأصّل فيها بالفِطْرة. وذاك على نحو ما فعل كل الأخلاقيّين تقريباً حتى الآن. ويبدو أنّ الأخلاقيّين يكنّون كرهاً للأدغال والأقاليم الاستوائية؟ وأنّ «الإنسان الاستوائي» يجب أنْ يحقّر بأي ثمن، بوصفه حالة مرضية وارتداداً عن الإنسان أو بوصفه جحيماً خاصاً به وتعذيباً للذات؟ لماذا يا ترى؟ لصالح «الأقاليم المعتدلة»؟ لصالح البشر المعتدلين؟ «الأخلاقيين»؟ الوسطيين؟ ألحقوا هذا بفصل «الأخلاق كمخافة».

198

أنماط أخلاق للسعادة وليس للقذْرة: كل تلك الأنماط من

الأخلاق التي تتوجّه إلى الفرد من أجل تأمين «سعادته»، كما يقال، إنْ هي إلَّا اقتراحات للسلوك بما يتناسب مع درجة الأخطار التي تهدّد الفرد في معايشته ذاتَه؛ إنها وصْفة ضد أهوائه وميوله، الكيّسة منها والرديئة، فيما لو كانت لها إرادة القُدْرة ورغبت في لعب دور السيّد. إنها تحذلقات صغيرة أو كبيرة تعبق بعفن الوصفة البيتيّة العتيقة وحكمة النسوة العجائز؛ وجميعها من حيث الشكل باروكية وحمقاء، لأنها تتوجّه إلى «الكل»، ولأنها تعمّم حيث لا يجوز التعميم؛ وجميعها تتكلّم بإطلاق وتحسب نفسها لا مشروطة، وجميعها متبّلة لا بحبةِ ملح واحدة وحسب، بل هي حين تنضح بالتوابل وتعبق برائحة خطرة، وخاصة برائحة «العالم الآخر»، تصير قابلة للهضم بدءاً، وحتى فاتحة للشهية أحياناً. . . كل هذا قليل القيمة بالقياس العقليّ، ولا يداني «العلم» البتة، ولا «الحكمة» بأي حال، بل هو بالأحرى، وأقولها مرة ثانية وثالثة أيضاً، تحذلق وتحذلق وتحذلق ممزوج بغباء وغباء وغباء: سواء نظرنا إلى اللامبالاة والبرودة الرخاميّة التي نصح بها وأوعز بها الرواقيّون وقايةً من تأجّج جنون الأشاعير؛ أم نظرنا إلى حال اسبينوزا تلك التي لم تعدْ ضحكاً ولا بكاء، بل صارت تهديماً، متبنّى بسذاجة، للأشاعير من خلال تحليلها وتشريحها؛ أم نظرنا إلى ذاك التخفيف من حدّة الأشاعير وإحباطها إلى مقدار معتدل غير ضارّ يسمح بإشباعها، أي إلى أرسطيّة الأخلاق؛ أم نظرنا حتى إلى الأخلاق بوصفها تمتّعاً بالأشاعير بعد مزجها ورَوْحنتها قصديّاً من خلال رمزية الفن، كما في الموسيقى مثلاً، أو في حبّ الله وحبّ الإنسان من أجل الله ـ إذ في الدين تنال الأشاعير من جديد حقّها المدني، شرط أن. . . أم نظرنا أخيراً إلى ذاك الاسترسال المتساهل في الأشاعير والإقدام عليها على

حدّ تعاليم حافظ و غوته، وإلى إسلاس قيادها بجرأة، وإلى تلك «الإجازة الأخلاقيّة»[1] الروحيّة الجسدية في حالات استثنائية خاصة بحكماء عجائز سكارى وغريبيّ الأطوار، حيث «لم يعدّ الأمر يشكّل خطراً كبيراً». ألحقوا هذا أيضاً بفصل «الأخلاق كمخافة».

199

لم يعد أحد يقدر على الأمر: بما أنّ تواجد البشر كان منذ البداية وفي كل الأزمنة مصحوباً بتواجد قطعان بشرية أيضاً (عشائر، جماعات، قبائل، أقوام، دول، كنائس) وبعدد كبير جداً من المنصاعين نسبةً إلى قلّة عدد الآمرين، أي من حيث إنّ الانصياع حظي عند البشر حتى الآن بأفضل وأطول تمرّس وتربية، فإنه يحق لنا الافتراض، كمعدل عام، أنّ كلّ واحد منا هو الآن مفطور على الحاجة إلى الانصياع بوصفه نوعاً من الوجدان الصوري الذي يأمر: «يجب عليك أنْ تفعل شيئاً ما حتماً وأنْ تمتنع عن شيء ما حتماً»، وباختصار «يجب عليك». وتسعى هذه الحاجة إلى الإشباع وإلى ملء صورتها بمضمون ما؛ وهي بوصفها شهيةً وغليظة وقليلة التطلّب سرعان ما تلقف وتقبل، على حسب قوتّها ولهفتها وشدّتها، كلَّ ما يصيح به أيُّ آمر من الآمرين في آذانها: الأهل، والمعلّمون، والقوانين، والتحكيمات الطبقيّة والرأي العام. ويعود القصور الغريب للتطور البشري، بكل تردّده وصعوبته وطوله، بل بكلّ تقهقره ودورانه على ذاته في الغالب،

---

(1) Licentia morum.

إلى أنّ فِطْرة القطيع في الانصياع تتوارث على أحسن ما يكون وعلى حساب فنّ الأمر. ولنفترض أنّ هذه الفطرة بلغت ذات مرّة أوج ذروتها فإنّ الآمرين والمستقلين سيندثرون تماماً في النهاية، أو قلْ إنهم سيعانون جوّانياً من تأنيب الضمير وسيحتاجون بدءاً إلى التحايل على الذات كي يمكن لهم أنْ يأمروا، أيْ كما لو أنّهم، هم أيضاً، ينصاعون وحسب. وهذه الحالة قائمة اليوم في أوروبا فعلاً: وأسمّيها رياء الآمرين الأخلاقي. فهم لا يعرفون أنْ يتّقوا تأنيب ضميرهم إلّا وهم يتصرّفون كمنفّذين لأوامر أقدم أو أعلى (أوامر الأسلاف والدستور والحق والقوانين وحتى الله) أو يستعيرون بدورهم من نمط تفكير القطيع شعاراتٍ قطيعيّة، وعلى سبيل المثال، بوصفهم «أفضل خدّام لشعبهم» أو «أدوات الخير العام». ومن جهة أخرى، يتظاهر إنسان القطيع اليوم، في أوروبا، وكأنه الضرب البشري الوحيد المسموح به، ويمجّد صفاته التي جعلته أليفاً، مسالماً مفيداً للقطيع، بوصفها الفضائل البشرية الحقيقية: أي الحسّ الجمعيّ، الطيبة، الرفق، الاجتهاد، الاعتدال، التواضع، التسامح، التراحم. أما في تلك الحالات التي يبدو فيها الاستغناء عن القادة وكرّازي القطيع ممتنعاً، فيجري اليوم تجريب بعد تجريب لجمع أناس قطيعيّين أذكياء يحلّون محلّ أصحاب الأمر: ذاك هو، على سبيل المثال، أصل كلّ الدساتير التمثيليّة. لكن، مع ذلك، أيّ نعمة ستهبط على أوروبيي القطيع هؤلاء، بل أيّ انعتاق من ضغط يكاد لا يطاق، سيكون لهم مع ظهور الآمر المطلق، ـ الشهادة الكبيرة الأخيرة على هذا، هي التأثير الذي أحدثه ظهور نابوليون: إن ماجريّات تأثير نابوليون تكاد تكون ماجريّات السعادة القصوى التي بلغها هذا القرن بأسره في أكثر أناسه ولحظاته قيمةً.

200

قوة البشر الهجناء وضعفهم: ـ إنّ إنسان عصر الانحلال، عصر خلط الأعراق، يحمل، بما هو كذلك، تركة أصل متعدّد في جسده ويعني هذا غرائز ومقاييس قيمة متضادة، بل أكثر من متضادة في الغالب، ينازع بعضها بعضاً ولا تهدأ إلّا نادراً ـ إنسان كهذا، إنسان الحضارات المكتهلة والأنوار المنعكسة، سيكون بالمعدّل إنساناً أضعف: بمعنى أنّ رغبته الأعمق هي في أنْ تنتهي ذات يوم الحرب التي هي هو؛ وستبدو له السعادة، وفقاً لنمط استشفائي وفكري مهدّىء (وعلى سبيل المثال الأبيقوري والمسيحي)، بوصفها في الدرجة الأولى، سعادة الراحة والاطمئنان والشبع والوحدة المتناهية، بوصفها «سبت السّبوت»، على حد فصاحة القديس أوغسطينوس الذي كان هو نفسه إنساناً كهذا. لكن، حين يفعل التضادّ والحرب، في جبلّة من هذا النوع، فعلهما كباعث وحافز حياتيّ مضاعف، وحين يضيف التوارث والتربية إلى غرائزها القويّة المتناحرة كل الإتقان والرَهَف في شنّ الحرب على النفس، أي في تمالك النفس والتحايل على الذات: حينئذ يولد أولئك الغامضون والخارقون، أولئك الناس الألغاز الذين قدّر لهم أنْ ينتصروا ويغووا، أناس يمثّلهم على أجمل وجه كل من ألسيبيادس وقيصر (وإليهما أودّ أنْ أضيف ذاك الأوروبي الأول الذي على ذوقي، فريدريش الثاني آل هونْشتَوْفِنْ) ومن بين الفنّانين ربما ليوناردو ده فينتشي. إنهم يظهرون في الأزمنة عينها التي يحتلّ فيها ذاك الطراز الأضعف بنزوعه إلى الهدوء مكان الصدارة: فالطرازان ينتميان الواحد إلى الآخر ويتولّدان عن الأسباب نفسها.

201

من النفعية إلى العصاب الأخلاقي: طالما كانت النفعية السائدة في الأحكام القيمية الأخلاقية نفعيّة القطيع دون سواها، وطالما كان النظر موجّهاً إلى الحفاظ على الجماعة وحسب، والبحث عن اللاأخلاقي منحصراً في ما يبدو خطراً على بقاء الجماعة بالذات: فإن زمن «أخلاق حبّ القريب» لم يكنْ قد حان بعد. وعلى افتراض أنه حتى في ذلك الوضع، وُجد قليل من التدرّب المستمرّ على المراعاة والتراحم والإنصاف والرفق وتبادل العون، وعلى افتراض أنّ كلّ تلك الغرائز، التي سيطلق عليها في وقت لاحق اسم «الفضائل» المشرِّف والتي تكاد ترادف في النهاية أفهوم «الأخلاقية»، كانت تفعل في حالة المجتمع تلك أيضاً: فإنّها، في حينها، لم تكنْ تنتمي بعد البتّة إلى ملكوت التقييمات الأخلاقية. كانت لا تزال خارجة عن الأخلاق. وعلى سبيل المثال، لا يصنَّف الفعل الرحوم في أوج العصر الروماني لا خيّراً ولا شرّيراً، ولا أخلاقيّاً؛ وهو إنْ مُدح بحد ذاته فإنّ هذا المدح يظلّ ينسجم أحسن انسجام مع نوع من الازدراء المستنكر، وبخاصة حين يقارن بفعل آخر يخدم مصلحة الجميع والشأن العام[1]. إن «حبّ القريب» هو، في النهاية، دائماً أمر جانبيّ، وفي قسم منه، أمر تقليديّ وشبه إراديّ اذا ما قورن بالخوف من القريب. فبعد أنْ يتثبّت تكوين المجتمع ككل، ويبدو محصّناً ضد الأخطار الخارجية، يعود هذا الخوف من القريب ليخلق منظورات جديدة للتقييم الأخلاقي. إنّ غرائز معيّنة وقويّة وخطرة، كالإقدام على

(1) Res publica.

المجازفات والجرأة الجسورة وحبّ الانتقام والمكر والطمع بالاستيلاء وشهوة السيطرة، لم تكن حتى الآن تحظى بالاحترام، بمعنى المنفعة العامة وحسب، ـ وتُدعى، ويا للإنصاف، بغير الأسماء التي اخترتُها هنا ـ بل كان يجب أنْ تنمّى وتربّى أيضاً (كانت الحاجة إليها مستمرّة لدرء الخطر عن الكلّ ومحاربة أعداء الكلّ). وآن تزول مسارب التنفيس عن هذه الغرائز يتضاعف الشعور بخطرها وتُوسَم تدريجياً باللاأخلاقيّة ويُباح قذفها. وآنئذ تحظى الغرائز والميول المضادّة لها بالمجد الأخلاقيّ؛ وتستخلص فِطرة القطيع النتائج واحدة بعد أخرى. وعلى أثر ذاك يصير المنظور الأخلاقيّ هو التالي: إلى أي حدٍ يتضمّن الرأي والحال والأشعور والإرادة والموهبة خطراً على الخير العامّ والسواسية: فالخوف هو هنا أيضاً، ومرّة أخرى، مولّد الأخلاق. وحين تدفع أعلى الغرائز وأقواها، في تدفّقها الجارف، بالمرء إلى تخطّي معدّل ضمير القطيع وحضيضه وإلى العلوّ عنه، تودي بالشعور الذاتي للجماعة، فينهار إيمانها بنفسها وينكسر عمودها الفقري، إن صحّ التعبير: ولذا تُقذف هذه الغرائز بالذات وتُستهجن أيما استهجان. إنّ الروحية العالية المستقلّة، وإرادة الوقوف بانفراد، والعقل الكبير، كلّ هذا يُحسب في حدّ ذاته خطراً؛ كلّ ما يسمو بالفرد عن القطيع، كلّ ما يبثّ الخوف إلى القريب، يُسمّى منذ الآن شريراً؛ أما عقليّة مَن يُنصِف ويتواضع ويساوي بين ذاته والغير وينضمّ إلى صفّهم، إلى الاعتدال في الرغبات، فينال سمعةً طيبة وأمجاداً أخلاقية. وأخيراً، وفي الأحوال السلمية جداً، تتناقص باستمرار فرصةُ أنْ يربّي المرء شعوره على الصرامة والقساوة ويتناقص وجوبُ ذلك وتبدأ إذ ذاك أي صرامة، وحتى الصرامة في العدل، بإزعاج الضمير؛ ويكاد يكون علوّ النبل

وقسوته والمسؤولية الذاتية، إهانةً ومدعاة للارتياب، أما الاحترام فهو من نصيب «الحمل»، بل «الخروف» بالأحرى. وثمة في تاريخ المجتمع نقطة ترهّلٍ وتراخٍ مَرَضيّ يتحزّب عندها المجتمع، بجدّية وصدق، حتّى لمَن يضرّ به، للمجرم؛ فيبدو له إنزال العقاب غير منصف من ناحية ما، ـ والمؤكّد أنّ تصور «العقاب» و«وجوب إنزال العقاب» يسبّب له الألم والخوف. «ألا يكفي أنْ يُبطَل خطر المجرم؟ لِمَ العقاب أيضاً؟ العقاب في حدّ ذاته مريع!». بهذا السؤال تبلغ أخلاق القطيع، أخلاق المخافة، ذروة عواقبها. ولو أمكن، فرضاً، إلغاء الخطر وسبب الخوف بعامة، لألغينا بذلك هذه الأخلاق أيضاً: لكفّت عن كونها ضرورية، ولكفّت عن حسبان نفسها ضرورية! إنّ من يتقصّى وجدان الأوروبي الحاضر سيستمد دائماً، من آلاف التلافيف والمخابىء الأخلاقية، «الأمر» نفسه، «أمر» مخافة القطيع: «نريد أنْ لا يعود يوجد أي شيء يبعث على الخوف، في يوم من الأيام!». في يوم من الأيام ـ أما الإرادة والطريق المؤدية إلى هناك فتسمُّى اليوم، في كلّ أنحاء أوروبا، «التقدم».

202

التيار المضاد للفردية: ـ لنسارع مرة أخرى إلى قول ما سبق أنْ قلناه للمرّة المئة: لأنّ الآذان ليست حسنة النية ولا صاغية اليوم لحقائق من هذا النوع. لحقائقنا. نحن نعلم حقّ العلم مدى الشعور بالمهانة الناجم عن حسبان الإنسان بعامة، ومن دون تورية أو مجاز، من بين الحيوانات؛ أما ما سيُحسب علينا بمثابة إثم أو شبه إثم، فهو أنْ نستعمل من دون انقطاع بصدد أصحاب «الأفكار

الحديثة» بالذات، ألفاظ كـ «القطيع» و«فِطر القطيع» وإلى ما هنالك: لكن، ليس باليد حيلة! ولا يمكن لنا أنْ نفعل غير ذلك: إذ هنا بالذات تكمن رؤيتُنا الجديدة. لقد وجدنا أنّ أوروبا، وأيضاً البلدان الخاضعة لنفوذ أوروبا، قد أجمعت على كلّ الأحكام الأخلاقيّة الرئيسية: فالظاهر أنهم في أوروبا يعلمون ما ظنّ سقراط أنّه لا يَعلَمه وما وعدَتْ بتعليمه آنذاك تلك الأفعى العتيقة الشهيرة، ـ «يعلمون» اليوم ما هو الخير والشر. ولذا يقع اصرارنا ولا بدّ، وقعاً قاسياً وسيّئاً على الأذن حين نردّد من جديد: إنّ مَن يعتقد هنا أنّه يعلم ومن يمجّد نفسه هنا بمدحه وقدحه معاً ويسمّي نفسه خيّراً، هو فطرة حيوان القطيع/ الإنسان: فطرة اخترقت وغلبت سائر الفِطَر وسيطرت عليها ولا تزال تتزايد، وفقاً للتقارب والتماثل الفيزيولوجي المتنامي، وهي عارض من عوارضه. إن الأخلاق في أوروبا اليوم هي أخلاق حيوان القطيع: مما يعني، على حسب فهمنا للأمور، أنها مجرد ضرب واحد من ضروب الأخلاق الإنسانية، يمكن أنْ يكون، أو يجب أنْ يكون، في جوارها وأمامها وورائها أنماط أخلاق أخرى عديدة، وقبل كل شيء، أخلاق أعلى. غير أنّ هذه الأخلاق تناوىء بكلّ قواها «إمكاناً» و«وجوباً» من هذا النوع: إنّها تقول بعناد وإصرار «أنا الأخلاق بعينها ولا شيء سواي أخلاق!». وبفضل دين ظلّ يداهن أرفع رغبات حيوان القطيع حتى صار طوع إرادتها، وصل الأمر إلى حدّ تحوّل المؤسسات الاجتماعية والسياسية نفسها إلى تعبير متزايد الوضوح عن هذه الأخلاق: إنّ الحركة الديموقراطية هي وريث المسيحية. لكنّ سرعتها أبطأ وأكثر نعاساً بكثير مما يناسب قليليّ الصبر، أي المرضى المدمنين على الفطرة المذكورة، على ما يتبيّن من عواء الكلاب الفوضويين الذين يتجوّلون الآن في

أزقّة الحضارة الأوروبية المتزايد سعاراً باستمرار، وتكثيرهم المتزايد علانيةً باستمرار: وهم يبدون في الظاهر نقيض الديموقراطيين الشغّالين المسالمين وإيديولوجييّ الثورات وعلى أشدّ أيضاً، نقيض المتفلسفين المغفّلين وغلاة الأخوّة الذين يسمّون أنفسهم اشتراكيّين ويريدون «المجتمع الحرّ»، إلّا أنهم، في الحقيقة، متّفقون معهم جميعاً على العداء الجذريّ والفطريّ لكلّ نمط اجتماعي غير نمط القطيع المستقلّ (وصولاً إلى رفض أفهومي «السيد» و«الخادم»؛ «لا إله ولا سيد»[1] يقول شعار إشتراكيّ)؛ ومتّفقون على التّصدي العنيد لكلّ خصوصيّة في المطلب والحقّ والامتياز (وهذا يعني، في قعر قعره، التصدّي لكلّ حقّ: إذ عندما يتساوى الكل، لا يعود أحد بحاجة إلى «حقوق».)؛ متّفقون على التشكيك في العدالة الجزائية (كما لو أنّها اغتصاب للأضعف وظلم بحقّ ما نتج بالضرورة عن كل المجتمع السابق)؛ لكن، متّفقون كذلك على دين التراحم، وعلى الإشفاق على كلّ مَن شعر وعاش وعانى (نزولاً إلى الحيوان وطلوعاً إلى «الله»: إن صرعة «الإشفاق على الله» تنتمي إلى العصر الديموقراطي)؛ ومتّفقون بقضّهم وقضيضهم على صرخة التراحم النافدة الصبر، على المقت المميت للألم بعامّة وعلى العجز شبه الأنثوي عن المكوث في التفرّج وترك الألم يأخذ مجراه؛ متّفقون على التقتيم والتوهين القسريّين اللذين تبدو أوروبا في ظل سحرهما الآسر مهدّدة ببوذية جديدة؛ متّفقون على الإيمان بأخلاق التراحم المشترك، كما لو أنّها الأخلاق في ذاتها، بوصفها ذروة الإنسان، الذروة التي تم بلوغها، والأمل الوحيد

---

(1) «Ni dieu, ni maître».

للمستقبل، والدواء المعزّي للحاضرين والتكفير الكبير عن كلّ ذنوب الماضي: متّفقون جميعاً على الإيمان بالجماعة مخلِّصة، بالقطيع إذن وبـ «أنفسهم»...

203

البشرية المقبلة وأسلافها: ـ أما نحن، نحن الذين ندين بغير دين، نحن الذين لا نعدّ الحركة الديموقراطية صورةً من صور الانحطاط في التنظيم السياسي وحسب، بل صورة انحطاط الإنسان، صورة تصغّره، تجعله وسطيّاً وتحطّ من قيمته: فإلى أين يجب أن نتّجه [نحن] بآمالنا؟ إلى فلاسفة جدد، وليس لنا خيار آخر؛ إلى أرواح، أقوياء وأصليّين إلى حدٍ يمكّنهم من أنْ يدفعوا التقييمات نحو وجهة معاكسة، ويعيدوا تقييم «القيم الخالدة» ويقلبوها؛ إلى روّاد، وأناس للمستقبل يعقدون في الحاضر العقدة القاهرة التي تجبر إرادة الآلاف من السنين على السير في مسارات جديدة، فمن أجل تعليم الإنسان بأنّ مستقبل الإنسان هو طوع إرادته، وأنّه متوقّف على إرادة إنسانية، ومن أجل التحضير لمجازفات كبيرة وتجاريب شاملة، في التأديب والتربية، تضع حداً لسيطرة الحمق والمصادفة المريعة تلك التي سُميّت حتى الآن «تاريخاً» ـ وحمق «العدد الأكبر» ليس سوى شكله الأخير ـ: من أجل ذلك سيكون، ذات يوم، بنا حاجة إلى ضرب جديد من الفلاسفة والآمرين، حاجة إلى مَن أمام صورته سيبدو كل ما قد حضر على الأرض من أرواح خفيّة ومرعبة وحسنة النية، باهتاً تافهاً. إنها لصورة قادة من مثل هذا النوع، تلك التي تلوح أمام أعيننا نحن: ـ هل لي أن أقوله عالياً؟ يا أحرار الروح إنّ خلْق

الظروف المناسبة لولادتهم من جهة واستثمارها من جهة أخرى؛ واختبار الطرق التي نظنّها صالحة لتنمية النفس وإكسابها علوّاً وجبروتاً يشعرها بإلزاميّة هذه المهام؛ وإنّ قلباً للقيم يحوّل بفعل جديد ضغطه ومطرقته، الضميرَ إلى حجر والقلبَ إلى معدن، كي يتحمّلا ثقل مسؤولية كهذه؛ ومن جهة أخرى، إنّ ضرورة قادة من ذلك النوع، والخطر المفزع الناجم عن أنّهم قد لا يحضرون أو قد ينحرفون وينحطّون ـ إنّ تلك هي همومنا وغمومنا الحقيقية، وأنتم تعلمون يا أحرار الروح؟ تلك هي الأفكار النائية والبروق والرعود المثقلة التي تجوب سماء حياتنا. وقليلة هي الآلام التي تضاهي ألم مَن رأى وحزر وشعر ذات مرة، كيف انجرف إنسان خارق عن مساره وانحطّ: لكن، مَن له العين النادرة المبصرةُ مجملَ الخطر، خطر انحطاط «الإنسان» نفسه، مَن يعرف، مثلنا، المصادفة الهائلة التي قد لعبت حتى الآن بالنظر إلى مستقبل الإنسان لعبتها ـ لعبة لا دور فيها ليد الله ولا حتى «لأصبعه»! ـ مَن يحزر القدر المهلِك الكامن في «الأفكار الحديثة» بسذاجتها العمياء البلهاء، وعلى نحو أشدّ أيضاً، في كلّ الأخلاق الأوروبية المسيحية: [من له العين النادرة] يعاني من قلق لا نظير له، ـ فهو يبصر بنظرة واحدة كلّ ما بوسع تربية الإنسان أن تحقّق بعد، إنْ توافر لها حشد وتفعيل سخيّ للقوى والمهامّ؛ وهو من يعلم في عمق وجدانه كيف أنّ الإنسان ما زال ينتظر استنفاد أكبر إمكاناته، وكم مرّة وقف الطراز المسمّى إنساناً على مفترق دروب جديدة وقرارات تلفّها الأسرار؛ وهو مَن يعلم، على نحو أفضل أيضاً، بفضل ذكراه الأوجع، ما هي الأمور الحقيرة التي حطّمت وكسّرت وذلّلت وحقّرت، بعامة وحتى الآن، كائناً معدّاً لأعلى مرتبة. إنّ انحطاط الإنسان الشامل نزولاً إلى ما يبدو للمغفّلين الاشتراكيين

والعقول المسطّحة اليوم «إنسان المستقبل» الخاص بهم ـ أمثلهم ـ إنّ انحطاط الإنسان هذا وتصغيره ليصير حيوان قطيع بالتّمام (أو كما يقولون، إنسان «المجتمع الحر»)، إنَّ حَيْوَنة الإنسان هذه ليصير قزمَ حيوان ذا حقوق ومطالب متساوية، هو أمر ممكن لا شكّ في ذلك!. إنّ مَن يفكّر هذا الإمكان مرةً إلى حدّه الأقصى، يتعرّف إلى قرف جديد زائد عن قرف سائر البشر، ـ ولعلّه يتعرّف أيضاً إلى مهمّة جديدة!...

الفصل السادس

نحن العلماء

204

العلماء يغتصبون عرش الفلسفة: مع أنّ الوعظ الأخلاقي قد يبدو هنا أيضاً كما كان دائماً ـ أعني إصراراً لا يكلّ على إظهار الجروح الشخصية[1]، على حد قول بالزاك ـ، فإني سأخاطر، مهملاً هذا الحرج، بالتصدّي لتبديل مضرّ وغير لائق، يجنح اليوم من دون أن يدري أحد وبكل حسن نيةٍ، إلى الاستقرار، عنيتُ إلى تبديل الرتب بين العلم والفلسفة. وأحسب أنّ تجربة المرء، ـ ويخيل إليّ أن التجربة تعني دائماً تجربة رديئة؟ ـ تؤهّله لأن يدلي بقوله بصدد مسألة عليا كهذه تدور حول الرتب: فلا يتكلّم على اللون كالعميان، أو ضد العلم كالنساء والفنانين (الذين يتنهّد حياؤهم وفطرتهم: «يا للعلم الخبيث! إنه يكشف دائماً ما وراء الأكمة»). إنّ واحداً من ألطف آثار «تكوّن وفساد» الديموقراطية

(1) Montrer ses plaies.

هو إعلان استقلال الإنسان العِلمي وتحرّره من الفلسفة: فتكبّر العالِم وصلفُه هما اليوم، أينما كان، في ريعان الربيع وكامل الازدهار ـ من دون أن يعني ذلك أنّ مدح الذات يفوح زكياً. «التحرّر من كلّ الأسياد»! هكذا تريد هنا أيضاً فِطرة الرعاع؛ فبعد نجاة العِلم ببراعة من اللاهوتيّة التي ظلّ «خادماً» لها لفترة طويلة جدّاً، نراه الآن يطمح بكلّ بطره وحمْقه إلى أنْ يكون مشرِّعاً للفلسفة فيلعب، هو الآخر، مرّةً دور «السيّد» ـ ماذا أقول! ـ دور الفيلسوف. إنّ ذاكرتي ـ وهي ذاكرة إنسانٍ علمي، بلا مؤاخذة! ـ تعجّ بآراء ساذجة وصلفة في الفلسفة والفلاسفة، سمعتُها على لسان علماء طبيعة شبّان وعن أطبّاء عجائز (من دون ذكر أكثر العلماء قاطبة غروراً وتعلّماً، أي فقهاء اللغة والمدرّسين الذين لهم الصفتان بالحرفة). وقد كنتُ أصادف حيناً الاختصاصي الذي ينزوي في ركن من أركان العِلم، ويتصدّى فطرياً لكلّ مهامّ التأليف ومواهبه بعامة، وحيناً آخر العامل المجتهد الذي اشتمّ بعضاً من التبطّل[1] والبذخ في مؤونة نفس الفيلسوف فأحسّ نفسه ذليلاً ومصغراً. وبدت لي تارةً عشاوة النفعيّ الذي لا يرى في الفلسفة سوى سلسلة من أنساق دُحضت، وجهدٍ مسرف «لا يجدي خيراً» لأحد. وبرز طوراً التوجّس من الصوفيّة المقنّعة ومن التصويب لحدود المعرفة. وتارة أخرى الإحتقار لبعض الفلاسفة الذي تعمّم لاإرادياً ليكون احتقاراً للفلسفة. وتبيّنتُ أخيراً، وفي أغلب الأحيان، لدى العلماء الشبّان ووراء ازدرائهم الصلف للفلسفة، سوء التأثّر بفيلسوف بعينه جرى الخروج عن طاعته من دون أنْ يجري التخلّص من تثريبه على الفلاسفة الآخرين: أما

---

(1) Otium.

الحصيلة فامتعاض شامل من الفلسفة بأسرها. (وعلى هذا النحو يبدو لي، على سبيل المثال، أثر شوبنهاور على ألمانيا الحديثة: إنّ غيظه الأحمق من هيغل أدّى به إلى حلّ الترابط بين الجيل الألماني الأخير كلّه والحضارة الألمانية التي كانت، إنْ قدّرها المرء في مجملها حقّ التقدير، بمثابة ذروة للحاسّة التاريخية وصقل للتكهّن التاريخي. لكنّ شوبنهاور عينه كان في هذا الموضع بالذات، فقيراً ولاحسّاساً ولاألمانياً إلى حدّ العبقرية). وعند التقييم الإجمالي أقول: إنّ ما أضرّ، على ما يبدو، بمهابة الفلسفة، من القعر فصاعداً، وفتح الأبواب لفطرة الرعاع هو، قبل كل شيء، الإنسانيّ، المفرط في الإنسانيّة، وبكلمة، بؤس الفلاسفة الجدد عينه. ولنعترف على كلّ حال بأنّ عالمنا الحديث يفتقر أيّما افتقار إلى نبوغ أمثال هيراقليطس وأفلاطون وأمباذقليس وأيّ اسم من كلّ نسّاك الروح الملكيين الرائعين أولئك؛ وبأنّ للإنسان العلمي الصالح الحقَّ كلّ الحق في أنْ يحسّ نفسه أفضل حسباً ونسباً من أولئك الممثّلين للفلسفة الذين يتسنّمون القمة اليوم بفضل الموضة مع أنهم سقطوا من العين. وفي ألمانيا، وعلى سبيل المثال، أسدا برْلين، أوغن دورينغ الفوضوي وإدوارد فون هارتمان التلفيقي... إنّ منظر أولئك الفلاسفة الذين يخلطون ويلفّقون ويسمّون أنفسهم «فلاسفة الواقع» أو «الوضعيّين» هو الذي يزرع الارتياب الخطر في نفس العالِم الشاب الطموح: هؤلاء هم أيضاً، وفي أحسن الأحوال، علماء واختصاصيون، والأمر يُلمس لمس اليد!. وهم جميعاً معشر مغلوب على أمره أعيد انضواؤه تحت لواء العِلم، معشر مَن طالب نفسه ذات يوم بأكثر، من دون أنْ يكون له الحقّ في هذا «الأكثر» وفي المسؤولية المترتّبة عليه. معشر من يمثّل الآن، قولاً وفعلاً، بوقار وغيظ وحبّ في

الانتقام، اللا-إيمان بسيادة الفلسفة ومهمتها السيّدة. وفي النهاية: كيف يمكن للأمر أن يكون على غير ذلك؟ إنّ العلم يزدهر اليوم ويتباهى بضمير مرتاح في حين أنّ ما انحطّت اليه كلّ الفلسفة الحديثة شيئاً فشيئاً، أي هذه البقية الباقية من الفلسفة اليوم، بات يثير الارتياب والضجر، إنْ لم يثر التهكّم والشفقة. إنّ فلسفة مختزلة إلى «نظريّة للمعرفة»، وفي الواقع إلى مجرد إيپوخية[1] وامتناعية خجولة: وفلسفة لا تعبر العتبة البتة وتحرم نفسها بحرجِ الحقَّ في الدخول ـ هي فلسفة تلفظ أنفاسها الأخيرة، هي نهايةٌ واحتضار وشيء ما يستدرّ الشفقة. فكيف يمكن لفلسفة من هذا القبيل... أنْ تسود!

205

في نشأة كبار المرشدين إلى طريق الحضارة وغايتها: إن الأخطار التي تهدّد اليوم تطوّر الفيلسوف متعدّدة إلى حدّ يحمل على الشك في ما إن كان يمكن بعد لهذه الثمرة أنْ تنضج. لقد توسّعت العلوم وارتفعت لتشبه بناء برج شاهق، فتعاظم احتمال أن يشعر الفيلسوف بالإعياء أثناء التعلّم، فيركن إلى مستقرّ ما «ويتخصّص»، بحيث لا يعود بوسعه البتّة أنْ يبلغ إلى أوجه، أعني إلى نظرة شاملة تبصر ما حولها وتطلّ من حالقٍ إلى أسفل. ومن المحتمل أيضاً أنْ يبلغ الأوج متأخراً، حين يكون قد ولّى أفضل عمره وقوته أيضاً؛ أو أنْ يبلغه معطوباً ومحقّراً ومنحطّاً، بحيث لا يعود لنظره ولمجمل تقييمه دلالة كبيرة. وقد يحثّه رهف وجدانه

(1) Epochistik: مذهب تعليق الحكم.

العقلاني بالذات على أنْ يتمهّل في الطريق ويتلكّأ؛ ذلك أنه يخشى الاغترار والتحوّل هاوياً لا يُتقن شيئاً ومدّعياً أشبه بحشرة بألف قائمة ومجسّ؛ إنه يعلم تمام العلم أن ذاك الذي لم يعد يحترم نفسه لا يعود يأمر ويقود، حتى لو كان عارفاً: إلّا إذا أراد أنْ يصبح ممثلاً كبيراً، كاغليوسْترو[1] في الفلسفة، وصيّاداً للأرواح، وباختصار غاوياً. وهذه مسألة تعود في النهاية إلى الذوق، إنْ لم تعد إلى الوجدان بعينه. وما يضاعف حرج الفيلسوف هو أنه يطالب نفسه بالحكم، بنعم أو بلا، ليس في العلوم، بل في الحياة وقيمة الحياة، وأنّه يتعلّم من دون سرور أنْ يؤمن بحقّه بل بواجبه في إصدار هذا الحكم، وأنه يضطرّ إلى أنْ يلتمس طريقه إلى ذلك الحقّ وذلك الإيمان، متردّداً ومتشكّكاً وصامتاً في الغالب، بل بعد المرور بأوسع تجارب العيش وحسب، أي بأشدّها إزعاجاً وسحقاً ربّما. ولقد أخطأت العامة فعلاً لمدة طويلة في تقدير الفيلسوف وخلطت بينه وبين الإنسان العلمي والعالِم المثالي حيناً، وبينه وبين «الزاهد» المهووس المتبتّل إلى الله والسكران به حيناً آخر؛ وحين تسمع اليوم إطراء يقول إن أحدهم يعيش «فيلسوفاً» أو «بحكمة»، فإنّ هذا لا يعني أو يكاد، أكثر من أنه «رشيد ومنعزل». فالحكمة تبدو للرعاع نوعاً من الفرار، وسيلةً وحيلةً للتملّص بحنكة من اللعبة الرديئة؛ لكنّ الفيلسوف الحقّ، هكذا يبدو لنا، أليس كذلك يا أصدقائي؟، يعيش «لا فلسفياً» و«لاحكيماً» وبخاصة لا-رشيداً، ويحسّ بوزر وواجب أنْ يخوض في الحياة مئات التجاريب والتجارب: يخاطر بنفسه من دون انقطاع، ويلعب الـ لعبة الرديئة بامتياز. . . .

---

(1) Cagliostro.

206

رتبة العالِم: بالنسبة إلى عبقري، أي إلى كائن يخصّب أو يولّد مع أخذ اللفظين في أقصى معناهما، يظل العالِم، والإنسان العِلمي المتوسّط، أشبه بالعانس أبداً: ذلك أنه لا يُتقن، شأنه شأنها، أكثر وظيفتيْ الإنسان قيمةً. ويقرّ المرء، بالفعل، للاثنين، للعلماء والعوانس، بالاستقامة كنوع من التعويض. بل يصرّ بصددهما على الاستقامة. ويحصد مع إقراره اللاطوعي هذا قدراً مماثلاً من الامتعاض. فلنمعن النظر إذن: ما الإنسان العِلميّ؟ إنّه لأوّل وهلة، من ضرب بشري عاميّ يتمتّع بفضائل الضرب العامي الذي ليس سيّداً ولا متسلّطاً ولا مكتفياً بذاته أيضاً: يتمتّع بالاجتهاد في العمل، بجدِّ الانتظام في الخطّ والصفّ. بالثبات والاعتدال في القدرة والحاجة، بفطرة تدلّه إلى أمثاله وإلى احتياجاتهم، إلى قدرٍ من الاستقلال، على سبيل المثال، وإلى مرعى أخضر من دونه لا طمأنينة في العمل. بذاك الطمع بالشرف والاعتبار (الذي يفترض بدءاً معتَرفاً به ومعترِفاً). بذلك الإشعاع النيّر لحسن الصيت، وذاك الإقرار المتجدّد بقيمة المرء وفائدته الذي لا بدَّ منه للقضاء، المرة تلو المرة، على الارتياب الدفين في صميم قلوب كلّ الناس التابعين وكلّ حيوانات القطيع. وللعالِم أيضاً، يا للإنصاف!، عاهات الضرب العاميّ وعيوبه: إنه ينضح بالحسد الصغير وله عين ثاقبة لكشف ما هو وضيع لدى تلك السجايا التي تُعجزه أعاليها. إنه أليف، لكنْ، كذاك الذي يسمح لنفسه بالاسترسال وحسب وليس بالتدفّق؛ وأمام إنسان التدفّق الكبير بالذات يتسمّر بارداً ومنغلقاً، وتشبه عينه عندئذٍ بحيرةً ملساء نفوراً لا تعود تتجعّد على سطحها تموّجات البهجة

والعطف. إنّ أردأ وأخطر ما يقدر عليه العالِم مستمدّ من فطرة الوسطيّة التي لضربه: من يسوعيّة وسطيّة تلك التي تعمل فطرياً على تحطيم الإنسان الخارق وتسعى إلى كسر كلّ قوس مشدود ـ بل بالأحرى! ـ إلى إرخاء شَدَّته. ذلك أنّ إرخاء شَدَّة القوس، برفق وبيد مهاودة طبعاً، ـ إرخاء الشَّدّة برحمة أليفة: هو الفنّ الحقيقي لليسوعية التي أحسنت دائماً تقديم نفسها على أنها دين التراحم.

207

قيمة الموضوعية ولا قيمتها: مهما بلغ الامتنان الذي يكنّه المرء للروح الموضوعي ـ ومَن منا لم يسأم، ولو مرةً سأماً قاتلاً من كلّ الذاتي ومن أنوِيّته[1] الممقوتة! ـ فعليه في النهاية، أنْ يتعلّم الارتياب في امتنانه أيضاً، وأنْ يلجم الإسراف في تجريد الروح من ذاتيّته وهويّته، وهو أمر يُشادُ به مؤخّراً وكأنه غاية في ذاته وخلاص وتسام وأمر اعتادت عليه بخاصة مدرسة المتشائمين التي لها، من دون شك، أسبابها الوجيهة لتمجّد «المعرفة المنزّهة عن الغرض» أكبر تمجيد. إنّ الإنسان الموضوعي الذي لم يعد يسبّ وينهر كالمتشائم، إن العالِم الأمثل الذي تبلغ فيه الفطرة العلميّة مرةً ازدهارها ونضجها، وبعد آلاف المحاولات الفاشلة جزئياً أو كلياً، هو بكلّ تأكيد أداة من أثمن الأدوات المتوفّرة: لكنّه ينتمي إلى يد من هو أكثر قُدْرة. إنّه مجرد أداة، ولنقل: إنّه مرآة، وليس «غاية في ذاته». والإنسان الموضوعي مرآة فعلاً:

(1) Ipsissimosität، من الأنا.

متعوّد على الرضوخ لكلّ شيء يريد أنْ يُعرف، ومن دون أيّ لذّة غير تلك التي يمنحها فعل العَرْف و«العَكْس»(*)، ـ إنّه يترقب إقبال شيء ما ويضطجع من ثمّ بنعومة، لِئلاّ يضيّع أيّ أثر من آثار أقدام خفيفة أو من انزلاق كائناتٍ تشبه الأشباح على سطحه وإهابه. وإنّ ما بقي فيه من «شخصه» يبدو له عرضياً، وفي الغالب اعتباطياً، وفي الأعم الأغلب مزعجاً: إلى هذا الحدّ صار أمام ذاته ممرّاً وانعكاساً باهتاً لهيئات وأحداث غريبة. إنّه يتفكّر في «ذاته» بشقّ النفس. والخطأ نادراً ما لا يحالفه، إنّه يستسهل الخلط بين نفسه وغيره. يخطىء بالنظر إلى حاجاته الخاصة، وهنا وحسب نراه مهملاً ومبتذلاً. وربما عانى من حاله الصحيّة أو تفاهة المرأة والصديق وجوّهما الخانق. أو من نقص في الألّاف والألفة. نعم، إنّه يجبر نفسه على التفكير في معاناته: لكن، عبثاً! سرعان ما ينتقل فكره إلى حالة أكثر عموماً. والغد لن يزيده علماً. سيبقى، كما كان بالأمس، جاهلاً دواءه. لقد نسي كيف يحمل نفسه على محمل الجِدّ ولم يعد لديه الوقت: إنّه منشرح، لا لافتقاره إلى الشقاء، بل لافتقاره إلى أصابع لمداواة شقائه. وتساهله المعهود مع كلّ شيء وكلّ حدث، وضيافته المشرقة الساذجة التي يقبل بها كلّ ما يصادف، وطبعه المتصف بلطفٍ لا هوادة فيه ولامبالاةٍ خطرة لا تحفل بالنعم واللا: أوه، كم تكثر الحالات التي يدفع فيها غالياً ثمن فضائله هذه!. وهو، كإنسان بعامّة، يتحوّل بسهولة فائقة سِقْطاً[1] لهذه الفضائل. وإذا أراد أحدهم حبّه أو كرهه ـ وأعني الحبّ والكره كما يفهمهما الله

(*) بمعنى أنّ صور الأشياء تنعكس فيه كما تنعكس في مرآة.

(1) Caput mortuum.

والمرأة والحيوان، فإنّه سيفعل ما بوسعه وسيعطي ما باستطاعته. لكنّه يجدر بالمرء ألّا يستغرب إن كانت الحصيلة ضعيفة، ـ أي إن ظهر العالِم، هنا بالذات، زائفاً وهشّاً ومريباً ورخو العود. فحبّه متكلَّف وكرهه متصنَّع وأشبه بتعنّت وتعجرف ومغالاة. ذلك أنَّه أصيل وحسب عندما يُسمح له بأنْ يكون موضوعياً: في شموليته المرحة هذه وحسب يكون «طبيعة» و«طبيعياً». ونفسُه التي تملس أبداً كالمرآة لم تعد تعرف الإثبات ولا النفي؛ إنّه لا يأمر ولا يهدم أيضاً، بل يقول مع لايْبنِتس: «لا أحتقر أي شيء تقريباً»[1]: وإيّاكم أنْ تتغاضوا عن الـ «تقريباً» وتقلّلوا منه: فالعالِم أيضاً ليس نموذجاً يُحتذى، فهو لا يسبق أحداً ولا يتبع أحداً؛ ويقف بعامة أبعد من أنْ يضطرّ إلى التحزّب للخير والشر. وإذا ما خلط المرء، لمدة طويلة جداً، بينه وبين الفيلسوف، المربّي القيصريّ وجبّار الحضارة ذاك، يكون قد أضفى عليه مجداً أعلى مما يستحق وتغاضى عن الجوهريّ فيه. إنّه أداة وعبد، وإنْ كان، بلا شك، أسمى أنواع العبيد، لكنّه في ذاته لا شيء، ـ لا شيء تقريباً! إن الإنسان الموضوعي أداة، أداةُ قياسٍ وتحفةُ مرآةٍ ثمينة سهلة العطب والتعكّر، تحفة تستوجب الرفق والاحترام. لكنّه ليس هدفاً، ليس نهاية ومخرجاً، ليس إنساناً تتمة يُبرّر به سائر الوجود، ليس ختاماً. ولا بأي حال بداية وولادة وعلّة أولى، ليس شِدّة ولا قُدْرة ولا ركوناً إلى النفس وإرادة للسيادة: بل إنه بالأحرى مجرّد وعاء ناعم، منفوخ دقيق متحرّك، وعاء عليه أنْ ينتظر بدءاً محتوىً ما ومغزىً ما لـ «يتشكّل» وفقاً له... وهو

---

(1) «Je ne méprise presque rien».

عادة إنسان لا محتوى ولا مغزى له، إنسان «بلا ذات»، وبالتالي أيضاً، وهذا بين هلالين، لا نفع فيه للنسوة.

208

سقم الإرادة الأوروبية وتعبيره الروحي: حين يُفهم من فيلسوف ما اليوم أنّه ليس ريبياً ـ وآمل أنْ يكون المرء قد استشفّ هذا من تفنيدي الآنف للروح الموضوعي ـ ينفر العالَم كلّه من سماعه؛ فينظر إليه ببعض توجّس، وتحوم حوله أسئلة كثيرة... بل يُعدّ أثر ذلك خطراً عند متنصّتين وجلين يكثر عددهم الآن. ويتوهّم هؤلاء في رفضه للريبية صدى بعيداً لدويّ منذرٍ شرير، كما لو أنّ مادة متفجّرة جديدة، ديناميتاً للروح، تجرَّب في مكان ما، كما لو أنّه أعيد اكتشاف نيهيلين[1] روسي، تشاؤم حسن النيّة[2]، تشاؤم لا يقول «لا» ولا يريد «لا» وحسب، بل ـ ويا لهول الفكرة! ـ يفعل «لا». لمداواة هذا الضرب من النيّة الحسنة، وهي نيّة لنفي الحياة نفياً حقيقياً وفعلياً، لا يوجد اليوم، باعتراف الجميع، دواء منوّم ومسكّن أفضل من الريبيّة، من خشخاش الريبيّة العذب، الوديع، المهدْهِد. ولا يتردّد الأطباء اليوم في وصف هاملِت بعينه علاجاً للعصر ضدّ «الروح» وضجيجه تحت الأرض. ويقول الرْيبي بوصفه صديقاً للهدوء يكاد يمثّل نوعاً من شرطة الأمن: «ألا يكفي آذاننا ما تسمع من أصوات لا تنذر بالخير؟ هذا الـ لا الذي يدوّي من تحت الأرض مريع! كفاكِ زمجرة، أيتها المناجذ المتشائمة!».

---

(1) Nihilin: عدمية.

(2) Bonnae voluntatis: حرفيّاً، حسن الإرادة.

ذلك أنّ الريبيّ، هذا المخلوق الرقيق، يفزع بسهولة فائقة؛ ضميره مدرّب على أنْ يرتعد عند كل «لا» بل عند كل «نعم» حاسم وقاسٍ أيضاً فيحسّ بما يشبه العضّة. نعم! ولا!. هذا ينافي أخلاقه؛ وعلى العكس يحبّ [الريبي] أنْ يقيم لفضيلته حفلةً بالامتناع النبيل، إذ يقول مع مونتاني مثلاً: «ماذا أعرف؟» أو مع سقراط: «أعرف أني لا أعرف شيئاً». أو: «هنا لا أجازف، هنا لا يُفتح لي أي باب». أو: «هب أنه مفتوح، لِمَ الإسراع في الدخول!» أو: «ما نفع كلّ الفروض؟ قد يكون من حسن الذوق عدم إقامة أيّ فروض. هل عليكم أنْ تقوّموا بأي ثمنٍ كلَّ معوجّ؟ وأنْ تملؤوا بحشوة ما كلّ ثغرة؟ لِمَ العجلة؟ أليس لكلّ آن أوان؟ فيا أيّها الشطّار، ألا يمكنكم الانتظار؟ إنّ للمبهم أيضاً مفاتنه، والسفينكس أيضاً تسيرتسه[1]، وتسيرتسه كانت أيضاً فيلسوفة»... هكذا يتعزّى الريبي؛ والحق يقال إنّ به حاجة إلى بعض العزاء. ذلك أنّ الريبية هي التعبير الأكثر روحية عن قوام فزيولوجي معين ومتعدّد يسمّى في اللغة العامية ضعفاً عصبياً وسقماً؛ وهو يتولّد كلّ مرة تختلط فيها، على نحو حاسم وفجائي، أعراق وطبقات ظلّت طويلاً معزولة بعضها عن بعض. فينشأ جيل جديد توارث مقاييس وقيماً متباينة تسري في دمه، إن صحّ التعبير، وتجعل كلّ شيء فيه قلَقاً واضطراباً وشكّاً وتجريباً؛ وتفعل فيه أفضل القوى فعلاً عائقاً، وتمنع الفضائل نفسها بعضها بعضاً عن النمو والتعزّز، وتفتقر النفس والبدن إلى التوازن والثقل والأمن العمودي. لكن، أكثر ما يصاب عند أولئك الهجناء بالسقم والانحطاط هو الإرادة: إنّهم لا يعودون يعرفون البتّة الاستقلال في القرار والشعور

(1) Circe: ساحرة شهيرة في الميثولوجيا اليونانية.

الشجاع باللذة في الـ يُريد، ـ إنّهم يشكّون في «حرية الإرادة» حتّى في أحلامهم. فقارتنا الأوروبية الحاضرة، وهي مسرح تجريب فجائي باطلٍ لخلط الطبقات، وتالياً لخلط الأعراق خلطاً جذرياً، هي من جراء ذلك ريبيّة من أغوارها إلى قممها، [فتتلوّن] تارةً بتلك الريبية المتحرّكة التي تقفز قلقةً شبقةً من غصن إلى آخر، وطوراً [بريبية] خاملة مثل غيمة ناضجة بعلامات الإستفهام، وقد بلغ السأم من إرادتها حدّ الموت! شلل الإرادة: أين لا نرى هذا المسيخ قابعاً اليوم! وبأي زينة يتزيّن في الغالب! وبأي تبرّج مغرٍ! ثمة ثياب من الزور والتزويق ولا أجمل، تزيّن هذا الداء. إنّ أغلب ما يُعرض اليوم في الواجهات، من «موضوعية» و«علمية» و«فن للفن» و«معرفة صرفة منزّهة عن الإرادة»، على سبيل المثال، هو مجرّد ريبية مزيّنة وشلل إرادة مزوّق، ـ هذا تشخيص للداء الأوروبي لا أتردّد في الدفاع عنه... في أوروبا ينتشر سقم الإرادة على نحو متفاوت. فهو يبرز حيث استقرّت الحضارة منذ زمن طويل في كامل حجمه وتعدّده، ويتوارى بقدر ما لا يزال ـ أو بقدر ما عاد ـ يلوح «البربري»، تحت الثوب المهلهل لثقافة بلاد الغرب، مطالباً بحقّه. وهكذا يمكن أنْ نستنتج بسهولة، مثلما يمكن أنْ نتلمّس لمس اليد، أن الإرادة مصابة بأشدّ سقم في فرنسا الحالية؛ وفرنسا التي تمتّعت دائماً بمهارة رائعة في قلب أوخم التواءات روحها إلى شيء فاتن ومغرٍ، ترينا اليوم، بوصفها مدرسةً وعارضةً حقيقية لسحر الريبيّة كلّه، تفوّقها الحضاري على أوروبا. أما في ألمانيا فتتفوق قليلاً قوة اليُريد، أعني اليُريد على طول الإرادة، وهي في الشمال الألماني بدوره أقوى مما هي عليه في الوسط الألماني؛ وهي أقوى بكثير في إنكلترا وإسبانيا وكورسيكا، وذلك يعود في الأولى إلى المزاج البلغمي وفي

الأخرى إلى الجمجمة القاسية ـ هذا من دون ذكر إيطاليا وهي أصغر سنّاً من أنْ تعرِف ما تريد، [بل] عليها أن تبرهن أولاً على كونها تستطيع أنْ تريد. إلّا أنها على أقوى وأدهش ما يكون في تلك الأمبراطورية الوسطية الضخمة حيث تعود أوروبا أدراجها إلى آسيا وكأنّها نهر جار، أي في الروسيا. هناك تحفظ وتختزن قوة اليُريد منذ زمن طويل، هناك تنتظر الإرادة، على نحو مخيف، إطلاقَها، كي نستعير اللفظ العزيز على الفيزيائيين اليوم، ولا تزال تجهل ما إذا كانت إرادةً للنفي أو للإثبات. فمن أجل درء أعظم الأخطار عن أوروبا لن تلزم، على الأرجح، حروب هندية وتورّطات في آسيا وحسب، بل أيضاً انقلابات داخلية، وتفتيت للأمبراطورية إلى أجسام صغيرة، وقبل كلّ شيء، إدخال الحمق البرلماني، بما فيه واجب أنْ يقرأ كلّ واحد جريدته عند الفطور. ولا أقول هذا متمنّياً: فقلبي ميّال إلى العكس بالأحرى، أعني إلى تزايد خطر الروسيا إلى حدّ يدفع أوروبا إلى التصميم على أن تصير بدورها خطرة، وتحديداً، أن تحظى بواسطة ثلّة جديدة تحكم أوروبا، بإرادة واحدة، إرادة خاصة مرعبة وطويلة يمكن لها أن تحدّد أهدافها لآلاف من السنين... كي يوضع أخيراً حدّ لمهزلة دويلاتها الطويلة وأيضاً لتعدّد إراداتها وتوزّعها على أنظمة ملكية وديموقراطية. لقد ولّى زمن السياسة الصغيرة: القرن التالي سيجلب معه الصراع من أجل السيطرة على الأرض، ـ الإرغام على السياسة الكبيرة.

209

التربية على الريبية الكبيرة من خلال الحرب والانتصار: إلى

أيّ حدّ قد يكون العصر الحربي الجديد الذي دخلناه صراحة، نحن الأوروبيين، ملائماً أيضاً لتطور ضرب من الريبيّة آخر وأقوى؟ هذا أمر لا أرغب في إبداء رأيي فيه حالياً إلّا من خلال مثل سيفهمه، بالتأكيد، محبّو التاريخ الألماني. إنّ ذاك المتحمّس بلا تحفّظ للمشاة الوسام الطوال القامة، الذي أنجب، بصفته ملكاً لبروسيا، عبقرياً عسكرياً وريبياً، وأنجب بذلك، في الواقع، ذلك الطراز الألماني الجديد الذي يطلع الآن منتصراً؛ إن والد فريدريش الكبير، ذاك الأخْوَت المثير، قد أمسك بقبضة العبقري ومخلبه السعيد بنقطة واحدة وأصاب: كان يعرف ما افتقرت إليه ألمانيا آنذاك وما هو النقص الأكثر إلحاحاً واستفحالاً بكثير من النقص في الثقافة واللباقة الاجتماعية على سبيل المثال. كان نفوره من فريدريش الشاب يصدر عن توجّس فطريّ عميق. ثمة نقص في الرجال؛ كان يظنُّ أنّ ابنه ليس رجلاً بما فيه الكفاية، الأمر الذي سبّب له استياءً مرّاً. لقد خدع نفسه في هذه النقطة: ولكن من لم يكن ليخدع نفسه لو كان محلّه؟ فهو شاهد ابنه يقع في شرك الإلحاد والظرف وخفة التنعّم بالحياة على منوال الفرنسيين الفطنين. لقد رأى في الكواليس مصّاصة الدماء الكبيرة، الريبيّة العنكبوت، وأوجس بؤساً لا شفاء منه، بؤس قلبٍ لم يعدْ قاسياً كفاية لا للشرّ ولا للخير، وبؤس إرادة محطَّمة لم تعد تأمر، ولم يعد بإمكانها أنْ تأمر. لكن، في تلك الأثناء ترعرع في ابنه ذلك الضرب من الريبية الأكثر خطراً وقسوةً ـ الذي نمّاه، ومن يعلم إلى أيّ حدٍّ، حقد الوالد بالذات وجليد إرادة سوداوية حُكم عليها بالعزلة ـ، [أعني] ريبيّة الرجولة المقدامة قريبة العبقرية لحّاً في الحرب والغزو، ريبية اجتاحت ألمانيا لأوّل مرة بشخص فريدريش الكبير. الريبية هذه تحتقر وتستحوذ معاً؛ تقوّض

وتستولي؛ لا تؤمن، لكنّها لا تضيّع نفسها؛ تعطي للروح حرية خطرة، لكنّها تشدّ على القلب بصرامة: إنّها الصيغة الألمانية للريبية التي فرضت، بوصفها امتداداً لفريدريشية مكثّفة ومُرَوْحَنة، سيطرتَها على أوروبا فأخضعتها للروح الألماني ولارتيابه النقدي والتاريخي لفترة لا يستهان بها. إذ، بفضل رجولةٍ صلبةٍ قويةٍ لا تُقهر، تحلّى بها اللغويون والمؤرّخون النقديون الألمان (الذين كانوا جميعاً، إن أمعن النظر، فنانين في التهديم والتفتيت أيضاً)، بدأ يتثبّت تدريجياً، ورغم كل الرومنسية في الموسيقى والفلسفة، معنى جديد للروح الألماني برزت فيه، على نحو حازم، سمة الريبيّة الرجولية: وعلى سبيل المثال، في جرأة النظرة، في بسالة اليد المفكّكة وقسوتها، في الإرادة الصلبة لإقدام الروح على بعثات قطبية ورحلات استكشافية تحت سموات خطرة مقفرة. وقد يكون لأنصار إنسانية سطحيةٍ ودافئة القلب أسباب وجيهة لرسم شارة الصليب أمام هذا الروح بالذات: «هذا الروح القَدَري الساخر الشيطاني»[1]؟ كما يقول ميشيليه، ليس من دون ارتعاش. لكن، إنْ أراد المرء أن يدرك كم هو مشرّف هذا الخوف من «رجل» الروح الألماني، وهو مَن أيقظ أوروبا من «سباتها الدُغْمائي»، فليتذكّر المعنى السابق الذي وجب التغلّب عليه، وأنّه لم يمض بعد زمن طويل منذ تجرأت امرأة مسترجلة، بصلف لا يُلجم، على أن توصي أوروبا بالإشفاق على الألمان لكونهم مغفّلين ودعاء، طيبي القلوب، ضعاف الإرادة وذوي نفوس شاعرية. وليفهم المرء أخيراً بكلّ عمق، دهشة نابوليون حين قابل غوته: فهي تنمّ عن ذاك التصوّر «للروح الألماني» الذي كان سائداً

(1) «Cet esprit fataliste, ironique et méphistophélique».

لقرون: «Voilà un homme» ذاك كان يعني: «هذا رجل حقاً! وكنتُ أتوقع مجرد الماني!».

210

فلاسفة التجريب: إذن لنفرض جدلاً أنّ في صورة فلاسفة المستقبل ملمحاً ما يوحي بأنّهم سيكونون، على الأرجح، ريبيين بالمعنى الأخير الملمح إليه، فإنّ الأمر سيدل إلى شيء ما لديهم وحسب وليس إليهم بعينهم. ويجوز بالحقّ نفسه أنْ نسمّيهم نقديّين؛ وبالتأكيد سيكونون من أهل التجريب. بهذا الإسم الذي أقدمتُ على تعميدهم به، أردت أن أؤكّد صراحةً على التجريب وعلى حبّهم للتجريب: هل، يا ترى، لأنهم يهوون، لكونهم نقديين قلباً وقالباً، استعمال التجريب بمعنى جديد، بمعنى أوسع، وربّما، أخطر؟ هل سيتمادون، في شغفهم بالمعرفة، بتجاريبهم المقدامة والموجعة، أبعد مما يروق لقرن ديموقراطي بذوقه الرخو المترهل؟. ثمة أمر لا شكّ فيه: إن هؤلاء المقبلين سيكونون آخر من له أن يستغني عن تلك الصفات الجدّية والحرجة التي تميّز النقدي عن الريبي، أقصد الثقة في مقاييس القيمة، والاستعمال الواعي لوحدة منهجية، والشجاعة الفطنة، والوقوف بانفراد، والقدرة على تحمّل المسؤولية؛ أجل، سيقرّون لأنفسهم بلذّة في الرفض والتفكيك، وبسبْعية رصينة معينة تتقن استعمال السكين بثقةٍ ودقةٍ حتى لو أُدمي القلب. إنّهم سيكونون أكثر قسوة (وربما، ليس دائماً على أنفسهم وحسب) مما يتمنّى أناس إنسانيون، ولن يقبلوا على «الحقيقة» من أجل أن «تستلطفهم» أو «ترفعهم» أو

«تفتنهم»: - إيمانهم سيكون بالأحرى ضئيلاً بأنّ الحقيقة بالذات تمنح الشعور ملذّات من هذا القبيل. إنّ هذه الأرواح الصارمة ستبتسم، إن قال واحد أمامها: «تلك الفكرة ترفعني: كيف لها أن لا تكون حقيقية؟» أو: «ذاك العمل يسحرني: كيف له أن لا يكون جميلاً؟» أو «ذاك الفنان يُكبرني: كيف له أن لا يكون كبيراً؟»؛ وربما لا تكتفي بمجرد ابتسامة حيال مثل هذه الضروب من المغالاة والمثالية والتأنّث والتخنّث، بل تشمئز منها اشمئزازاً حقيقياً، ومَن يعرف أنْ ينفذ إلى خفايا قلوبهم، سيعزّ عليه أنْ يجد هناك نية التوفيق بين «المشاعر المسيحية» و«الذوق القديم»، وبالأحرى بينها وبين «البرلمانية الحديثة» (وتوفيقية من هذا النوع تصادف في قرننا الشكّاك جداً وتالياً التوفيقي جداً، حتى عند الفلاسفة). إنّ فلاسفة المستقبل هؤلاء لن يطلبوا الالتزام بالتأدّب النقدي وكل ما يعوّد على النظافة والصرامة في أمور الروح وحسب: بل سيحقّ لهم أن يعرضوه بمثابة زينة خاصة بهم. وبالرغم من ذلك سيرفضون أن نسمّيهم نقديين. وإذا ما أُعلن، كما يحدث اليوم بكلّ سرور: «إنّ الفلسفة نفسها نقد وعِلم نقدي. ولا شيء سواه البتة!»، فسيبدو لهم ذلك إهانة غير يسيرة للفلسفة. وحتى لو حظي هذا التقييم للفلسفة بتأييد كل الوضعيّين الفرنسيين والألمان (ومن الممكن أنه كان سيرضي غرور قلب كنط وذوقه أيضاً: ليتذكّر المرء عناوين أعماله الرئيسية.): فإن فلاسفتنا الجدد سيقولون مع ذلك: إنّ النقديّين هم أدوات الفيلسوف، ولذلك بالذات، أي لكونهم أدوات، شتّان ما بينهم وبين الفلاسفة! أما ذاك الصيني الكبير من كويْنِغْسبرغ فلم يكن، هو الآخر، سوى نقديّ كبير.

211

مهمة الفيلسوف خلق أهداف وقيم: إني أصرّ على أن يكفّ المرء أخيراً عن الخلط بين شغّيلة الفلسفة وأهل العِلم بعامة وبين الفلاسفة. أصرّ على أن يُعطى، هنا بالذات، وعلى نحو صارم، «لكل واحد ما له»، لأولئك ليس أكثر مما لهم، ولهؤلاء ليس أقل بكثير. وقد تقتضي تربية الفيلسوف الحقيقي أن يكون بنفسه قد توقّف ذات يوم عند كل تلك الدرجات التي يتوقّف عندها، ويجب أنْ يتوقّف عندها، خدّامه، شغيلة الفلسفة العِلميون؛ ولعلّه يجب أن يكون هو نفسه بدءاً نقديّاً وريبيّاً ودغمائيّاً ومؤرّخاً، ومن ثم شاعراً ومجمّعاً ورحّالة وهاوي ألغاز وأخلاقيّاً وعرّافاً و«روحاً حرّاً». لعله يجب أن يكون كل شيء تقريباً، لكي يجتاز محيط القيم والمشاعر القيمية الإنسانية ولكي يسعه أن ينظر، بعيون وضمائر شتّى، من القمّة إلى كل بعد آخر، ومن القاع إلى كل قمة، ومن الركن إلى كل أفق. لكنّ هذا كله مجرد شروط تمهيدية لمهمّته: هذه المهمّة نفسها تريد شيئاً آخر... إنها تطلب أنْ يَخْلُقَ قيماً. أمّا شغّيلة الفلسفة من الطراز الرفيع الذي لكنط وهيغل، فعليهم أن يثبتوا مجموعة ضخمة من التقييمات، أي من الأطروحات والابتكارات القيمية السابقة التي أصبحت سائدة وتسمّى، لمدة من الزمن، «حقائق»؛ وأن يزجّوها في صيغ، سواء في مجال المنطقي أم السياسي (الأخلاقي) أم الفني. ويتوجب على هؤلاء الباحثين أن ينظروا في كل ما حدث وتمّ تقييمه حتى الآن، ليجعلوا منه شيئاً واضحاً ومعقولاً وملموساً وسهل الاستعمال، وأن يختصروا كل طويل، حتى «الزمان» نفسه، ويقهروا الماضي بأسره: إنّها مهمّة هائلة ورائعة في خدمتها بلا

شك تجد كلّ كبرياء لطيفة وكلّ إرادة صلبة إرضاءً لها. أما الفلاسفة الحقيقيون فهم آمرون ومشرِّعون: إنهم يقولون: «هكذا يجب أن يكون!». إنهم يعيّنون بدءاً وجهة الإنسان وغايته ويتصرّفون، من أجل ذلك، في العمل التمهيدي لكلّ شغّيلة الفلسفة وكلّ قاهري الماضي. إنهم يمدّون يدهم الخلاّقة إلى المستقبل، وكل ما هو، وما كان، يغدو لهم وسيلةً وأداة ومطرقة. إنّ «عَرْفَهم» خَلْق، وخَلْقهم تشريع، وإرادتهم للحقيقة ـ إرادة قدرة. هل ثمة اليوم فلاسفة من هذا القبيل؟ هل سبق أن حضر فلاسفة من هذا القبيل؟ ألا يجب أن يكون ثمة فلاسفة من هذا القبيل؟...

212

الفيلسوف وعصره: يبدو لي أكثر فأكثر أن الفيلسوف، وهو بالضرورة إنسان للغد وبعد الغد، كان، ووجب أن يكون، في كلّ الأزمنة على تناقض مع حاضره: فخصمه كان في كلّ مرة أَمْثَل حاضره. ولقد وجد مطوِّرو الإنسان الخارقون هؤلاء الذين يسمّون فلاسفة، والذين أحسّوا أنفسهم لا أصدقاء للحكمة، بل بالأحرى مهووسين غير مرغوب فيهم وعلامات استفهام خطرة، وجدوا جميعهم حتّى الآن، مهمّتهم، مهمّتهم القاسية، والمحتومة وغير المرادة، إنما أخيراً مهمّتهم الكبيرة في كونهم عذاب ضمير عصرهم الخبيث. وهم، إذ وضعوا سكين التشريح على صدر فضائل العصر بالذات، أفشوا ما كان سراً خاصاً بهم: أي عِلْمانهم بكبرٍ جديدٍ للإنسان وبطريق جديدة، لم يسبق نهجها، إلى تكبيره. ولقد كشفوا في كلّ مرة كم من الرياء والراحة والتهامل

والتذلل، وكم من الكذب قد تخبّأ تحت رداء طراز أخلاقيتهم المعاصرة الأكثر اعتباراً، وكم من الفضيلة قد تخطّتها الحياة؛ وقالوا في كلّ مرة: «علينا أن نتجه إلى هناك، إلى الخارج، إلى حيث أنتم اليوم في أبعد ما يكون عن داركم». أما بالنظر إلى عالم «الأفكار الحديثة» الذي يريد أنْ يحصر كلَّ واحد في زاوية «واختصاص»، فإنّ الفيلسوف، إنْ أمكن أن يوجد اليوم فلاسفة، سيرى نفسه ملزماً بأن يطرح كِبَر الإنسان، أي أفهوم «الكبر»، في شموليته وتعدّده، في كلّيته المتكثّرة: بل إنّه سيعيّن حتى القيمة والرتبة وفقاً لما يمكن للواحد أن يحمل ويتحمّل من كثيرٍ ومتعددٍ ووفقاً لمدى مسؤوليته. اليوم تضعف الإرادة وتهن من جراء ذوق العصر وفضيلة العصر، وما من شيء يناسب العصر أكثر من ضعف الإرادة: ففي أمثل الفيلسوف إذن يجب أن يتضمن أفهوم «الكِبر» قوة الإرادة عينها، أعني القسوة والقدرة على اتخاذ قرارات طويلة الأمد؛ وذلك على نحو ما كان تعليم معاكس وأمثل إنسانيّة غيريّة خاشعة زاهدة بليدة، مناسباً بكلّ حقٍّ لعصرٍ معاكس هو الآخر، عصرٍ شأنه شأن القرن السادس عشر، يعاني من طاقة إرادة مكبوتة ومن أنانية جامحة تتدفّق كالعباب والسيل العُرام. أما في زمن سقراط، وبين قوم وهنت فطرتهم، بين قدامى الأثينيين المحافظين الذين أفرطوا في التهامل ـ ساعين وراء التسلية، أو وراء «السعادة» كما ادّعوا ـ من دون أن يكفّوا مع ذلك عن التفوّه بالألفاظ العتيقة الرنّانة التي كان نمط عيشهم قد أبطل حقّهم فيها منذ زمن طويل، فإن كبر النفس استلزم، على الأرجح، التهكّم، تلك الثقة السقراطية الخبيثة الخاصة بطبيب وعامي عجوز يشرط لحمه الخاص من دون هوادة، كما يشرط لحم «النبيل» وقلبه بنظرة تقول بوضوح كافٍ: «لا تتظاهروا أمامي! هنا: كلّنا

سواسية!». واليوم على العكس، إذ يحظى في أوروبا حيوان القطيع وحده بالأمجاد ويوزّعها، وقد تنقلب «المساواة في الحقوق» بسهولة فائقة إلى مساواة في الظلم: أريد أن أقول، إلى حرب معمّمة ضد كلِّ نادر وغريب وصاحب امتياز، إلى حرب ضد الإنسان الأعلى والنفس العليا والواجب الأعلى والمسؤولية العليا، إلى حرب ضد غزارة القدْرة والسيادة الخلاّقة ـ اليوم ينتمي النبل والتفرّد وإمكان المغايرة وإرادة اللَّدُنية ووجوب العيش بالركون إلى الذات إلى أفهوم «الكبر»؛ وقد يبوح الفيلسوف بشيء من أمثله الخاص، عندما يعلن: «إن الأكبر ينبغي أن يكون من يسعه أن يكون الأكثر توحّداً وخفاءً ومغايرةً، من يسعه أن يكون إنساناً ما وراء الخير والشر، سيداً على فضائله وطافحاً بالإرادة؛ ذاك تحديداً ينبغي أن يسمّى كبراً: كون المرء متعدّداً بقدر ما هو تام، وكونه واسعاً بقدر ما هو ممتلىء». ولنسأل مرة أخرى: هل الكبر ممكن اليوم؟

213

حول الحق في الفلسفة: ما الفيلسوف؟ ذاك أمر يصعب تعلّمه تحديداً لأن تعليمه ممتنع: فعلى المرء أن يَعْلمه عن تجربة، أو أن يكون له الكبرياء بأن لا يَعْلم. لكن، أن يتكلّم اليوم الجميع على أمورٍ لا يمكن أن يكون لهم تجربة بصددها، فهذا أمر يَصْدُق، على أشدّ وأردأ ما يكون، على الفيلسوف والأحوال الفلسفيّة: فقلّة من الناس تعرف ذلك ومخوّلة لأن تعرفه، وكل الآراء الشعبية فيه خاطئة. وهكذا، وعلى سبيل المثال يبقى ذلك التجاور الفلسفي الأصيل بين روحية طلقة مقدامة تجري سريعةً، وبين

صرامة وضرورة جدلية لا تخطىء في أي خطوة، أمراً غائباً عن تجربة معظم المفكّرين والباحثين، وتالياً، أمراً لا يصدّقونه إذا ما دار الكلام عليه في حضرتهم. ويتصور هؤلاء كل ضرورة بوصفها ضرّاء، بوصفها إكراهاً ووجوب انصياع محرج؛ ويحسبون التفكير نفسه شيئاً بطيئاً ومتردّداً يكاد يكون مشقّةً وفي الغالب «جديراً بعرق الأفاضل». لكنّهم لا يحسبونه البتّة شيئاً خفيفاً إلهياً قريباً جداً من الرقص والجموح!. إن التفكير وحمل شيء على «محمل الجِدّ»، «حمل ثقله»، وجهان لعملة واحدة لديهم: على هذا النحو وحسب «جرّبوه». وقد يكون للفنانين هنا حاسة شم أكثر إرهافاً: هم الذين يعرفون جيداً أن شعورهم بالحرية والرهافة والقوّة، بالإبداع في الطرح والتصرّف والتشكيل يبلغ أوجه بالذات، حين لا يعودون يفعلون أي شيء «إرادياً»، بل كلّ شيء ضرورةً. وبكلمة، إنّ الضرورة «وحرية الإرادة» تشكّلان حينذاك بالذات أمراً واحداً بالنسبة إليهم. وثمة أخيراً تراتبية للأحوال النفسية تتلاءم مع تراتبية المشكلات؛ وتنبذ أعلى المشكلات نبذاً لا رحمة فيه، كلّ من يجرؤ على الدنو منها من دون أن يكون مجبولاً على حلّها بفضل قدرة روحيته وعلوّها. وما الجدوى، إذا ما تسابقت عقول عادية مرنة أو إذا ما تسابق ميكانيكيّون وأمبيريّون طيبون من دون مرونة، بطمعهم العاميّ، كما يحدث اليوم غالباً، من أجل الوصول إلى جوارها ومن أجل التزاحم «في هذا البلاط الرفيع»، إن صح التعبير! لكنّ أقداماً غليظة لن تدوس قط مثل هذه السجادة: إن قانون الأشياء الأصلي يحول دون هذا؛ والأبواب تبقى مقفلة في وجه هؤلاء اللجوجين، مهما دقّوا رؤوسهم بها وحطّموها! يجب أن يولد المرء لكلّ عالَم عال؛ أو بعبارة أوضح، يجب أن يُربّى له: فليس له حق في الفلسفة، بالمعنى

الكبير للّفظ، إلَّا بفضل أصله؛ والحاسم هنا أيضاً الأسلاف «والدم». إن أجيالاً كثيرة يجب أن تمهِّد لنشأة الفيلسوف؛ وكل فضيلة من فضائله يجب أن تُكتسب وتُرعى وتورّث وتُتمثّل على حدة، وليس المقصود بذلك سير أفكاره وجريانها الرشيق والخفيف والمقدام وحسب، بل أكثر من أيّ شيء، الاستعداد لتحمّل المسؤوليات الكبيرة، وسمو النظرات السيّدة المشرِفة، والشعور بالانفصال عن الحشد وواجباته وفضائله، والدفاع الكريم عمّا يُشتم ويُساء فهمه، سواء كان الله أم الشيطان، واللذة في العدالة الكبيرة والتمرّن عليها، وفنّ الأمر، ووسع الإرادة، والعين المتأنّية التي نادراً ما تبدي إعجاباً ونادراً ما تنظر إلى أعلى ونادراً ما تحبّ. . .

الفصل السابع

فضائلنا

214

«فضائلنا»: من المحتمل أن تكون لنا نحن أيضاً فضائلنا، رغم أنه من المنصف أن تكون غير تلك الفضائل الحميدة والغليظة التي نجلّ لأجلها ذكرى أجدادنا ونفضّل مع ذلك إبقاءهم بعيدين قليلاً عن خناقنا. فنحن أوروبيّي ما بعد غدٍ، نحن بواكير القرن العشرين، بكلّ ما لنا من فضولٍ خطرٍ ودُرْبةٍ على التلوّن والتنكّر، بكلّ ما لنا، في الروح والحواس، من سبْعيّةٍ اختمرت حتى احلولت، نحن، على الأرجح، لا نتمتّع من الفضائل، هذا إن تمتّعنا، إلّا بتلك التي عرفت كيف تُعايش، على أفضل وجه، أكثر ميولنا خفاءً وحرارةً وأشد حاجاتنا تأجّجاً: إيه! فلنبحث عنها في متاهاتنا!... حيث تضيع، كما هو معلوم، أمور شتّى، وتتوارى أمور شتّى كليّاً. وهل هناك شيء أجمل من بحث المرء عن فضائله الخاصة؟ ألا يعني هذا أو يكاد: إنّه يؤمن بفضيلته؟، لكن هذا «الإيمان بالفضيلة»: أليس، في الواقع، هو نفسه ما سمّي آنذاك «راحة الضمير»، أعني ضفيرة الأفاهيم الوقورة الطويلة الذيل

التي تدلّت من أقذلة أجدادنا، وفي الغالب من قفا عقولهم أيضاً؟ ولذا يبدو، ومهما ترفّعنا عن وقار الأجداد والموضة القديمة، أننا مع ذلك، في نقطة واحدة، أحفاد خليقون بأولئك الأجداد، نحن آخر أوروبيّي راحة الضمير: ما زلنا، نحن أيضاً، نتزيّن بضفيرتهم. ـ آه! لو تعلمون، كيف ستحول الحال قريباً، وقريباً جداً!...

215

بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد: مثلما تعيّن شمسان، في مملكة النجوم، بين آن وآخر، مسارَ كوكب واحد، ومثلما تضيء شموس مختلفة الألوان، في حالات معينة، كوكباً واحداً وتسلّط عليه نوراً أحمر حيناً ونوراً أخضر حيناً آخر، ومن ثم أنوارها مجتمعةً في آن واحد لتغمره بوهج ملوّن، فإننا نحن، أهل الحداثة، نتعيّن بخلقيات متباينة، بفضل الميكانيك المعقّد «للسماء نجومنا»، أفعالنا تشع تباعاً بمختلف الألوان ونادراً ما تكون صريحة، وثمة حالات عديدة نفعل فيها أفعالاً متلوّنة.

216

الاحتقار في الحب أيضاً، وصمتنا: حب الأعداء؟ لقد تعلّمناه جيداً، على ما أظن: فالأمر يحدث اليوم في الصغيرة والكبيرة، بألف طريقة وطريقة، بل يحدث أحياناً ما يفوقه علوّاً وسموّاً: إننا نتعلّم أنْ نحتقر عندما نحبّ، وبخاصة عندما نحبّ على أفضل ما يكون. لكن هذا كلّه يحصل لا بوعي وجلبة وأبهة، بل بخفر ذاك الرفق الذي يَنْهى الفم عن التفخيم والموعظة. فالأخلاق بوصفها

طقساً، تنافر ذوقنا اليوم. وهذا تقدّم أيضاً: مثل التقدّم الذي كان من نصيب آبائنا، إذ استثقلوا في النهاية الدين الذي أمسى طقساً منافياً للذوق كما استثقلوا أيضاً استهجان الدين وتجريحه اللاذع على طريقة فولتير (وكلّ ما ورد آنذاك في لغة المفكّرين الأحرار الإيمائية). في وجداننا موسيقى، في روحنا رقص لا تنسجم معهما البتة الطِلبة المتطهّرة والمواعظ الأخلاقية والتظاهر بالطيبة والاستقامة.

217

حذار من المرهفين في الأخلاق: حذار من أولئك الذين يحرصون حرصاً شديداً على أن نقرّ بلطف أدبهم ورهافة حكمهم الأخلاقيّ! فهم لا يغفرون لنا البتّة إذا ما أخطأوا أمامنا وتعدّوا حدودهم (أو اعتدوا علينا بالأحرى)، ويصيرون حتماً ممن يقدح ويطعن بنا فطريّاً حتى لو ظلّوا «أصحابنا»... مغبوط ذاك الذي ينسى: لأنه «يُجهز» على حماقاته أيضاً.

218

ضرب من الضغينة يُنصح بدراسته: إن السيكولوجيين في فرنسا ـ وفي أي محلّ آخر يوجد اليوم منهم؟ ـ لم يشبعوا بعد من تذوّق لذّتهم المُرَّة والمتنوّعة في تأمّل الحمق البورجوازي، كما لو أن... صه إنهم بذلك يفشون شيئاً. ومنهم على سبيل المثال فلوبير، المواطن الفاضل من روان، الذي لم يرَ ولم يسمع ولم يذُق في النهاية أيّ شيء سوى الحمق البورجوازي: تلك كانت طريقته في تعذيب ذاته والقسوة عليها بلطف. أما الآن فأنصح،

للتغيير ـ لأن الضجر بدأ يسود ـ، بشيء آخر للتفكّه: أقصد المكر اللاواعي الذي لكلّ الأرواح الوسطى الحسنة البدينة الفاضلة في تحاملها على أرواح أعلى وعلى مهامّها، ذلك المكر اليسوعيّ اللطيف النسج الذي يفوق ألف مرّة لطافة فهم هذه الفئة الوسطى وذوقها في أحسن لحظاتها ـ ويفوق حتّى فَهْم ضحاياها... وذاك برهان جديد على أنّ الفطرة هي التي اكتشفت، من بين كل أنواع الذكاء حتى الآن، النوع الأكثر ذكاءً. والخلاصة، أدرسوا أيها السيكولوجيّون، فلسفة «القاعدة» في صراعها مع «الاستثناء»: وتلكم مسرحية تليق بالآلهة والخبث الإلهي! أو بتعبير أكثر ملاءمةً لليوم شرّحوا «الإنسان الحسن»، «إنسان النيّة الحسنة»[1]... شرّحوا أنفسكم!

219

إرتقاء الأخلاق إلى الروحي: الحكم الأخلاقي والإدانة الأخلاقية عند محدوديّ الروح، هما وسيلة مفضّلة للثأر ممن هم أقلّ محدوديّةً ونوع من التعويض أيضاً لأن الطبيعة لم تجزل لهم العطاء، وهما أخيراً فرصة ليصير هؤلاء مرهفين ويرقوا إلى الروح: فالخبث يُرَوْحِن. ويرتاح هؤلاء في صميم قلوبهم لوجود مقياس يتساوون بموجبه مع من أُغدقت عليهم نِعَم الروح وامتيازاته: إنّهم يناضلون في سبيل «سواسية الجميع أمام الله» ويحتاجون، من أجل ذلك وحده تقريباً، إلى الإيمان بالله. وبينهم إنما يوجد ألدّ أعداء الإلحاد. ومن يقل لهم: «لا مجال للمقارنة

(1) Homo bonae voluntatis.

بين الروحية العالية وفضيلة الإنسان الذي ليس سوى مجرّد خلقي وجدارته»، يُثِرْ جنونهم... أنا سأحرص على ألّا أفعل ذلك. وأريد بالأحرى أنْ أجاملهم بعبارتي: إنّ الروحيّة العالية نفسها ما هي إلَّا الاختراع الأخير للصفات الخلقيّة؛ وهي تأليف بين كل تلك الأحوال التي تُنسب، تشنيعاً، إلى أناس «ليسوا سوى مجرّد خلقيّين» بعد أنْ تكتسب كلّ حال من هذه الأحوال على حدة، تحت وطأة تأدّب وتمرّن قد يطول أجيالاً إثر أجيال؛ الروحيّة العالية روحنةٌ للعدالة ولتلك الصرامة الرؤوم التي تعي أنها مكلّفة بالحفاظ على التراتب في العالم، لا بين البشر وحسب، بل أيضاً بين الأشياء.

220

إدعاء التنزه عن الغرض: الآن والإنسان «المنزّه عن الغرض» يكال له المديح من الشعب كلّ الشعب، لا بدّ لنا من أن نعي أمراً قد لا يخلو من الخطر ونسأل ما هي، أصلاً، الأغراض التي تهمّ الشعب، وما هي، بعامة، الأمور التي يُعنى بها العوامّ بدقّة وتعمّق بمن فيهم المتعلّمون، بل العلماء، وأكاد أقول الفلاسفة أيضاً، لو لم تكن المظاهر كلّها خدّاعة. ويتبيّن لنا أن معظم الأمور التي تلفت انتباه أذواقٍ أكثر لطفاً وتطلباً وتغري كل سجية عليا، تبدو للإنسان العادي«غير لافتة» على الإطلاق... وحين يلاحظ هذا الأخير مع ذلك تفانياً فيها فإنه يسمّيه «منزّهاً عن الغرض» ويندهش كيف يمكن للمرء أن يفعل بـ «تنزّه عن الغرض». لقد جاء فلاسفة حذقوا في التعبير عن هذه الدهشة الشعبية بطريقة غيبيّة صوفيّة مغرية (ربما، لأن الطبيعة حرمتهم من

معرفة السجية العليا؟). وتحاشوا بذلك إظهار الحقيقة العارية والبديهيّة التي تقول إنّ الفعل «المنزّه عن الغرض» هو فعل مغرِض ومثير للغرض جداً، على افتراض أن. . . «والحبّ؟» ماذا؟ حتى الفعل النابع عن حبّ يجب أن يكون «لاأنانيّاً»؟ يا لكم من مغفّلين! «والثناء الذي يُثني على من ضحّى بنفسه؟». لكن من قدّم فعلاً تضحيات يعرف أنه نال وأراد أنْ ينال شيئاً بالمقابل، شيئاً من ذاته مقابل شيء من ذاته ربما. ويعرف أنه أعطى هنا ليستزيد هناك، وربّما ليكون أزيد بعامة، أو على الأقل ليحسّ نفسه «أزيد». لكن هذا عالم من الأسئلة والأجوبة لا يطيب لروح متطلّب أن يمكث فيه: فما أحوج الحقيقة، هنا، إلى أنْ تكبح التثاؤب اذا ما أُكرهت على الإجابة. وهي على كل حال أنثى: وعلى المرء أن لا يَغْصِبَها.

221

نكران الذات فضيلة أم رذيلة حسب ما. . . : قال متأخْلِق يتاجر بالنوافل: أحياناً أحترم وأكرم إنساناً لا يأبه لمصلحته الخاصة: لكن، لا لكونه غير أنانيّ، بل لأنه مخوّل أن ينفع، على ما يبدو لي، إنساناً آخر على حساب مصلحته الخاصة. وبكلمة، إن السؤال هو دائماً: من هو ومن ذاك. لنأخذ على سبيل المثال إنساناً قُدّر له أنْ يأمر وجُبل على ذلك، فإن نكران الذات والإنكفاء المتواضع لن يكونا بالنسبة إليه، فضيلةً، بل سيكونان هدراً للفضيلة: هكذا يبدو لي. إنّ أيّ أخلاق لا أنانيّة تعدّ نفسها لا-مشروطة وتتوجّه إلى الجميع، لاتَخْطَأ في الذوق وحسب: بل تحرِّض على ارتكاب خطايا الإحجام [عن الفعل] وتودي إلى

ضلالة إضافية تحت قناع حبّ البشر. وهي تضلّل وتَضُرّ الأعلى والأندر وصاحب الامتيازات بالذات. يجب إجبار أنماط الأخلاق على الانحناء، بدءاً، أمام التراتبية وتحميلها وزر التطاول، حتى تُجمِع أخيراً فيما بينها على أنّ القول «ما ينصف الواحد ينصف الآخر» إنما هو قول لا-خلقي. تُرى هل استأهل صاحبي المُتَأخْلِق ورجلي الطيّب إذن أنْ نضحك منه، حين نبّه المذاهب الأخلاقية إلى وجوب التقيّد بـ الخلقيّة؟ لكن، إن أراد المرء أنْ يكون الضاحكون إلى جانبه هو، عليه ألّا يكون محِقاً جدّاً؛ فحبّة من الباطل تليق حتّى بحُسْن الذوق.

222

التراحم ـ عارض من عوارض النكوص: أينما كرزوا اليوم بالتراحم ومشاطرة آلام الآخر ـ ولا دين سواه، إن صدق سمعي، يكرزون به اليوم ـ على السيكولوجي أن يُرهف الأذن: فسيسمع وسط كل الغرور، وسط كل الضوضاء، التي تلازم هؤلاء الكارزين (وكل الكارزين) صوتَ أنينٍ مبحوح أصيل، صوت احتقار الذات. وهو جزء من ذلك التقتيم، بل من ذلك التقبيح، الذي أصاب أوروبا وما زال ينمو مطّرداً منذ قرن؛ هذا، إن لم يكن هو بعينه سبباً له! (عوارضه الأولى مدوّنة في رسالة قلقة من غالياني إلى مدام ديبينه(*). إنّ صاحب «الأفكار الحديثة»، هذا القرد الصلف، لا يرضى عن نفسه بأي شكل: هذا مؤكد. إنّه يتألّم، لكنّ غروره يزيّن له أنّه «يشاطر آلام الآخر» لا غير...

(*) Mme d'Epinay.

223

زينة النفس الحديثة: الإنسان الأوروبي الهجين، وهو على العموم عاميّ معتدل القبح، يحتاج بأيّ شكل إلى زِيّ: به حاجة إلى التاريخ كمخزن يمدّه بالأزياء. وهو يلاحظ بالطبع أنّ ما من زِيّ يلائم قامته حقاً. لذا يبدّل ويغيّر ـ ليتأمّل المرء القرن التاسع عشر بالنظر إلى هذه النزوات والتبدّلات السريعة في أساليب التنكّر، وكذلك بالنظر إلى لحظات اليأس من أنّ «لا شيء يَلْبق بنا». من العبث أنْ يعرض المرء نفسه رومنسيّاً أو كلاسيكيّاً، أو فلورنسيّاً، باروكيّاً أو «وطنياً» في الأخلاق والفنون[1]: إنه «لا يَلْبق». لكنّ «الروح»، وبخاصة «الروح التاريخي»، يرى حتى في هذا اليأس مصلحةً له: مراراً وتكراراً يجرّب قطعة جديدة من الماضي والخارج، يقيس، يلبس، يضبّ، وقبل كل شيء، يدرس: فنحن أول عصر مثقّف في ما يخص «الأزياء»، أعني الخلقيّات والمعتقدات والأديان والأذواق الفنية، عصر مهيّأ أكثر من أيّ زمن مضى لاحتفال تنكّري فخم الأسلوب، للضحكِ والهرجِ الكارنفالي الأكثر روحيّةً، بل لِقمّة الحمق الأعلى التجاوزيّة وللسخرية من العالم على منوال أرستوفان. وقد نكتشف هنا بالذات ملكوت ابتكارنا، ذلك الملكوت الذي ما نزال فيه، نحن أيضاً، قادرين على الإبداع الأصيل، كمقلّدين هزليّين للتاريخ العالمي وكعبّاد لله مهرّجين، على سبيل المثال. فإنْ لم يكن لأي شيء حاضرِ اليوم مستقبلٌ، فلربّما كان لضحكتنا بالذات مستقبل باهر!

(1) In moribus et artibus.

224

في تعيين قيمة الحاسّة التاريخية: إن الحاسّة التاريخية (أو القدرة على الكشف بسرعة عن التراتبية في التقييمات التي عاش بموجبها قوم ما ومجتمع ما وإنسان ما، أو «فِطْرة التنبّؤ» بالصلات بين هذه التقييمات وبالعلاقة بين سلطان القيم وسلطان القوى الفاعلة): إن هذه الحاسة التاريخية التي ندّعيها، نحن الأوروبيين، بوصفها خاصيتنا، أتت إلينا على أثر وقوع أوروبا، من جراء الخلط الديموقراطي بين الطبقات والأعراق، في أحضان البربرية الهجينة الساحرة الجنونية. إن القرن التاسع عشر هو أول من يعرف هذه الحاسّة بوصفها حاسّته السادسة. فبسبب ذلك الخلط داخلت «نفوسنا الحديثة» كل ما سبق من أشكال وأنماط حياتية ومن حضارات كانت فيما مضى متجاورة أو متراكمة من دون تواصل فيما بينها، فإذا بفِطَرنا تتقهقر في كل اتجاه وإذا بنا نحن بالذات نوع من الخاوُسْ... ومع ذلك يرى «الروح» نفسه رابحاً في النهاية، كما قلت. فنحن بفضل بربريّتنا الهجينة في الجسد والرغبة، نملك مداخل سرية إلى أيّ محل، لم يملك مثلها يوماً أيّ عصر نبيل، وبخاصة مداخل إلى متاهة الحضارات غير المكتملة وإلى كلِّ بربريّة هجينة وُجِدت يوماً ما على الأرض؛ وحيث إن القسم الأعظم من الحضارة البشرية لم يكن سوى بربرية هجينة فإنّ «الحاسّة التاريخية» تكاد تكون حسّاً وفِطرة لكلّ شيء، وذوقاً ولساناً لكل شيء: بمعنى أنها سرعان ما تتكشّف عن كونها حاسّة لا-نبيلة. ها نحن على سبيل المثال نتذوّق هوميروس من جديد: وربما يكمن أجمل تفوّقنا في أننا نعرف كيف نتذوّق هوميروس الذي أُغلق ويُغلق على أصحاب الحضارة النبيلة الذين

فضّلوا بالأحرى الامتناع عن تذوّقه (على فرنسيّي القرن السابع عشر مثلاً، كسان أيفرمون الذي يأخذ على هوميروس «ذمّته الواسعة»، أو كفولتير، وهو آخر صدى لهم). إن ذائقتهم الحازمة في القبول والرفض، وقرفهم السريع الانقضاض، وتحفّظهم المتردّد حيال كل غريب، وخجلهم من جرأة الفضول التي تنمّ عن سوء ذوق؛ وبعامة، إن تلك الإرادة التي لكلّ حضارة نبيلة ومكتفية بذاتها، الإرادة التي ترفض أن تقرّ لنفسها برغبة جديدة وإعجاب بالغريب وبعدم الرضى عمّا يخصّها: إن هذا كلّه يمنعهم وينهاهم عن تقبّل أفضل أمور الدنيا التي ليست ملكهم أو التي لا يمكن أنْ تقع فريسة لهم. وما من حسّ أعسر على فهمهم من الحاسّة التاريخيّة وحشريّتها العاميّة الصاغرة بالذات. ولا يختلف الأمر بخصوص شكسبير، هذا المزيج المدهش من الذوق الإسباني والمغربي والسكسوني الذي كان ليودي، ضحكاً أو غضباً، بأثينيّ عتيق من صحبة أخيل. أما نحن فنتقبّل هذا التلوّن الصارخ، هذا الخبص بين أكثر الأمور رقّةً وأشدّها غلظةً وكلفةً بالذات، نتقبّله بحرارةٍ وألفةٍ خفيّة، ونتذوّقه وكأنه ذروة رَهَف الفن المحفوظ لنا خصّيصاً، وقلّما ننزعج هنا من روائح الرعاع الإنكليز الكريهة التي يحيا في جوارها فنّ شكسبير وذوقه، كما لا ننزعج في شارع تشيايا بنابولي على سبيل المثال، حيث نكمل طريقنا بحواسّ منفتحة، مسحورين راضين، مهما عبق الجو برائحة أحياء الرعاع النتنة. ونحن، أهل «الحاسّة التاريخية» نملك، بما نحن كذلك، فضائلنا أيضاً، لا مراء في ذلك. إننا راضون بالقليل، ناكرون للذات، متواضعون، صامدون، مفعمون بالعطاء وجهاد النفس، ممتنّون جداً، صابرون جداً، متساهلون جداً. . . وبكلّ هذا قد لا نكون «حسني الذوق» جداً. ولنعترف أخيراً: ما يمتنع علينا، نحن أهل «الحاسّة التاريخية» أن نفهمه ونحسّه ونذوقه

ونحبّه، وما يثير في أعماقنا نفوراً وشبه عداوة، إنْ هو إلَّا الكامل والتامّ النضج في كلّ حضارة وفنّ، إن هو إلَّا النبيل فعلاً في الأعمال والبشر في لحظة سكون بحرها واكتفائها الذاتي الألقاوندي[1]، إن هو إلَّا العَسْجديّ البارد الذي تعرضه الأشياء البالغة الكمال كلّها. وقد تكون فضيلتنا الكبيرة، فضيلة الحاسّة التاريخية، منافية بالضرورة لحسن الذوق، أو لأحسن الأذواق على الأقلّ، وقد لا يسعنا إلَّا بصورة رديئة وبتردّد وبشقّ النفس أن نستعيد فينا تشكيل أعلى لحظات الغبطة والتسامي التي تلمح في حياة البشر بين آن وآخر، صغيرةً وقصيرةً، هنا وهناك: تلك الآيات واللحظات التي تسمّرت فيها قوة كبيرة، مختارةً، أمام اللامضبوط واللامنحدّ، والتي أمكن فيها التمتّع بفيض من لذّة رهيفة في تروّض فجائي وتحجّر، في ثبوت وركون إلى أرض ما برحت تهتزّ. إن الضابطة غريبة عنّا، لنعترف بذلك؛ وما يثيرنا هو لذّة اللامتناهي واللامضبوط بالذات. ونحن أهل الحداثة وأنصاف البرابرة، مثلنا مثل الفارس الممتطي جواداً يخبّ وينخر، نسلس القياد أمام اللامتناهي، ولا نرتع في نعيمنا إلَّا هناك حيث تهدّدنا أعظم الأخطار.

225

الإنسان يطمح إلى القُدْرة لا إلى السعادة: من مذهب اللذّة إلى مذهب التشاؤم والمنفعة والسعادة، جميع هذه الأنماط الفكرية

---

(1) Halkyonisch: صفة مشتقة من القاوند، وهو طائر بحري أسطوري، للدلالة على البحر الهادىء والطقس الصافي الجميل.

التي تقيس قيمة الأشياء، وفقاً للّذة والألم، أي وفقاً لأحوال عرضيّة وأمور ثانويّة، هي أنماط فكريّة سطحية وساذجة ينظر إليها كلّ من يتمتّع بقدرات مبدعة ووجدان فنان، نظرة استخفاف لا تخلو من التهكّم ولا من الشفقة. الإشفاق عليكم! إنّه ليس بالطبع الإشفاق الذي تظنّون: إنّه ليس الإشفاق على «البؤس الاجتماعي»، على «المجتمع» ومرضاه ومنكوبيه، على فسّاق ومحطّمين منذ الأزل، كما نراهم مطروحين من حولنا في كلّ صوب؛ وهو ليس بأيّ حال الإشفاق على فئات العبيد المتململة المقهورة والمتمردة والتي تطمع بالسيادة وتسمّيها «الحرية». إن إشفاقنا هو إشفاق أعلى وأبعد نظراً: إننا نرى كيف يتصغّر الإنسان، كيف تصغّرونه! [أنتم] وثمة لحظات نعاين فيها شفقتكم بالذات بقلق لا يوصف ونتصدّى فيها لهذه الشفقة ونجد فيها جدّيتكم أخطر من أيّ تهوّر. ولعلّكم... وما من «لعلّ» أكثر جنوناً ـ تريدون إلغاء الألم؛ أما نحن؟... فيبدو حقاً أننا نريده بالأحرى أعظم وأسوأ مما كان عليه يوماً! إن الهناء كما تفهمونه ليس هدفاً البتة، بل هو يبدو لنا نهاية وحالاً سرعان ما تحيل الإنسان إلى أضحوكة وحقارة. وتجعل هلاكه مستحبّاً!. إن التأدّب بالألم، بالألم الكبير ـ ألا تعلمون أنّ هذا التأدّب وحده خلق حتى الآن كل ترقّيات الإنسان؟ وشَدّة النفس في حضرة الهلاك الكبير، وحيلتها وبأسها في تحمّل الشقاء ومجالدته وتأويله واستثماره، وكلّ ما وُهب لها يوماً من عمق وسرّ وقناع وروح ومكر وكبر... ألم يوهب لها تحت وطأة التألّم ووطأة التأدّب بالألم الكبير؟. في الإنسان اتّحد المخلوق والخالق: في الإنسان خامة وقطع وزوائد وطين ووحل وسخف وخاوُسْ؛ لكنّ، في

الإنسان أيضاً خالقاً وصانعاً[1] وقسوة طارقة وألوهية متفرِّجة ويوماً سابعاً. . . هل تفهمون هذا التضاد؟ أتفهمون أنّ شفقتكم تعني «المخلوق في الإنسان»، تعني ما يجب أنْ يكوَّن ويُكسّر ويُطرق ويُصهر ويُمزّق ويُحمّى ويُطهّر، تعني ما يجب وما ينبغي بالضرورة أن يتألّم؟ وإشفاقنا نحن، ألا تدركون مَن يعني إشفاقنا المعاكس، حين نتصدّى لشفقتكم بوصفها أردأ أنواع الترهيل والإضعاف؟ إشفاق ضد إشفاق إذن! ومع ذلك أكرّر: ثمة مسائل أعلى من كلّ مسائل اللذّة والألم والشفقة؛ وكل فلسفة تؤدّي إلى هذه وحسب، سذاجة هي. . .

226

نحن اللاأخلاقيين: هذا العالم الذي يخصّنا والذي فيه علينا أنْ نخشى ونحبّ، هذا العالم الذي لا يُرى ولا يُسمع أو يكاد، عالم الأمر الدقيق والإذعان الدقيق، عالم الـ «يكاد» من كل ناحية، عالم المعقَّد والمُزْلق والمسنَّن والحنون: عالمنا هذا محصّن خير تحصين ضد متفرّج غليظ وفضول ملحاح! إننا نتسربل نسيجاً صفيقاً من الواجبات لا يمكن أنْ نخلعه ـ، وبهذا بالضبط ترانا، نحن أيضاً!، «أناس الواجب». بين الحين والآخر نرقص حقاً في «أغلالنا» وبين «سيوفنا»، هذا صحيح. أما في الأعمّ الأغلب، وهذا لا يقلّ صحّة، فنزمجر دونها وقد نفد صبرنا أمام كلّ ما لمصيرنا من قسوة خفيّة. ولكن، مهما حلا لنا أن نفعل: فإن الـ «على ما يبدو» والمغفّلين سيقولون ضدّنا: «هؤلاء أناس بلا واجب». إن الـ «على ما يبدو» والمغفلين هم ضدّنا أبداً!

---

(1) بالمعنى الأفلاطوني، الإله الصانع.

227

فضيلتنا الأشد فِطرةً: الاستقامة ـ لنفرض أنّها فضيلتنا التي لا يمكن لنا أنْ نفارقها، نحن الأرواح الحرّة، ـ إيه! لنعمل عليها بكلّ خبث وحبّ، لننشد، من دون كلل، «الكمال» في فضيلتنا هذه التي وحدها بقيت لنا: فليخيّم بريقها، ذات يوم، على هذه الحضارة الطاعنة في السن وعلى عبوسها الخافت الحالك، مثل شعاع مسائي هازىء أزرق مُعسْجد. وإنْ تعبت استقامتنا مع ذلك في يوم من الأيام، إنْ تنهّدت ومدّت أطرافها تروم حالاً أفضل وأهون وأنعم وكأنها نزوة محبّبة، ووجدتنا قساة عليها... فلنبق قساة، نحن آخر الرواقيّين، ولنسعفها بكلّ ما فينا من شيطانيّ: باشمئزازنا من البليد الفاتر، «بميلنا إلى المحظور»[1]، بجرأتنا المقدامة، بفضولنا المحنّك والمتطلّب، بألطف ضروب إرادتنا للقدرة ولقهر العالم وبأكثرها تقنّعاً وروحيةً، تلك التي تحوم وتدور طمعاً بكلّ عوالم المستقبل... لنسعف «إلهنا» بكلّ «شياطيننا»! من المحتمل أنْ يُساء تقييمنا من جراء ذلك وأنْ يُخلط بيننا وبين الغير... لا يهمّ! سيقال: «استقامتهم»، هي شيطنتهم ولا شيء سواها البتة!» لا يهمّ! وحتى لو كان ذاك القائل على حق! ألم تكن كلّ الآلهة حتى الآن شياطين كهذه أُعيد تعميدها لتصير قدّوسة؟ وما أدرانا، آخر الأمر، بأنفسنا؟ وبالإسم الذي يريده الروح الذي يهدينا؟ (إنها مسألة تسمية). وكم روحاً نخفي؟ لنحتطْ، أيتها الأرواح الحرة، بأنْ لا تتحوّل استقامتنا إلى غرور، إلى زينة لنا وزواق، إلى حدّ لنا وحمق! فكلّ فضيلة تميل إلى

---

(1) Nitimur in vetitum: «نميل إلى المحظور...» (من أوفيديوس: الى المحظور نميل أبداً والمنهى عنه نشتهي: Nitimur in vetitum semper cupimusque negata).

الحمق وكلّ حمق إلى الفضيلة: «أحمق الى حدّ القداسة» يقول مثل روسي. لنحتط بأنْ لا نتحوّل، في النهاية، من كثرة استقامتنا إلى قدّيسين ومضجرين! أليست الحياة أقصر بمئة مرة من أنْ نضجر فيها؟ اللّهم إلَّا إذا آمن المرء بالحياة الأبدية، فـ. . .

228

فائدة الأخلاقيين اللامسلّين: اغفروا لي اكتشافي بأنّ كلّ الفلسفة الأخلاقيّة كانت حتى الآن مُضجرة وبمثابة عقاقير منوِّمة، وأنّ ما من شيء أَلحق، في نظري، ضيراً أكبر «بالفضيلة» من ثقل شفعائها؛ ممّا لا يعني أني أنوي إنكار فائدتهم العامة. من المهمّ أنْ يقلّ، قدر الإمكان، عدد الأفراد الذين يتفكّرون في الأخلاق، ومن المهمّ جدّاً، بالتالي، ألّا تصير الأخلاق ذات يوم مشوِّقة! لكن لا عليكم! لا تزال الأمور كما كانت عليها دائماً: لا أرى أحداً في أوروبا وقد خطر على باله (أو أعلن) أنّ التفكّر في الأخلاق يمكن أنْ يكون انشغالاً خطراً ومُزْلِقاً ومغوِياً، وأنّه قد يحمل في طياته قدراً مهلِكًا! أنظروا على سبيل المثال إلى النفعيّين الإنكليز الدؤوبين الذين لا مناص منهم، انظروا كيف يتخطّلون بتثاقل ووقار، سائرين في خطى بنْثام (ثمّة مثل لهوميروس يعبّر عن الأمر تعبيراً أوضح) الذي كان قد سار بدوره في خطى هلفيتيوس الفاضل (وهو لم يكن إنساناً خطراً، هلفيتيوس هذا، السيناتور بوكورانت(*) هذا كي نتكلّم على طريقة غالياني). ما من فكرة

(*) السيناتور بوكورانت شخصية في رواية لفولتير، وهو غني ومثقف وكريم مثل هلفيتيوس.

جديدة، ما من ليّ وطيّ لطيف لفكرة قديمة، بل ما من تاريخ حقيقي للمفكَّر فيه من قبل: أدب مستحيل في مجمله إنْ عجز المرء عن هضمه بعد تتبيله بالقليل من الخبث. ذلك أنّ رذيلة إنكليزية قديمة قد اندسّت أيضاً في صفوف هؤلاء الأخلاقيين (فلا بد من أفكار جانبيّة لدى قراءتهم إنْ وجبت قراءتهم)؛ رذيلة تسمى كانْتْ[1] وهي رياء أخلاقي يختبىء هذه المرة تحت رداء العِلميّة الجديد؛ ويحفل هذا الأدب أيضاً بحملات خفيّة لصدّ أنياب الضمير وعضّاته التي سيعاني منها باستحقاق معشر من المتطّهرين السابقين عند كلّ جولة علميّة لهم في الأخلاق. (أليس الأخلاقيّ نقيض المتطهِّر؟ وتحديداً، بوصفه مفكِّراً يرى الأخلاق محيِّرة وجديرة بعلامة الاستفهام، وبكلمة، يراها مشكلة؟ أليس التفكّر في الأخلاق لا-خلقياً؟). وفي النهاية يريدون جميعاً أن تفوز الخلْقيّة الإنكليزية بناصية الحق بوصفها هي التي تُسدي أفضل خدمة للإنسانيّة أو «للمنفعة العامّة» أو «السعادة السواد الأعظم»، لا بل لسعادة إنكلترا؛ إنهم يودّون أنْ يُثبتوا لأنفسهم بأيّ ثمن أنّ السعي في سبيل السعادة الإنكليزيّة، وأقصد من أجل الراحة والوجاهة[2] (وفي المقام الأعلى من أجل مقعد في المجلس النيابيّ)، هو في الوقت نفسه صراط الفضيلة المستقيم، لا بل إنّ كلّ ما وجد حتى الآن من فضيلة في العالم، كان قائماً بالضبط في سعي من هذا القبيل. ولا أحد من هؤلاء جميعاً، وهم بهائم قطيع متثاقلة ومضطربة الضمير (تدأب في المناضلة عن قضية الأنانية بوصفها

(1) cant: لفظ إنكليزي يدل على استعمال المصطلحات الأخلاقية استعمالاً شكلياً بخلو من القناعة.

(2) Comfort and fashion.

قضيّة الخير العام)، يريد أنْ يعلم أو يستشمّ أنّ «الخير العام»،ـ ليس أمثل، ليس هدفاً، ليس أفهوماً يمكن تعيّنه على نحو ما، بل مجرد عُقار للتقيُّؤ... وأنّ ما ينصف الواحد لا يسعه بعد بأيّ شكل من الأشكال أنْ ينصف الآخر، وأنّ المطالبة بأخلاق واحدة للجميع يعني الإضرار بالإنسان الأعلى بالذات، وباختصار، أنّ ثمة تراتبية بين إنسان وإنسان وتالياً بين أخلاق وأخلاق أيضاً. إن هؤلاء الإنكليز النفعيين هم حقاً من ضرب بشري متواضع ووسطي حتى الأعماق، وكما قيل: بما أنّهم مضجرون فإنّ منفعتهم لا يمكن أنْ تقدّر حق التقدير. ويجدر بالمرء أنْ يشجّعهم أيضاً. وللإسهام في ذلك دوّنتُ الأبيات التالية:

السلام لكم، يا دافعي العجلة الكرام!
يا من تردّدون: «إن يطل بنا الأمر يكن أفضل»
برؤوس وركب أبداً تزداد جموداً
يا من تجهلون الحماس والمزاح
وسطيّون أنتم، من نوع لا يبلى
من دون نبوغ ومن دون روح!

229

في الأشعور الذي خلق عمق الروح والنفس: في العصور المتأخّرة، تلك التي تفخر عن استحقاق بإنسانيّتها، ما يزال يبقى من الخوف، من خرافة الخوف من «السبع البريّ» الذي يشكّل التغلّبُ عليه مصدرَ فخر تلك العصور الأكثر إنسانيّة، ما يكفي لكي تُكتَم، بشبه إجماع وطوال قرون، حتّى الحقائق التي تُلمس

لمس اليد؛ لأنّها، حسب مظهرها، تعيد الحياة إلى ذلك الحيوان البريّ المستأصَل أخيراً. وقد أُخاطر حين أدع حقيقة كهذه تفلت مني: فليوقفها غيري وليسقِها من «حليب النمط الفكريّ التقيّ» ما يجعلها تنزوي في ركنها القديم هامدةً ومنسيّة. على المرء أنْ يغيّر فهمه للسبْعية ويفتح العينين؛ على المرء أنْ يتعلّم أخيراً نفاد الصبر من أجل وضع حدّ لتجوال مغالطات صلفة غليظة متبجِّحة كتلك التي غذّاها الفلاسفة القدامى والجدد بصدد التراجيديا على سبيل المثال. إنّ معظم ما نسمّيه «حضارة راقية» يقوم على روحنة السبْعية وتعميقها ـ هذا هو قولي. إنّ ذاك «الحيوان البريّ» لم يُقتل البتة، إنّه يحيا ويزدهي، لكنّه... قد تألّه. فما يثير نشوةً موجعة في حضرة التراجيديا هو السبْعية؛ وما يقع في النفوس موقعاً عذباً في حضرة ما يُسمّى بالتأثّر التراجيدي، وأصلاً في حضرة كلّ سامٍ، صعوداً إلى أعلى ارتعاشات الميتافيزيقا وأكثرها رقّة، لا يستمدّ عذوبته إلّا مما يشوبه من سبْعيّة. ما يلتذ به الرومانيّ في الحلبة، والمسيحيّ في نشوة الصليب، والإسبانيّ أمام المحرقة أو صراع الثيران، واليابانيّ المعاصر المندفع إلى التراجيديا، والعامل في ضواحي باريس التائق إلى وطن الثورات الدمويّة، وهاوية فاغنرْ «المستسلمة» بإرادة عاطلة لـ «تريسْتان وإيزولْده»[1]... ما يلتذّ به هؤلاء جميعاً وما يلهجون بجرعه في ولهٍ مُلْغِز هو رحيق الساحرة الكبيرة «سبْعيّة» المبهَّر. غير أنّه يجب، هنا طبعاً، على المرء أنْ يطرد السيكولوجيا القديمة البلهاء التي لم تعلِّم عن السبْعية سوى أنّها تتولّد لدى رؤية ألم الغريب... ثمة أيضاً متعة كبيرة، بل غامرة، في التألّم وإيلام

(1) أوبرا شهيرة لريشارد فاغنر (1865).

الذات. وفي كلّ محل ينجرّ فيه الإنسان إلى نكران الذات بالمعنى الديني، أو إلى تقليم الذات كما عند الفينيقيين والنساك، أو بعامة، إلى تعطيل الحواس والجسد وإلى الانسحاق وإلى نوبة التوبة المتطهّرة وإلى تشريح الضمير والتضحية بالعقل على منوال باسكال، فإن ما يغويه خلسةً إلى ذلك ويدفع به إلى الأمام هو سبْعيّتُه، أعني تلك الإرتعاشات الخطرة التي لسبعية تنقضّ على الذات. أخيراً، ليتفكّر المرء في مسألة أنّ العارف نفسه، إذ يُكرِه روحَه على المعرفة غصباً عن ميل الروح، وغالباً أيضاً غصباً عن أماني القلب، أي يُكرِهه على أنْ يقول: لا، حيث يرغب في الـ نَعَم والحبّ والعبادة ـ إنّ العارف هذا يلعب دور من يتفنّن في السبْعيّة ويجعلها شفّافة. إنّ كلّ تعمّق وسبر للأغوار هو في حد ذاته اغتصاب، هو إرادة إلحاق الأذى بالإرادة الأصلية للروح الذي ينزع من دون انقطاع إلى الظاهر والسطح؛ وفي كلّ إرادة للمعرفة قطرة من السبْعية.

230

إرادتنا المضادة لتسطيح إرادة الروح الأصلية: قد لا يفهم المرء من تلقاء نفسه ما أطلقتُ عليه في هذا الصدد «إرادة الروح الأصلية»: إسمحوا لي بتوضيح... إنّ ذاك الشيء الأمّار الذي تسمّيه العامة «الروح» يريد أنْ يكون سيّداً داخل ذاته وخارجها وأنْ يشعر نفسه كذلك: إنّ له إرادة تحيل الكثرة إلى بساطة، إرادة حازِمة ومروِّضة ومتسلّطة وسيّدة حقاً. وحاجاته وقدراته بهذا الصدد هي كتلك التي يلاحظها الفيزيولوجيون لدى كلّ حيّ ينمو ويتكاثر. وتتجلّى قوة الروح القادر على تملّك الغريب، في ميله

الشديد إلى جعل الجديد مماثلاً للقديم، وإلى تبسيط المتنوّع وتجاهل الكلّي التناقض أو نبذه. وعلى النحو عينه، ينتقي الروح سماتٍ وخطوطاً معيّنة في كلّ جزء من «العالم الخارجي»، في ما هو غريب، ليبرزها اعتباطاً ويزيّفها على هواه. وينزع الروح هنا إلى استيعاب «تجارب» جديدة، وإدراج أشياء جديدة تحت سلسلات قديمة. أي إلى النمو، وبتعبير أدق، إلى الشعور بالنمو، إلى الشعور بالقوة المتزايدة. وتلك الإرادة عينها تعمل في خدمتها غريزةٌ للروح تبدو معاكسة، قرارٌ ينبلج فجأة، قرار بالجهل والانطواء الاعتباطي، قرار ليس سوى إغلاق للنوافذ ورفض جوّاني لهذا الشيء أو ذاك وحال من التمنّع والتحصّن ضد الكثير مما يمكن معرفته، اقتناع بالإبهام والأفق المحكَم الإغلاق وترحيب بالجهل واستحسان له: هذا وكلّه لازم للروح وفقاً لدرجة قدرته على التملّك أو «قدرته على الهضم»، إنْ صحّ التشبيه، ذلك أنّ «الروح» يشبه المعدة فعلاً أكثر من أيّ شيء آخر. ثمة كذلك إرادة للروح بأنْ يكون عرضة للانخداع، بين حين وآخر، وربما مع توجّس ماكر من ألّا تكون الأمور على هذا النحو أو ذاك، بل من أنْ يُنظر إليها فقط على أنّها هكذا. إنها إرادة تلتذّ بكلّ حيرة والتباس وتغتبط جوّانياً بالانزواء التعسّفي في ركن خفيّ ضيّق، وبرؤية الأشياء من منظار قريب جداً، من واجهتها، وبرؤيتها مكبّرة أو مصغّرة، معوّجة ومزيّنة، وقل إنها إرادة تلتذّ بكلّ ما لتجلّيات القدْرة هذه من عسف. وثمة أخيراً ذاك الاستعداد الذي لا يخلو من الشبهة، استعداد الروح لخداع أرواح أخرى وللتظاهر أمامها، ذاك الدفع والاندفاع المتّصل الخاص بقوّة خالِقة وماهرة في التشكيل والتبدّل: فالروح يلتذّ هنا بتنويع أقنعته ومكره، كما

يلتذّ هنا أيضاً بإحساس الأمان ـ ذلك أنّ فنونه البروتيوسية[1] تحصّنه وتخفيه على أحسن وجه!. ضد هذه الإرادة التي تنشد الظاهر والتبسيط والقناع والرداء، والسطح باختصار ـ إذ كلّ سطح هو رداء ـ تفعل نزعة العارِف السامية التي ترى وتريد أنْ ترى الأمور بعمقها وتعدّدها وأغوارها: نزعة هي بمثابة سبْعيّة في الذوق والوجدان العقلاني، سبْعيّة سيقرّ بها كلّ مفكّر رابط الجأش إذا ما صلّب نظرته إلى نفسه، كما يليق به أن يفعل، وشذّبها لمدة كافية، واذا ما تعوّد على التأدّب الصارم واللهجة الصارمة أيضاً. وهو سيقول: «ثمة شيء ما سبْعيّ في نزعة روحي». فليحاول اللطفاء والفضلاء إقناعه بغير ذلك!. وللحقّ، لو نمّوا علينا، نحن الأرواح الحرّة والحرّة جداً، لو تناقلت الألسن وتهامست تمجيداً لنا، أننا نتمتّع، عوضَ السبْعيّة، «باستقامة مفرطة» مثلاً، لكان لهذا وقع ألطف على السمع... وقد يكون مجدنا ذات يوم فعلاً على هذا المنوال؟ أما في هذا الأوان، إذ ما زال ذاك الزمان بعيداً، فنحن بالذات آخر مَن يميل إلى التزيّن بمثل هذه الفصاحة الأخلاقية والتمسّك بأهدابها: إنّ كلّ عملنا السابق أفسد علينا هذا المذاق وترفه الدسم بالذات: الاستقامة وحبّ الحقيقة وحبّ الحكمة والتضحية في سبيل المعرفة والبطولة إحقاقاً للحق، ـ إنّها لألفاظ جميلة وبرّاقة ورنّانة ومهيبة، ألفاظ تحمل المرء على أنْ ينتفخ كبرياءً. لكننا، نحن المتوحّدين والمناجذ، قد اقتنعنا منذ زمن بعيد، وفي كلّ سرّية وجداننا المتوحِّد، بأنّ هذا الإطناب اللفظي الجليل ينتمي هو الآخر إلى الزواق والزركش والسقط

---

(1) Proteus: بروتيوس، شيخ البحر، له قدرة على أن يتحول إلى حيوانات وجوامد.

الكاذب العتيق للغرور البشري اللاواعي، وبأنّ مثل هذه الألوان والأصباغ المداهِنة يجب أنْ لا تحول دون التعرّف إلى النص الأصلي الرهيب «إنسان الطبيعة»[1]. ذلك أنّ إعادة ترجمة الإنسان إلى الطبيعة؛ والتغلّب على التأويلات والمعاني الجانبيّة الصلفة والمغالية الكثيرة، التي خطّت وشحبطت فوق ذلك النص الأصليّ الأبديّ «إنسان الطبيعة»؛ وجعْل الإنسان ينظر إلى الإنسان، من الآن فصاعداً، كما ينظر اليوم إلى الطبيعة الأخرى، أي قاسياً بفضل التأدّب بالعِلم، بل بعين أوديب المقدامة وأذن عولِسْ الطرشاء، غير آبهٍ بإغواء ألحان صياديّ العصافير الميتافيزيقية العجائز الذين أطالوا عليه تغريد اللحن: «أنت أزيد! أنت أعلى! أنت ذو أصل آخر!» ـ كلّ هذا قد يكون مهمة غريبة وجنونية، لكنّها مهمة. من يريد إنكار ذلك! ولِمَ اخترناها، هذه المهمة الجنونية؟ أو بسؤال آخر: «لِمَ المعرفة بعامة؟». كلّ امرىء سيطرح علينا هذا السؤال. نحن، مدفوعين إلى هذا الحد، نحن الذين قد طرحنا السؤال عينه على أنفسنا مئات المرات، نحن لم نجد ولن نجد جواباً أفضل. . .

231

قبلية مشاعرنا القيمية: التعلّم يغيّرنا، إنّه يفعل فعل كلّ غذاء لا يقتصر هو الآخر على «حفظ الحياة»، كما يعلم الفيزيولوجي. لكن، في صميمنا، «هناك في القاع»، يكمن بلا ريب شيء ما لا يقبل أيّ تعليم، يكمن قدر روحي من صلابة الغرانيت، قدر يقدّر

(1) أي إنسان الفطرة: Homo natura.

علينا سلفاً القرار والجواب عن أسئلة مختارة ومقدّرة سلفاً هي الأخرى. فلدى كلّ مشكلة جذريّة ينطق الـ «أنا هكذا» اللامتبدّل. بصدد الرجل والمرأة، على سبيل المثال، لا يمكن لمفكّر أنْ يمحو ما يعلمه، بل فقط أنْ يذهب إلى منتهاه، أنْ ينهي اكتشاف ما كان «ثابتاً» عنده بهذا الصدد. إننا نجد في الوقت المناسب حلولاً لمشكلات معينة، حلولاً تمنح لنا بالذات إيماناً قوياً؛ وقد ندعوها، منذ ذاك الوقت، «قناعاتنا». لكن، فيما بعد سنرى فيها مجرد آثار أقدام تؤدّي إلى معرفة الذات، معالم إلى المشكلة الكبيرة التي هي نحن، أو بعبارة أصحّ، إلى الحمق الكبير الذي هو نحن، إلى قدرنا الروحي، إلى رافض التعلّم «هناك في القاع»... على ضوء هذه اللطافة البالغة التي ارتكبتُها للتوّ بحق نفسي سأكون على الأرجح أولى بإعلان بعض الحقائق عن «المرأة في ذاتها»، شرط أنْ يكون بعلمكم من الآن فصاعداً: إلى أي حدٍّ هي حقائقي الخاصة وحسب...

232

المرأة في ذاتها: ـ تريد المرأة أن تستقلّ، وفي سبيل هذا تشرع في تنوير الرجال حول «المرأة في ذاتها». إنّ ذاك شكل من أردأ أشكال التقدّم الملازمة لتقبيح أوروبا العام. هذه المحاولات الأنثوية العِلميّة الخرقاء، هذا التعرّي، كم يضيء!. دواعي الحياء كثيرة لدن المرأة؛ في المرأة يكمن كثير من سمات المتحذلق والمدرِّس والسطحي، كثير من تافه الادّعاء والاستهتار والتعجرف ـ حسبك أنْ تدرس مخالطتها للأطفال! ـ وهو في الواقع، ما كُبح وروِّض حتى الآن على أفضل وجه بالخوف من

الرجل. فالويل لنا من ساعةٍ تجرؤ فيها على إبراز «المضجر الخالد في المرأة»! ـ وكم تزخر به! ـ وساعة تبدأ بأنْ تنسى، بصورة مبدئيّة وجذرية، ذكاءها وفنّها، أعني في الرشاقة واللعب، في الخفّة والتخفيف وتبديد الهمّ، ومهارتها اللطيفة في ري شهوات محبّبة! وها الآن، ترتفع أصوات نسائية، ترتعد لها الفرائص ـ قسماً بأرستوفان المقدّس!. وهي تهدّد، بلهجة الطبيب العارف، بما تريده المرأة من الرجل أوّلاً وأخيراً. ألا ينمّ ما تجهد به المرأة في سعيها إلى العِلميّة، عن أردأ الأذواق؟ حتى الآن، ولحسن الحظ، كان التنوّر شأن الرجال وهبة الرجال. بقي المرء «بين أهله». أخيراً، يحقّ للمرء أن يتحفّظ حيال كلّ ما تكتبه النسوة في «المرأة»، وأن يسأل: هل تريد المرأة أصلاً تنويراً حول ذاتها. هل يمكن لها أنْ تريده؟... إن لم تكن المرأة بذلك تبحث عن زينة جديدة لنفسها ـ وطالما حسبتُ أنّ التزيّن جزء من الأنثوي الخالد؟ ـ فإنها تريد، ولا شك، إثارة الخوف من نفسها. وربما بهذه الطريقة تريد السيادة. لكنّها لا تريد الحقيقة، فالحقيقة آخر همّها! ومنذ البدء والأمر هكذا... لا شيء أغرب عن المرأة من الحقيقة، لا شيء تمقته وتعافه أكثر من الحقيقة، فنّها الكبير هو الكذب وغرضها الأعلى هو الظاهر والجمال. ولنعترف، نحن الرجال، بأنّنا نكرّم ونحبّ في المرأة هذا الفن بعينه وهذه الفطرة بعينها، نحن الذين نحمل وزراً ثقيلاً ونحبّ أن نخالط، ترويحاً عن أنفسنا، كائناتٍ يكاد يبدو، تحت رقّة أيديها ونظراتها وحماقاتها، ما لنا من جدّ وثقل وعمق وكأنه حماقة بدوره. وفي النهاية أطرح السؤال: هل أقرّت امرأة يوماً لرأس امرأة بالعمق ولقلب امرأة بالعدل؟ أليس من الصحيح إجمالاً أنّ «المرأة» لقيت حتى الآن أشدّ الازدراء من قبل المرأة نفسها،

وليس منّا البتة؟. فنحن الرجال، نتمنّى ألّا تستمر المرأة في فضح نفسها بالتنوير، وذلك على نحو ما رعى الرجل المرأة ورفق بها حين أصدر مرسوماً كنسياً يقول: فلتخرس المرأة في الكنيسة![1]، وعلى نحو ما أسدى نابوليون خدمة للمرأة حين أفهم مدام دو ستايل اللسناء جداً: فلتخرس المرأة في السياسة[2]، وأَظنّ أنّ من ينادي بهن اليوم: فلتخرس المرأة حول المرأة![3]، إنما هو صديق حقيقي للنساء.

233

أمثلة تسوّد الوجه: إذا ما استشهدت امرأة ما بمدام رولاند أو مدام دو ستايل أو مسيو جورج ساند بالذات، كما لو كان هذا الاستشهاد برهاناً لصالح «المرأة في ذاتها»، فإن ذلك ينمّ عن فساد الفِطرة من دون ذكر رداءة الذوق. أما بين الرجال فتُعدّ المذكورات الثلاث أضحوكة النساء «في ذاتها». لا غير. ولذا فهنّ تزوّدن المرء، من دون قصد، بأفضل الحجج ضد التحرّر والتجبّر الأنثوي.

234

رودس هنا. إقفز هنا[4]! ـ يا للغباء في المطبخ! يا للمرأة

---

(1) Mulier taceat in ecclesia.

(2) Mulier taceat in politicis.

(3) Mulier taceat de muliere.

(4) Hic rhodus, hic salta.

كطبّاخة، يا للإهمال المرعب في تغذية العائلة وربّ البيت! المرأة لا تفقه معنى الطعام، وتريد أنْ تكون طبّاخة! ولو كانت المرأة كائناً مفكراً لوجب عليها، لكونها طبّاخة منذ آلاف السنين، أنْ تعثر على أكبر الحقائق الفيزيولوجية وتمتلك كذلك فنّ العلاج! إذ بسبب رداءة الطبّاخات، والغياب الكامل للعقل في المطبخ، أُعيق تطور الإنسان لأطول مدّة، وأُنزل به أشدّ الضرر. وليس الأمر اليوم على أفضل بكثير. هذا كلام موجّه إلى بنات الطبقة الرفيعة.

235

الأمّ في القرن الثامن عشر: ـ يوجد نوع من العبارات والومضات الروحية، يوجد نوع من الكلمات التي لا تتعدّى حفنة من الألفاظ، يتبلّر فيه على الفور مجتمع بأكمله، بل حضارة بأسرها. ومنه تلك الكلمة لمدام دو لامبير إلى ابنها إذ قالت له: «يا عزيزي، لا تسمح لنفسك البتة إلّا بالحماقات التي تمنحك لذّة كبرى»[1]. وهي، على فكرة، الكلمة الأكثر أمومة وذكاءً التي وُجّهت يوماً إلى ابن من الأبناء.

236

الجنس الضعيف[2]. إن كلّ امرأة نبيلة الخلق ستتصدّى، ولا شكّ، لما آمن به كلّ من دانتي وغوته بصدد المرأة. الأول حين

---

(1) «Mon ami, ne vous permettez jamais que de folies qui vous feront grand plaisir».

(2) Sexus sequior.

أنشد «نظرتْ إلى أعلى ونظرتُ إليها»[1]، والثاني حين ترجم «الأنثوي الخالد هو ما يجذبنا نحو العلى». سنتصدّى للإيمان هذا لأنها تؤمن الإيمان عينه بصدد الرجولي الخالد...

سبعة أقاويل صغيرة للنسوة

إنْ يتوسل إلينا رجل، بطرفة عين يفرّ الضجر!
العِلم والعمر، يا للحسرة!، يعززان الفضيلة الواهنة.
تكتّم وثوب أسود: حلّة فطنة لكلّ امرأة.
لمن أشكر سعادتي؟ لله... ولخيّاطتي.
في الصبا: مغارة بالأزهار مكلّلة. في الشيخوخة: تنين يهبّ منها.
إسم نبيل وساق جميل، ورَجل أيضاً: يا ليته لي!.
كلام قصير طويل المعنى: جليد مزلِق للحمارة!.

237

عذبة في القفص: لقد عامل الرجال النساء حتى الآن وكأنهن عصافير تائهة هبطت إليهم من علياء ما، أي بوصفهن شيئاً ألطف وأرقّ وأعذب وأغرب وأكثر حوشية وعاطفية... لكن، بوصفهن شيئاً يجب حبسه في قفص لئلا يفرّ طائراً.

238

محرِّرو النسوة يسقطون من العين: أنْ يغلط المرء بصدد

---

(1) Ella guardava suso, ed io in lei.

المشكلة الأساسية: «الرجل والمرأة»، وأنْ ينكر، بصدد ذلك، التناحر البعيد الأغوار ووجوب التوتّر العدائي أبداً، وأنْ يخطر له أنْ يحلم بالمساواة في الحقوق والتربية والمتطلّبات والواجبات، فإن ذلك علامة فارقة للرأس المسطَّح، وأيّ مفكّر أثبت أنه مسطّح في هذا الموضع الخطر ـ مسطّح في الفطرة! ـ يمكن أنْ يُعدّ مشبوهاً بعامة، بل أكثر، مكشوفاً ومفضوحاً. ويغلب على الظن أنّه سيكون «قصير الباع» حيال كلّ مسائل الحياة الأساسية والحياة المقبلة أيضاً، ولن يمكن له أنْ يسبر أيّ غور. أما الرجل العميق في روحه كما في رغباته، والعميق أيضاً في ذلك العطف القادر على الصرامة والقسوة والشبيه بهما شبهاً كبيراً، فلا يمكن له أنْ يفكّر في المرأة إلّا شرقيّاً دائماً: عليه أن ينظر إلى المرأة بوصفها مُلْكاً، بوصفها ملكية يُقفل عليها، بوصفها شيئاً كتب عليه أن يخدم وأن يجد كماله في ذلك، عليه أن يركن هنا إلى فهم آسيا العظيم وإلى تفوّقها الفطريّ: شأنه في هذا شأن الإغريق القدامى، وهم أفضل تلامذة آسيا وأحسن ورثتها، وقد صاروا، كما هو معلوم، وخطوة خطوة، مع تزايد الحضارة وسِعة القوة، ابتداء بهوميروس ووصولاً إلى عهد باريكليس، أشد صرامةً تجاه المرأة أيضاً، وباختصار، أكثر شرقيةً. كم كان هذا ضروريّاً ومنطقيّاً، بل مستحبّاً من الناحية الإنسانية... فليتفكّر المرء في ذلك بنفسه!

239

انحطاط المرأة: نتيجة لانحطاط الرجل: لم يعامل الرجال الجنس الضعيف، في أيّ عصر سابق، بالاحترام الذي يكنّونه له في عصرنا. وهذا، شأنه شأن لا-اعتبار الشيخوخة، ينتمي إلى

الميل والذوق الديموقراطي. ولِمَ العجب، إذا ما سارعت المرأة إلى إساءة استعمال هذا الاحترام؟ إنها تريد أكثر بعد، وتتعلّم أنْ تكون متطلبة، وتكاد أخيراً، تعدّ هذا الاحترام بمثابة إهانة، إذ باتت تفضّل التسابق، بل المبارزة من أجل الحقوق. وبكلمة، إن المرأة تفقد الحياء. ولنسارع إلى الإضافة: إنها تفقد الذوق أيضاً. إنها تتعلّم أنْ لا تخاف الرجل: لكنّ المرأة التي «تتعلّم أنْ لا تخاف» تتخلّى عن أكثر فطرها أنوثةً. وإنّه لمن المنصف تماماً، ومن المفهوم أيضاً، أنْ تتجرأ المرأة على رفع رأسها حين يكفّ الرجل عن أنْ يريد، وعن أنْ ينمّي ما، فيه، يبعث على الخوف، وما هو، ولنقلها بكلّ صراحة، الرجولة فيه. ولكن ما هو أعسر على الفهم هو أن المرأة تنحطّ بسبب من هذا بالذات. وهو ما يحدث اليوم. فلا نُخْدَعن بهذا الصدد! أينما انتصر الروح الصناعي على الروح العسكري والأرستقراطي، نراها تسعى إلى الاستقلال الاقتصادي والحقوقي الخاص بالشغيل. «المرأة شغيلاً»، ذاك ما هو مكتوب فوق بوّابة المجتمع الحديث الذي هو قيد التشكّل. لكن، بينما تستولي المرأة بهذه الطريقة على حقوق جديدة وتسعى إلى أنْ تصير «السيّد» وتكتب على أعلامها وخِرَقها «التقدّم» للمرأة، يحدث، بوضوح مفزع، عكس ذلك: المرأة إلى تقهقر. إن نفوذ المرأة في أوروبا، منذ الثورة الفرنسية، يتضاءل بقدر ما تزداد حقوقها ومطالبها. وعلى هذا النحو فإن «تحرّر المرأة»، بقدر ما تطالب به وتشجّع عليه النساء أنفسهن (وليس الرؤوس الذكريّة المسطَّحة وحسب)، إن هذا التحرّر يتجلّى عارضاً لافِتاً من عوارض تزايد الضعف والفتور في أكثر الفِطَر أنوثةً. ثمة غباء في هذه الحركة، غباء يكاد يكون ذكوريّاً، وعلى كلّ امرأة حسنة التكوين، أي ذكيّة بالضرورة، أن تخجل منه الخجل كلّه.

إنّ فقدان حاسة الشم التي ترشد إلى أضمن المواقع للنصر؛ وإهمال التدرّب على فنون استعمال السلاح الخاصّة بهنّ؛ والاستهتار بالنفس أمام الرجل، وصولاً إلى «تأليف الكتب» ربّما، عِوضَ التحلّي بتأدّبٍ وتواضعٍ لطيفٍ ماكر، كما في السابق؛ والتصدّي بصلف متعفّف لإيمانِ الرجل بأمثل مختلف كلّياً، بشيء ما، أنثوي أبداً وضرورةً، تلتفع به المرأة؛ والحرص على إقناع الرجل، بذلاقة وإلحاح، بأن المرأة، شأنها شأن حيوان داجن رقيق، حوشيّ غريب ممتع في الغالب، لا تحتاج إلى من يحوطها ويرعاها ويحميها ويرفق بها؛ والبحث باستياء أخرق عن كلّ العبوديّة والتبعيّة التي اتصف بها وضع المرأة في نظام المجتمع السابق ولا يزال (وكأنّ العبودية حجّة ضد كلّ حضارة راقية. وليست بالأحرى شرطاً لها ولكل ترقٍّ حضاريّ): ماذا يعني كل هذا، يا ترى، إن لم يعن أنّ الفطر الأنثوية تتضعضع وأنّ المرأة تخلع أنوثتها؟ ثمة، بالطبع، في صفوف البغال المتعلّمة من الجنس الذكريّ، عدد كاف من أصدقاء النساء ومفْسِدي النساء الحمق الذين ينصحون المرأة بأنْ تتحرّر على هذا النحو من أنوثتها، وتقلّد كل الحماقات التي أصيب بها «الرجل» في أوروبا، و«الرجولة» الأوروبية. ومنهم من يريد الهبوط بالمرأة إلى مستوى «الثقافة العامة» وجرّها حتى إلى قراءة الجرائد ومزاولة السياسة. وهنا وهناك، من يريد جعل النساء أرواحاً حرة وأديبات: وكأنّ امرأة بلا تقوى ليست امرأة كريهة ومضحكة كلّياً في نظر رجل عميق وملحد؛ وفي كلّ محل تقريباً، يُفسدون أعصابهنّ بأخطر نوع من الموسيقى وأكثرها سقماً (موسيقانا الألمانية الحديثة)، فيجعلونهنّ، يوماً عن يوم، أكثر هيستيريّة وأقل استعداداً لمهنتهنّ الأولى والأخيرة، وهي إنجاب الأولاد الأقوياء. وعلى العموم،

يريد المرء أنْ يزيدهنّ «تحضّراً»، أو كما يقال، أنْ يقوّي «الجنس الضعيف» بالحضارة: وكأنّ التاريخ لم يعلّم، بأكبر قدر ممكن من الإلحاح، أن «تحضّر» الإنسان وضعفه، أي إضعاف قوة إرادته وتشتيتها وتوهينها، سارا دائماً اليد باليد، وأن أكثر النساء سلطةً ونفوذاً في العالم (ووالدة نابوليون هي المثال الأخير) لا يُدِنَّ بسلطتهن وتفوّقهن على الرجال للمدرّسين، بل لقوة إرادتهنّ بالذات. إن ما يبعث على احترام المرأة، وفي الغالب على الخوف منها، هو طبعها، وهو «أشدّ التصاقاً بالطبيعة» من طبع الرجل: مرونتها السبْعية الماكرة الأصيلة، مخالبها الضارية تحت القفّاز، سذاجتها في الأنانية، تملّصها من التربية، حوشيّتها الدفينة وكلّ ما لرغباتها وفضائلها من واسع ومتفلّت لا يقبل الاحتواء... لكنّ ما يدفع على الرغم من كلّ الخوف، إلى الإشفاق على «المرأة»، على هذه القطّة الخطرة الجميلة، هو أنها تبدو أكثر عرضة للمعاناة والعطب والخيبة وأشد حاجة إلى الحبّ من كلّ البهائم. الخوف والشفقة... بهذين الإحساسين وقف الرجل حتى الآن أمام المرأة، دائماً على حافّة التراجيديا التي تسحر وتمزّق معاً... ماذا؟ هل يُجْهِزون الآن على كل ذلك؟ هل يعملون على تجريد المرأة من سحرها؟ هل يجعلونها شيئاً فشيئاً مُضجرة؟ إيه، أوروبا، أوروبا! نعرف الحيوان الأقرن الذي يجذبك دائماً أشدّ الجذب، الذي يهدّدك أبداً من جديد! أسطورتك القديمة قد تمسي مرة أخرى «تاريخاً». مرة أخرى قد يسيطر عليك غباء عظيم ويحملك بعيداً! غباء تحته لا يختبىء إله، لا! بل «فكرة» وحسب، «فكرة حديثة»!...

الفصل الثامن

أقوام وأوطان

240

في النفس الألمانية: ها قد استمعتُ مرة أخرى إلى افتتاحية الـ مايسترزِنْغر[1] لريشارد فاغنر، وكأني أسمعها للمرة الأولى: يا له من فن مفخّم مثقل رزين مكتهل، فن يتباهى بافتراض ذكرى حية لقرنين من الموسيقى، من أجل فهمه: إنه لشرف للألمان أن التباهي هذا لم يخطىء فأله!. فالصلب والرطب، الفصول والأقاليم تمتزج هنا أيّ امتزاج! وهو يبدو حيناً قديماً وحيناً آخر غريباً وفجّاً وفتيّاً مفرطاً في الفتوّة. وهو غير منضبط وتقليدي مطنب في آن. لعوب في الغالب وغليظ جلف في الأعمّ الأغلب. ناريّ ومقدام، ومعاً مترهّل وذابل كإهاب ثمارٍ تأخّرت عن النضج. يسيل واسعاً ومليئاً، وفجأة، لحظة من التردّد المبهم أشبه بشقّ ينفتح بين السبب والمسبَّب، وأشبه بثقل يجعلنا نحلم

(1) Die Meistersinger: ملوك الغناء، أوبرا، عرض أول، مونْشن 1868.

ونُكَوْبِس أو نكاد، لكن، سرعان ما يجري سيل الانشراح القديم فيتوسّع ويتمدّد. . . سيل من الانشراح على أنواعه، من سعادة قديمة وجديدة أضف إليها: وأكثر سعادة الفنان بذاته، سعادةً لا يتكلّف بإخفائها، وكأنه يشاطرنا، بدهشة وغبطة، العلم بفحولة الوسائل التي استعملها هنا. كأنه يبوح لنا أنها وسائل فنيّة جديدة، حديثة الابتكار وغير مجرّبة من قبل. والخلاصة، أن هذا الفنّ ليس جمالاً وليس جنوباً، فلا أثر فيه من رقيق البهاء في سماء جنوبيّة، ولا أثر فيه من الرشاقة والرقص، ويكاد يخلو من أيّ إرادة للمنطق. بل ثمة حتّى تثاقل معين ومصطنع، كما لو أنّ الفنان أراد أن يقول لنا: «إنه مقصود»؛ ثمة تلافيف غليظة، شيء ما بربري اعتباطاً ومهيب، وهج من النفائس والدرر الجليلة العالمة؛ شيء ما ألماني في أفضل معنى للكلمة وأردئه، شيء ما على المنوال الألماني يتضاعف، يتكتّل ولا يُستنفد؛ جبروت ألماني وغمرة نفس لا تخشى الاختباء تحت رَهَف الانحطاط، بل ترتاح إليه أكثر من أيّ شيء سواه؛ تلكم أمارة أصيلة وحقّة للنفس الألمانية الفتيّة والبائدة في آن، المفرطة في النضج والطافحة بالآتي: هذا اللون من الموسيقى هو ما يعبّر على أفضل وجه عن رأيي في الألمان: إنهم من قبل أمس ومن بعد غد ـ فلا حاضر لهم بعد.

241

بسمارك: لنا أيضاً، نحن «الأوروبيين الصالحين»، ساعات نسمح لأنفسنا فيها بقوقعة وطنية دسمة، بسقطة ونكسة تتقهقر بنا إلى أهواء وزوايا ضيّقة قديمة ـ وقد عرضت للتوّ مثالاً لها ـ

ساعاتٍ من الفورات القومية والهواجس الوطنية وإلى ما هنالك من فيضانات عاطفيّة بالية. ولعلّ أرواحاً أكثر تثاقلاً منا لا تأتي، على ما يؤتى عليه عندنا في ساعات وينتهي في ساعات، إلّا بعد مرور مراحل زمنيّة أطول، بعد انصرام نصف سنة عند بعضهم وبعد انقضاء نصف العمر عند بعضهم الآخر، وذلك وفقاً لسرعة هضمها و«أيضها» وقوتهما. بل يمكن لي أن أتخيّل أعراقاً خافتة متأنّية تحتاج، حتى في قارتنا الأوروبية العجول، إلى نصف قرن من أجل أن تتغلّب على نوبات من ذلك القبيل، نوبات حنين ترجعها إلى التقوقع الوطني والالتصاق بتراب الوطن، ومن أجل أن تعود من ثمّ إلى رشدها، أو قلْ إلى «الأوروبية الصالحة». وإذ أسترسل في هذا الاحتمال يشهد سمعي حديثاً بين «وطنييْن» عجوزيْن... كان الإثنان، في الظاهر، ممن لا يحسن السمع، ولذا كانا يتحدّثان صراخاً. فيقول أحدهما: «هذا لا يعلم ولا يهتمّ بالفلسفة إلّا بقدر ما يهتمّ بها فلاح أو طالب مجنّد. هو ما زال بريئاً. لكن ذلك لا يهمّ اليوم. فالعصر هو عصر الجماهير. وتراها منبطحة أمام كلّ ما هو جمهوري. كذلك الأمر في السياسة فرجل دولة يشيّد لها برج بابل جديداً أو أيّ مملكة جبارة قويّة، يسمّى عندها «كبيراً». ولا يهمّ أننا نحن الأكثر حذراً وتحفّظاً، لم نتخلّ بعد عن الإيمان القديم بأن الفكرة الكبيرة وحدها تضفي كبراً على الفعل والقضيّة. لنفرض جدلاً أن رجل دولة يزجّ شعبه في وضع يفرض عليه أنْ لا يعود يمارس إلّا «سياسة كبيرة» من دون أن يكون مجبولاً عليها ومهيّأً لها، بحيث يضطر إلى التخلّي عن فضائله القديمة الوفيّة في سبيل وسطيّة جديدة مشبوهة. لنفرض أن رجل دولة يحكم على شعبه «بالتسيّس» عموماً، في حين أن هذا الشعب كان يفضّل إلى ذاك الحين أن يفكّر وينشغل بأمور

أفضل ولم يكن، في أعماقه، قد تغلّب على امتعاضه وحذره من التحريض والفراغ والمشاحنات الصاخبة التي درجت لأمم مسيّسة فعلاً. لنفرض أن رجل دولة كهذا يذكي همم شعبه ويوقظ أطماعه المطمورة ويعيّره بخفره السابق واستطابته للحياد، ويجعل من حبّه للغريب ولاتناهيه الخفيّ ذنباً، ويسقط القيمة عن أحرّ ميوله ويقلب ضميره ويضيّق روحه ويجعل ذوقه «وطنياً»، _ ماذا! رجل دولة يفعل كلّ ذلك، فيجبر شعبه على أن يكفّر عن ذنوبه إلى أبد الآبدين، إنْ ظل له مستقبل، رجل دولة كهذا أهو كبير؟». ويردّ الوطني العجوز الآخر بحميّة: «بلا شك! وإلّا لما كان بوسعه أنْ يفعل ذلك! أتلمّح إلى أنه من الجنوني أن يريد أمراً كهذا؟ لكن، ربما لم يكن كل كبير في بدئه سوى جنونيّ!» فيصيح به خصمه: «هذا تلاعب بالألفاظ! هو قويّ! قويّ وجنونيّ! لكنه ليس كبيراً!»... كان الرجلان العجوزان قد تحمّسا تحمّساً ظاهراً حين تقاذفا على هذا النحو «بحقائقهما». أما أنا فرجّحتُ، في سعادتي وما ورائي، أنّ سيادة من هو أقوى على القويّ آتية بسرعة، ورجّحتُ أيضاً أن لتسطّح الروح لدى قوم من الأقوام تعويضاً، ألا وهو تعمّقه لدى قوم آخر.

242

لا بد من أن يقعوا ذات يوم في أيدينا: إن سمّى المرء ما يُحسب الآن امتيازاً للأوروبيين «تحضّراً» أو «تأنّساً» أو «تقدّماً»، أم سمّاه ببساطة، من دون مدح وقدح وبصيغة سياسيّة، الحركة الديموقراطية الأوروبية: فإنّ ما يجري خلف كل الواجهات الأخلاقية والسياسية التي تشير إليها مثل هذه الصيغ، هو سيرورة

فيزيولوجية عظيمة يزداد سريانها أكثر فأكثر... إن الأوروبيين يسيرون نحو التماثل، نحو انعتاقهم المتنامي من شروط تنشأ بموجبها أعراق مقيّدة مناخياً وطبقياً، نحو استقلالهم المتزايد من كلّ بيئة معيّنة تريد أنْ تخطّ مطالبها الهي ـ هي في النفس والجسد على مرِّ الأجيال؛ وبالتالي سيظهر تدريجياً نوع بشريّ رحّال جوهريّاً وما فوق قوميّ، وبتعبير فيزيولوجي، نوع يبلغ الحد الأقصى في القدرة على التكيّف ويتفنّن فيه بوصفه خاصيّته المميّزة. إن هذه السيرورة نحو الأوروبيّ المقبل التي يمكن أنْ تخفّف من سرعتها نكسات كبيرة قد تنمّيها مع ذلك إذ تزيدها سطوةً وعمقاً، ومنها عاصفة «الحميّة القومية» التي ما تزال تهب الآن وكذلك الفوضوية الصاعدة في هذا الأوان؛ إن هذه السيرورة ستؤدي، على الأرجح، إلى نتائج هي آخر ما حَسِب له حساباً شفعاؤها ومادحوها السذّج، رسل «الأفكار الحديثة». إن الشروط الجديدة التي سينتج عنها بالمعدّل تسوية للإنسان ولمستواه بحيث يظل وسطياً ـ حيوان قطيع نافعاً، شغّيلاً ومتعدّد الاستخدامات والمهارات ـ إن هذه الشروط عينها ملائمة إلى أقصى درجة لتوليد أفراد أفذاذ من أخطر نوع وأكثره جاذبيّة. أعني أنّه، في حين تحول، دون بلوغ الطراز البشري أوج قدرته، تلك القدرةُ على التكيف التي تجرّب أبداً شروطاً متبدّلة وتبدأ، مع كل جيل وكل عقد تقريباً، مهمة جديدة؛ وفي حين سيكون الطابع الغالب على هؤلاء الأوروبيين المقبلين، بعامة، طابع الشغيل الصالح لشتّى الوظائف، والثرثار الضعيف الإرادة والسهل التسيير، طابع مَنْ حاجته إلى السيّد والآمر حاجته إلى القوت اليومي؛ في حين ستفضي الحركة الديموقراطية الأوروبية بالتالي إلى إنجاب طراز بشري معدّ للعبوديّة بألطف معاني اللفظ؛ فإنّ الإنسان القويّ لا بدّ

له من أنْ يصير، في حالات استثنائية وفريدة، أقوى وأغنى بكثير مما كان عليه يوماً من الأيّام، بفضل تربيته الخالية من التحكيمات، وبفضل التنوّع العظيم في التمرّن والتفنّن والتقنّع. أُريد أن أقول: إن الحركة الديموقراطية الأوروبية هي كذلك، ومن دون قصد، مشروع لتربية طغاة، بكلّ معنى الكلمة، بما فيه المعنى الأكثر روحية.

243

هيا نتبع الشمس: ها إني أسمع بسرور أن شمسنا منطلقة في حركة سريعة نحو برج هرقل: وكُلّي أمل أن يضاهي الإنسان على هذه الأرض الشمس في حركتها. وفي المقدمة نحن، الأوروبيين الصالحين!.

244

تعدّدية النفس الألمانية: مضى زمن جرت فيه العادة على مدح الألمان وتسميتهم شعباً «عميقاً»: أما وإنّ أنجح طراز للشخصية الألمانية الجديدة يستميت الآن في سبيل أمجاد مغايرة كلياً أو يعيب على كل عميق افتقاره إلى «المروءة»، فإنه ربما كان من الملائم للعصر والروح الوطني أن يتساءل المرء ما إذا لم يكن ذلك المدح السابق انخداعاً؟ أو بالأحرى: ما إذا لم يكن العمق الألماني في الواقع شيئاً آخر أردأ، شيئاً بتنا على وشك التخلّص الناجح منه والحمد لله! لنجرّب إذن أن نعيد النظر في العمق الألماني: ومن أجل هذا، ليس بنا حاجة سوى إلى قليل من التشريح للنفس الألمانية. إنّ النفس الألمانية هي، قبل كل شيء،

متعدّدة ومتنوّعة الأصول، وهي أشبه بمجمّع ومكدّس مما بمبْنى حقاً: والأمر عائد إلى محتدها. فحين يجرؤ الألماني على الادّعاء: «نفسان، واأسفاه!، يسكنان صدري!»[1]، يشوّه وجه الحقيقة أشدّ التشويه، أو على الأصحّ، يقصّر عن الحقيقة بنفوسٍ كثيرة. وحيث إنّ الألمان شعب تولّد من أعظم خلط وخبص بين الأعراق، وشعب قد يغلب عليه حتى العنصر السابق على الآريّ، وحيث هم من ثم «شعب الوسط» بكل معنى، فإنهم، عند ذواتهم، أكثر إبهاماً وسعة وتناقضاً ولبساً ونزوة ومفاجأة، وحتى أكثر إراعةً لأنفسهم من أيّ شعوب أخرى: إنّهم يملصون من التعريف ويدفعون الفرنسيين، بذلك وحده، إلى اليأس. إنه لسمة مميزة للألمان أن السؤال عن «ما الألماني؟» لا ينقرض عندهم البتّة. ولا شكّ في أنّ كوتْسبو[2] قد عرف مواطنيه الألمان حقّ المعرفة، إذ هلّلوا له «تمّ التعرّف إلينا». لكنّ زانْت[3] ظنّ، هو الآخر، أنّه يعرفهم. أما جان بول[4] فكان يعي ما يقوم به حين أعلن امتعاضه من تزلّف فيشته ومغالاته الكاذبة والوطنية معاً. لكن رأي غوته في الألمان يختلف على الأرجح عن رأي جان بول، وإن اتفق معه بصدد فيشته. على فكرة، ما هو رأي غوته أصلاً في الألمان؟ على كلّ حال، كان يمتنع دائماً عن الكلام الواضح على أمور عديدة من حوله، وقد تفنّن طوال عمره في التكتّم اللطيف: كانت لديه أسبابه الوجيهة، على الأرجح، والمؤكّد أنّ

(1) فاوست، غوته، الجزء الأول، المشهد الثاني.
(2) Kotzebue: (1761 ـ 1819)، كاتب مسرحي شهير في تلك الحقبة.
(3) Sand: (1795 ـ 1820) طالب اغتال كوتسبو عام 1819.
(4) Jean Paul: (1763 ـ 1825) كاتب ألماني، له أعمال هزلية شعبية.

ما زاد نظرته تفاؤلاً لم تكن «حروب التحرير» ولا الثورة الفرنسية. إن الحدث الذي حثّه إلى إعادة التفكير في الـ«فاوست» وفي مشكلة «الإنسان» بأسرها كان ظهور نابوليون. هناك كلمات لغوته يفنّد بها ما يفخر به الألمان بقسوة نفد صبرها، كما لو أنه تكلّم من الخارج: فهو يعرّف الـ«Gemüt»[1] الألماني الشهير ذات مرة بقوله «إنّه تغاضٍ عن نقاط ضعف الغير والذات». هل كان بذلك على خطأ؟ إن ما يميّز الألمان هو أن المرء لا يخطىء بصددهم كلياً إلَّا في ما ندر. فالنفس الألمانية تنطوي على ممرات والتواءات، فيها كهوف ومخابىء وسراديب؛ ولفوضاها الكثير من سحر المُلْغِز: يتقن الألماني نهج الشعاب الملتوية إلى الخاوُس. وكما يحبّ كلّ واحد مثاله، يحبّ الألماني الغيوم وكل ما هو أغبش ومتحوّل وغاسق ونديّ ومتلبّد.. إنّ المبهم والزائغ والممعن في النمو والتشكّل على أنواعه هو ما يبدو له «عميقاً». والألماني نفسه ليس قائماً، بل يصير و«يتطوّر». ولذا بات «التطوّر» البدعة والمأثرة الألمانية الأصلية في ملكوت الصيغ الفلسفية المترامي الأطراف. بات أفهوماً حاكماً يعقد حلفاً مع البيرة الألمانية والموسيقى الألمانية ليؤَلْمِن أوروبا برمّتها. ويتسمّر الأجانب بدهشة وانجذاب أمام الألغاز الذي يطرحها عليهم الطبع المتناقض في قرارة النفس الألمانية (والذي نظمه هيغل في سسْتام ولحّنه مؤخّراً ريشارد ڤاغنر). «طيب القلب ومخاتل». تجاور كهذا محال بالنسبة إلى أيّ قوم آخر. لكنه يصدق، للأسف، غالباً جداً في ألمانيا: يكفي أن تعاشر الشْوابْ لفترة من الزمن! إن تثاقل

(1) لفظ مشتق من Mut، نفس، روح، يدل على مجمل الملكات و«الخلجات» النفسية.

العالِم الألماني وافتقاره إلى اللياقة الاجتماعية ينسجمان انسجاماً رائعاً ومريعاً مع ما يضمره بداخله من جرأة رشيقة، وخفّة في البهلوة والرقص فوق الحبال تعلّمان جميع الآلهة معنى الخوف. فإن أراد المرء أنْ يرى النفس الألمانيّة معروضة أمام ناظريه[1]، فلا حرج عليه من إلقاء نظرة على الذوق الألمانيّ والفنون والعادات الألمانيّة: فيا للآمبالاة القروية في «الذوق»! يا للتجاور بين الأنبل والأحقر! يا للفوضى والغنى الشاملين مؤونة النفس هذه! يرزح الألماني تحت وزر نفسه، يرزح تحت كل ما يعيش. وهو يهضم تجاربه بصعوبة ولا «يجهز» عليها البتة؛ فالعمق الألماني هو في الغالب مجرّد عسر في الهضم أو تمهّل. وكما يميل كل المرضى المزمنين، وكل المصابين بعسر الهضم، إلى الراحة، يحبّ الألماني «الصراحة» و«الأمانة»: كم هو مريح أن يكون المرء صريحاً وأميناً: إن هذه الألفة، وهذين التساهل والتلاطف، وهذا الكشف للأوراق الذي تتلون به اللااستقامة الألمانية، قد تكون اليوم التنكّر الأخطر والأنجح الذي يتقنه الألماني. إنه فنّه الشيطاني[2] بصحيح المعنى. وبه يمكن له أن «يبلغ شأواً بعيداً» بعد. إنّ الألماني يرسل نفسه على سجيّته ويرمق الغريب بنظراته الألمانيّة الزرقاء الفارغة والوفيّة، وإذا بالغريب يخلط بينه وبين لباس نومه!. أردتُ أن أقول: مهما كان شأن العمق الألماني (وقد نسمح بيننا لأنفسنا بالضحك منه) فإنه من الأولى بنا أن نظلّ نجلّ ظاهره وصيته الحسن وأن لا نتنازل، بثمن زهيد، عن سمعتنا القديمة، سمعة الشعب العميق، مقابل

---

(1) Ad oculos.

(2) «المفستوفلي» نسبة إلى مفستوفلس في الـ «فاوست».

«المروءة» البروسية أو رمل برلين وظرفها. فأن يوحي شعب إل آخر بأنه ذكيّ أو عميق أو أخرق أو طيّب القلب أو مستقيم أو أحمق وأنْ يقيمه على هذا الاعتقاد، هو أمر حكيم، بل يمكن أن يكون عميقاً حتى! وأخيراً: على المرء أن يصون شرف اسمه، ـ وليس اسمنا عبثاً، الشعب الـ «تيوشه»[1]، الشعب الخدّاع...

245

النفس الأوروبية والموسيقى الألمانية: أين الأيام «الخوالي المجيدة». صداها خفُت مع موتْسرت[2] وموسيقاه: كم نحن سعداء الحظ لأن «روكوكُ» ـه ما زال يكلّمنا، ولأن «لطف صحبته» وحماسه الحنون وإعجابه الطفولي بالطِرَف الصينية والزخرفة، ولأن لطافة قلبه وإيمانه بالجنوب وتوقه إلى الرقّة والحبّ والرقص والتشبيب ما زال له أن يناجي بقيّة باقية فينا! وا أسفاه إذ عاجلاً أم آجلاً سينتهي هذا أيضاً!. ولكنْ، من يراوده الشك بأنّنا، في القريب العاجل، سنكفّ عن تذوّق بِتهوفن وفهمه!. وهو لم يكن سوى الرنين الأخير لموسيقى في طور الانتقال ولقطع أسلوبي، ولم يكن، مثل موتْسرت، فصلاً ختامياً لذوق أوروبي كبير ساد طوال قرون. إنّ بِتهوفن هو حدث بين بين، يجمع بين نفس عجوز واهنة تنكسر باستمرار ونفس آتية مفرطة في الفتوة لا تنفك تأتي؛ على موسيقاه تخيّم ثنائية نور

---

(1) «Tiusche» يلمح ن. إلى ترابط اشتقاقي وهمي، على الأرجح، بين لفظ «Tiutsch»، [أي Deutsch: ألماني]، ولفظ «Tiusch» الأصل المفترض للفعل «Täuschen»، خدع.

(2) موزار حسب الشائع.

ينبىء بهلاك أبديّ وأمل خالد جامح. . . ذلك النور عينه الذي غمر أوروبا حين كانت تحلم مع روسو وترقص حول شجرة الحرية الثورية لتنتهي أو تكاد بالتعبّد أمام نابوليون. أما اليوم، فيا لسرعة ذبول هذا\ الشعور بالذات؛ ما أصعب علينا مجرد أخذ \العِلم بهذا الشعور اليوم؛ وما أغرب أنْ تطرق آذاننا لغة روسو وشِلَر وشلي وبايرون وأمثالهم، وقد شقّ قدر أوروبا طريقه فيهم جميعاً إلى الكلمة وفي بِتهوفن إلى اللحن!. وما أتت به الموسيقى الألمانية فيما بعد ينتمي إلى الرومنسية أي، من منظار تاريخي، إلى حركة أقصر وأسرع زوالاً وأكثر سطحية من ذلك الفصل الأوسط الكبير، فصل انتقال أوروبا من روسو إلى نابوليون إلى ظهور الديموقراطية. خذوا ڤيبر[1] مثلاً. لكنْ، ماذا تعني لنا اليوم مؤلفاته مثل فرايشوتس أو أوبرون! أو مارشْنِر[2] بمؤلفاته، مثل هانس هايلنغ وفامبيرا! وحتى تانْهويْزر[3] لڤاغنر!. هذه الموسيقى اندثر صداها وإنْ لم تصِر بعد منسيّة تماماً. أضف أنّ هذه الموسيقى الرومنسية كلّها لم تكن نبيلة بما فيه الكفاية، لم تكن موسيقى بما فيه الكفاية لتبقى على حقّ في محلّ ما خارج المسرح وجمهوره: لقد كانت، منذ البداية، موسيقى من المرتبة الثانية ولا اعتبار لها عند موسيقيّين حقيقيّين. واختلف الأمر بالنسبة إلى فيليكس منْدلْسون، ذلك المعلّم الألقاوندي الذي ذاعت شهرته

(1) K.M.V. Weber: مؤلف موسيقي ألماني، (1786 ـ 1826)، له عدة أوبرات منها المذكورتان Freischütz وOberon.

(2) H. Au. Marschner: مؤلف موسيقي وقائد أوركسترا ألماني (1795 ـ 1861) له قطع موسيقية وأوبرات منها المذكورتان: Hans Heiling وVampyr.

(3) Tannhäuser: أوبرا رومنسية شهيرة لڤاغنر، عرض أول 1845 في درسْدن.

بسرعة وتبدّدت بسبب ما له من نفس أخفّ وأصفى وأكثر غبطة من سواها: إنّه في الموسيقى الألمانية بمثابة طارىء جميل. لكن، ماذا عن روبرت شومان الذي حمل الموسيقى على محمل الجِدّ وحُمل منذ البدء على محمل الجِدّ. وهو آخر من أسّس مدرسة: ألا نحسب اليوم أفول رومنسية شومان هذه حظّاً سعيداً واستراحة وانعتاقاً؟ إن شومان هذا اللاجىء إلى ما تنطوي عليه نفسه من «سويسرا ساكسونية»، المجبول نصفه على نسق ڤرتر[1] والنصف الآخر على نسق جان بول وليس بأي حال على نسق بِتهوفن أو بايرون!. موسيقاه «مانفريد»[2] هي هفوة تدلّ على سوء فهم يصل إلى حدّ الظلم. شومان بذوقه الذي كان في الواقع ذوقاً صغيراً (أي ميلاً خطراً، يتضاعف خطره عند الألمان، ميلاً إلى شاعرية ساكنة وعاطفية سكيرة)، شومان الرائغ جانباً باستمرار، المتقهقر واللائذ بالفرار في خجل، الإنسان الناعم المهذّب الراتع في أفراح وأتراح مغفلة جميعاً، والأشبه بنوع من عفاف لا يمسّ[3] منذ البداية: شومان هذا قد اقتصر على أن يكون حدثاً موسيقياً ألمانياً لا غير ولم يكن شأنه شأن بتهوڤن، وعلى نطاق أوسع، شأن موتسرت، حدثاً أوروبياً... فيه تتعرض الموسيقى الألمانية لأعظم الأخطار: أن تكفّ عن كونها صوتاً للنفس الأوروبية وأن تنحطّ لتمسي مجرد تقوقع وطني.

---

(1) Werther: بطل رواية غوته «آلام ڤرتر الشاب».

(2) Manfred: تراجيديا لبايرون، حاول نيتشه فيما بعد أن يلحّنها بدوره.

(3) Noli me tangere: لا تلمسني.

246

قرّاء ألمان: يا لعذاب من يقرأ كتباً ألمانية إن كان من ذوي الأذن الثالثة! يا لنفوره حين يقف أمام ذاك المستنقع الذي يتقلّب بتماهل وينضح بإيقاعات من دون رقص وبأصوات من دون رنين، ذاك المستنقع الذي يسمّى عند الألمان «كتاباً»!. فكيف بألماني يقرأ كتباً!... يا له من كسل وضجر وسوء في القراءة!. كم ألمانياً يعلم ويطالب نفسه بأن يعلم أنّ ثمة فناً في كل جملة جيدة، فنّاً يريد أن يستشفه المرء إن ابتغى الفهم! حتى إذا ما أخطأ في إيقاع الجملة، على سبيل المثال، يكون قد أساء فهم الجملة نفسها! فمَنْ مِن بين قرّاء الكتب الألمان يرَى أنّه ينبغي على المرء أن يكون على يقين من مقاطع اللفظ الحاسمة في الإيقاع، وأن يحسّ كسر التناظر البالغ الصرامة مقصوداً، وأن يدير أذناً صاغية صابرة إلى كلّ نغمة متقطّعة[1] وكل إيقاع حرّ[2]، وأن يحزر المعنى في توالي الحركات وحروف اللين ويرى كيف يمكن لها في هذا التوالي أن تتلوّن وتتألق بألوان كثيرة غنية ورقيقة: مَن من بين القرّاء الألمان، يا تُرى، يملك من حسن النيّة ما يفي بإقرار واجبات ومطالب من هذا القبيل، وبالإصغاء إلى كلّ ما في اللغة من فنّ وقصد؟ إنّ المشكلة، في النهاية، هي أن الأذن [الألمانية] غير معدّة لذلك: فهي لا تسمع التضادّ الأسلوبي الأقوى، ويذهب الإبداع الفنّي الألطف سدى كما لو أنه يُهدر أمام حمائم... تلك هي الأفكار التي راودتني حين لاحظتُ أن

(1) Staccato.

(2) Rubato.

الجمهور يخلط بجهل وسذاجة بين نابغتين في فنّ النثر، واحد تتساقط ألفاظه باردة متّئدة كما لو أنّها تقطر قطرة قطرة من سقف مغارة رطبة، فيترقّب صداها وتردّده الخافت؛ وآخر يستلّ لغته كالشيش اللدن فيحس من اليد إلى الأخمصين باللذة الخطرة لنصل مهتزّ رهيف يريد أنْ يلدغ ويفحّ ويقطع.

247

كلام الألمان وأسلوبهم: ما أضعف الصلة بين الأسلوب الألماني والصوت والأذن؛ ذاك ما يتجلّى عند خيرة موسيقيّينا بالذات وهم لا يحسنون الكتابة. لا يقرأ الألماني بصوتٍ عالٍ، لا يقرأ للأذن، بل بالعين وحسب: إنّه يهمل الأذن عند القراءة، كما لو كان وضعها في الجارور. أما الإنسان القديم فكان يقرأ على نفسه، إذا ما قرأ ـ وحدث ذلك نادراً ـ، أي كان يقرأ بملء صوته؛ وكان يندهش إذا ما قرأ أحدهم بصوت خفيف، وكان يتساءل خفية عن الأسباب. بملء الصوت: ذاك يعني بكلّ ما للصوت من نبرات تتصاعد وتنثني وتنقلب وبكلّ ما للإيقاع من تبدّلات، أي بكلّ ما كان يعجب به العالم القديم العلنيّ. وكانت قوانين الأسلوب الكتابي آنذاك هي هي قوانين الأسلوب الخطابي التي تعلّقت، من ناحية، بالتكوين المدهش للأذن والحنجرة وحاجاتهما المرهفة، ومن ناحية أخرى بقوّة الرئتين القديمتين وسعة أمدهما وجبروتهما. إن الوصلة، كما فهمها الأقدمون، هي قبل كلّ شيء، كلّ فيزيولوجي، من حيث يضمّها نفَس واحد. ومثل هذه الوصلات الواردة عند ديموستينس وشيشرون بتصاعدها

وهبوطها المزدوج خلال النَفَس الواحد هي ملذّات للإنسان \القديم الذي أحسن تقدير الفضيلة فيها وأحسن تقدير النادر والصعب في إنشاد وصلة كهذه بسبب ما تلقّاه من تعليم وتدريب. أما نحن، فلا حق لنا أصلاً في الوصلة \الكبيرة، نحن المحدثين والقصار النفس بكلّ معاني اللفظ! أولئك الأقدمون كانوا جميعاً من هواة الخطاب، وكانوا بالتالي ذوّاقة ونقاداً. وبذلك دفعوا خطباءهم إلى الأقصى؛ على نحو ما حدث في القرن الماضي في إيطاليا حين أجاد كل الإيطاليّين، رجالاً ونساء، الغناء، فازدهرت عندهم المهارة الغنائية (ومعها أيضاً فنّ التنغيم). لكن في ألمانيا لم يدرج، في الواقع، سوى لون واحد من الكلام العلني الذي يستأهل تقريباً لقب الفنّ (ما عدا بلاغة منبريّة معينة ظهرت حديثاً وباتت ترفرف بأجنحتها الفتيّة خجولة ومتثاقلة)، ألا وهو الكرْز على منابر الكنائس. إنّ الكارز وحده في ألمانيا كان يعلم كم يزن مقطع اللفظ أو اللفظ نفسه، وحده كان يعلم كيف يمكن للجملة أنْ تضرب وتقفز وتهرول وتجري وتختم، وحده كان يملك «ضميراً» سمعيّاً، وإنْ كان في الغالب ضميراً يؤنّب: ذلك أن الألماني بالذات نادراً ما يبلغ الفحولة في الكلام، وثمة أسباب كثيرة لذلك، وهو إنْ بلغها ففي معظم الأحيان بعد فوات الأوان. لذا من المنصف، أنْ تكون تحفة النثر الألماني هي التحفة الفنية التي جاء بها أكبر الكرّاز: إن \الإنجيل هو أفضل كتاب ألماني حتى الآن. وبالمقارنة مع إنجيل لوتر يبقى معظم ما كتب مجرد «إنشاء»، أي شيئاً لم ينبت في ألمانيا ولم يتغلغل بالتالي في القلوب الألمانية لينمو فيها، كما فعل الإنجيل.

248

عبقريتان: مبدِعة وصانعة: ثمة نوعان من العبقرية: نوع ينجب ويريد قبل كل شيء أنْ ينجب، ونوع آخر يحبّ أنْ يخصَّب ويلد. وعلى النحو عينه يوجد بين الشعوب العبقرية نوع قُدّر عليه الحمل الأنثويّ ومهمّة التشكيل والإنضاج والإكمال الخفيّة. ومنهم على سبيل المثال الإغريق وكذلك الفرنسيّون. ونوع آخر وجب عليه أن يُخصِّب ويصير سبباً لإنشاء نظم حياتية جديدة، كاليهود والرومان (وأسأل بكلّ تواضع، والألمان؟)، شعوب تتأجّج فيها حمّى مجهولة، حمّى تلوّعها وتفتنها وتحثّها بإلحاح لا يقاوم على الانطلاق خارج ذاتها. شعوب تهوى وتشتهي أعراقاً غريبة (تلك التي «تقبل التخصيب») وتطمح في آن معاً إلى السيادة، ككلّ مَن يعرف أنه يزخر بقدرات على الإنجاب وأنه بالتالي من «منّ عليه الله». إنّ هذين النوعين من العبقرية يبحث واحدهما عن الآخر كالرجل عن المرأة: لكنّهما، كالرجل والمرأة، عرضة أيضاً لسوء التفاهم.

249

نفاق وطني: لكلّ شعب رياؤه الخاص وهو يسمّيه فضائله. أما أفضل ما لديه فيجهله، [بل] يمتنع أنْ يعرفه.

250

في روح الشعب اليهودي وقلبه: بم تدين أوروبا لليهود؟، بالكثير، بالجيد والرديء، وبخاصة بأمر هو من أحسن الأمور

وأسوئها معاً: أسلوب فاخر في الأخلاق، ومهابة تطلّبٍ لا يتناهى ومغزى لا يتناهى وجلالهما، ورومنسيّة شبْهة المسائل الأخلاقية وروعتها كلّها، أي أجذب وأغوى وأصفى لونٍ من ألوان الحياة ومغرياتها التي ببريق أخير لها تضيء اليوم سماء حضارتنا الأوروبية، سماءها المسائية، إضاءةً شفقية تنوس وربما تنطفىء. ولذا لا يسعنا، نحن المتفنّنين من بين المشاهدين والفلاسفة، إلّا أن نكنّ لليهود امتناناً.

251

في مسألة اليهود: على المرء أن يتوقع من شعب أصيب، بل يريد أن يصاب بحمّى العصبية القومية والطمع السياسي أن تمرّ في سماء روحه سحب واضطرابات شتّى، وبكلمة نوبات طفيفة من التبلّد: فعند الألمان اليوم، على سبيل المثال، غباء معاداة الفرنسيين أو اليهود أو البولنديين حيناً، والغباء المسيحيّ الرومنسيّ أو الفاغنري أو التويْتوني[1] أو البروسي حيناً آخر (يكفي أنْ ترى هؤلاء المؤرّخين المساكين، أمثال زيبل وترايْتشكه[2]، برؤوسهم المضمّدة بضمادات سميكة)، وإلى ما هنالك من تسميات لتلك السدم الضبابية الصغيرة التي تغشى الروح والضمير الألمانيين. وأرجو المعذرة لأنني، بعد إقامة جازفت بها لفترة قصيرة في بقعة موبوءة جداً، لم أسلم بدوري من الداء كلّياً ولأنني بدأت أفكّر،

(1) Teutonia: التسمية اللاتينية لألمانيا؛ يُستعمل النعت «تويْتوني» للتحقير.

(2) H.V. Treitschke وH.V. Sybel: اثنان من مجموعة المؤرخين الألمان البارزين الذين لعبوا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر أدواراً هامة في الصراعات السياسية الداخلية.

ككلّ النّاس، في أمور لا تعنيني: وذاك أول عارض من عوارض العدوى السياسيّة. وفي مسألة اليهود، على سبيل المثال، إسمعوا هذا!: لم ألتقِ بعد ألمانيّاً واحداً يعطف على اليهود؛ ومع إصرار كلّ حذر وكلّ سياسيّ على رفض معاداة السامية إيّاها رفضاً قاطعاً، فإن هذا الحذر وهذه السياسة لا يتوجّهان، مع ذلك بأيّ حال، ضدّ ذلك النوع من الشعور بعينه، بل ضدّ الإفراط الخطر فيه وحسب، وبخاصة ضدّ التعبير المبتذل والمعيب عن ذلك الشعور الغامر. إيّاكم أنْ توهموا بهذا الصدد! ثمة فطرة عامة تفيد وتقول بوضوح إن لألمانيا ما يكفي من اليهود ويزيد، وإنه يصعب (وسوف يصعب بعد طويلاً) على الدم الألماني والمعدة الألمانية أن يمتصّا مجرد هذا الكمّ اليهودي، كما امتصّه الإيطالي والفرنسي والإنكليزي بفضل هضم أقوى: وهي فِطرة يجب الإصغاء إليها والفعل بموجبها. «لا تسمحوا بدخول يهود جدد! وبخاصة، أقفلوا البوابات من الشرق (والنمسا أيضاً)!» هكذا تأمر فِطرة شعب جنسه ما زال ضعيفاً ولا متعيّناً بحيث يمكن أن يذوب أو يمّحي بسهولة على يد عرق أقوى. أما اليهود فهم بلا أدنى ريب أقوى وأصلب وأنقى عرق يعيش حالياً في أوروبا. فهم قادرون على الصمود تحت أسوأ الظروف (لا بل يفضّلونها على ظروف ملائمة)، وذلك بفضل فضائل معيّنة يودّ المرء اليوم لو يسمّيها رذائل، وخاصة بفضل إيمان حازم ليس عليه أنْ يخجل من «الأفكار الحديثة». وهم يتغيّرون، إنْ تغيروا، بطريقة واحدة لا غير، بالطريقة التي تنهجها الأمبراطورية الروسية في غزواتها، بوصفها أمبراطوريّة ليست بنت الأمس، ولا يداهمها الوقت. أعني وفقاً للمبدأ: «على أبطأ ما يكون!». إن أيّ مفكّر يشغل باله ويثقل ضميره مستقبل أوروبا سيحسب، في كلّ الخطط التي

يرسمها لهذا المستقبل، أولاً حساب اليهود والروس بوصفهم أكثر العوامل ثباتاً ورجحاناً في ميزان القوى وصراعها الكبير. أما ما يُسمّى اليوم في أوروبا «أمّة»، وهو أصلاً أشبه بشيء مصطنع منه بمولود طبيعي[1] (ويشبه في بعض الأحيان شيئاً مختلقاً ووهمياً[2] إلى حدّ إستحالة التمييز)، فهو على كل حال من ذاك المعدن الأكثر دواماً من البرونز[3] الذي يميّز نمط اليهود. فعلى هذه «الأمم» أن تحترس احتراساً شديداً من كل تنافس ومعاداة متهورة!. ومن المؤكد أنه بوسع اليهود الآن أنْ يغلبوا، بل أنْ يسودوا على أوروبا بكلّ معنى الكلمة، فيما لو أرادوا ذلك، أو لو أجبروا على ذلك كما يريد أن يفعل، في الظاهر، المعادون للسامية؛ ومن المؤكد أيضاً أنهم لا يخطّطون ولا يعملون في هذا الاتجاه. ما يريدونه ويتمنّونه حالياً بالأحرى، وببعض الإلحاح، هو أن تمتصهم أوروبا وأن يذوبوا فيها وبها، وهم متعطّشون إلى أن يستقروا أخيراً ويكونوا شرعيّين ومحترمين في محلّ ما، وأن يضعوا حداً وغاية لحياة الترحال «ولليهودي الأبدي»... على المرء أن ينتبه جيداً إلى هذا الميل وهذا النزوع (الذي قد يعبّر بدوره عن فتور الفِطَر اليهودية) وأن يشجّعه: ومن أجل ذلك قد يكون من المفيد والمنصف أن يتمَّ طرد الغلاة المعادين للسامية إلى خارج البلاد. أعني أن يشجّعه بكلّ حذر وبطريقة الفرز، تقريباً كما تفعل الأرستقراطية الإنكليزية. ومن البديهي أن القادرين

---

(1) Res nata, res facta.

(2) Res Ficta et picta.

(3) Aere perennius. من قول هوراسيوس: «Exegi monumentum aere perennius» «شيّدتُ لنفسي تمثالاً أكثر دواماً من البرونز».

على مخالطتهم، بأقلّ قدر من الحرج، سيكونون أولئك الذين يمثلون الطراز الأقوى والأصلب طبعاً للشخصية الألمانية الجديدة، وعلى سبيل المثال، الضابط الأرستقراطي من منطقة مارك براندنْبورغ: وقد تكون لنا مصلحة متعدّدة في النظر إلى ما إذا كان يمكن أنْ تُضاف عبقرية المال والصبر (وبخاصة قليل من الروح والروحية، وهما أمران يفتقر إليهما الموقع المذكور افتقاراً شديداً) إلى فنّ الأمر والانصياع المتوارث ـ وهو اليوم فنّ كلاسيكي في المنطقة المذكورة ـ، من خلال [الاصطفاء] والتربية؟ لكنه يليق بي ألّا أسترسل أكثر في تنظيري المرح وخطابي التفخيمي حول الشخصية الألمانية، لأنني بتُّ ألمّ بمسألة هي عندي في غاية الجِديّة، بـ «المسألة الأوروبية» كما أفهمها، بتربية ثلّة جديدة تحكم أوروبا . . .

252

\النفس \الإنكليزية: إنهم ليسوا عرقاً فلسفياً، هؤلاء الإنكليز: إن بيْكن جاء معتدياً على الروح الفلسفي بعامّة، وكل من هوبز وهيوم ولوك أذلّوا أفهوم «الفيلسوف» وحقّروا قيمته لمدة قرن ونيّف. على هيوم نهض كنط فارتفع، وبصدد لوك \استطاع شَلِنْغ أنْ يقول: «احتقر لوك»[1]؛ وفي الحملة على رؤية العالم من منظار التبلّد الميكانيكي الإنكليزي نرى هيغل وشوبنهاور (ناهيك من غوته) متّحديْن، ذلك الثنائي المتخاصم المكوّن من شقيقيْن نابغين في الفلسفة اتّجها نحو القطبين المتضادين للروح الألماني، فظلم

(1) «Je méprise Locke».

أحدهما الآخر كما يفعل وحسب شقيقان... إنّ ما افتقرت إليه إنكلترا دائماً وما تزال، لم يغفل عنه البتة المهرّج المبتذل والبلاغي ونصف الممثل، كارليل[1]، الذي بذل وسعه لكي يخفي خلف تكشيراته الانفعالية أمراً أدركه جيداً بصدد ذاته: إنّ ما افتقر إليه كارليل لم يكن سوى قُدْرة الروحية نفسها وسوى عمق النظر الروحي نفسه، وباختصار، سوى الفلسفة... إنّ ما يميز عرقاً لا فلسفياً كهذا هو اعتناقه الصارم للمسيحيّة: فبه حاجة إلى تأدّبها كي «يتهذّب خلقياً» ويزداد بالتدريج إنسانيّة. والإنكليزي الذي هو أشد اكفهراراً وشهوة وضراوة وإرادة من الألماني، بوصفه الأكثر سوقيّة بين الاثنين، هو بسبب من ذلك بالذات أكثر ورعاً من الألماني: ذلك أنّه ما زال أحوج إلى المسيحيّة. لكنّ منخرين أكثر إرهافاً سيحسّان في حضرة هذه المسيحيّة الإنكليزية أيضاً رائحة جانبية إنكليزية قحّة، رائحة اللوثة[2] والإفراط في تناول الخمور، وهو داء يُداوى بالمسيحيّة لأسباب وجيهة: سمّ لطيف ترياقاً لسمّ غليظ. إنّ التسمّم الألطف هو لدى شعوب فظّة بالفعل، تقدّمٌ ودرجة في ترقّيها الروحي. ويمكن لفظاظة الإنكليز وعبوسهم القرويّ أن يتنكّرا خلف لغة الإيماءات المسيحيّة، خلف تلاوة الصلوات وإنشاد الزبور تنكّراً هو بلا ريب الأخفّ ظلاً، أو على الأصحّ، تنكّراً يسمح بأن يُؤوَّل ويُحمل على غير محمل. وبالنسبة إلى ذلك القطيع من المدمنين على السكر والفجور والذي

---

(1) Th. Carlyle: (1795 ـ 1881)، كاتب إنكليزي، اهتم بالأدب الألماني والفلسفة الألمانية، له مراسلات مع غوته.

(2) Spleen: لفظ إنكليزي متداول في الألمانية يدل على غرابة الأطوار والانحراف.

تدرّب من زمان تحت حكم الميتودية ويتدرّب حالياً في صفوف «جيش الإنقاذ» على النعير أخلاقيّاً، قد تكون نوبة التوبة فعلاً أرفع إنجاز «إنساني» يمكن أن يُرقّى إليه: هذا ما نعترف به توخّياً للإنصاف. لكنّ ما يهين عند أكثر إنكليزي إنسانيّةً أيضاً هو افتقاره إلى الموسيقى، نقول ذلك مجازاً (ومن دون مجاز): لا إيقاع ولا رقص في حركات نفسه وبدنه، ولا حتى توْق إلى الإيقاع والرقص، إلى «الموسيقى». فليصغ المرء إلى كلامه، فلينظر إلى أجمل الإنكليزيّات وهنّ يسرن. ما من حمامات وبجعات أجمل في أيّ بلد من بلاد الأرض، وأخيراً فليسمع غناءهن! لكني أظن نفسي متمادياً في التطلّب...

253

الإنكليز يغلّطون الروح الأوروبي: ثمة حقائق تصلح الرؤوس الوسطيّة لمعرفتها معرفة أفضل من سواها، لأنها الأكثر ملاءمةً لها. ثمة حقائق تفتن وتغري الرؤوس الوسطيّة حصراً: إن هذه الجملة المزعجة ربّما، تتبادر إلى الذهن الآن بالذات، إذ نرى أن روح بعض الإنكليز الأشراف والوسطيّين مع ذلك ـ أذكر منهم دارْوِن وجون ستوارت مِل وهربرت سبنْسر ـ يهمّ ببسط هيمنته على المنطقة الوسطى للذوق الأوروبي. بالفعل، من سيشكّ في فائدة سلطة موقّتة لأرواح من هذا القبيل؟ من الخطأ أن نظن أن الأرواح العالية الهمم والمحلّقة بعيداً عن السرب بالذات ماهرة جداً في اكتشاف الكثير من الحقائق التافهة الصغيرة، وفي تجميعها وزجّها في قوالب استدلالات: إن هذه الأرواح هي بالأحرى، منذ البدء في موقع لا ينسجم و«القاعدة» لكونها استثناءات. ولها

في النهاية شغل يتعدّى مجرد المعرفة. أعني، عليها أن تكون شيئاً جديداً، أنْ تدلّ على شيء جديد وتمثّل قيماً جديدة! إنّ الهوّة بين العِلْمان والاستطاعة هي أكبر، ربما، مما يظن المرء، وأكثر هولاً أيضاً: فالمستطيع الكبير، ذاك الذي يبدع، يجب أن يكون جاهلاً على الأرجح، في حين أنّ شيئاً من الضيق والهزال والدقة المجتهدة، وبكلمة، شيئاً ما إنكليزيّاً، قد يؤهّل صاحبه خير تأهيل لاكتشافاتٍ علمية على منوال دارْون. لا نغفرنّ للإنكليز، في النهاية، أنّه سبق لهم أنْ سبّبوا للروح الأوروبيّ انتكاساً شاملاً من جراء وسطيّتهم العميقة: إنّ ما يسمّى «الأفكار الحديثة» أو «أفكار القرن الثامن عشر» أو «الأفكار الفرنسيّة» ـ وإذن ما ناهضه الروح الألمانيّ باشمئزاز عميق، ـ هو إنكليزيّ الأصل، لا ريب في ذلك البتّة. أما الفرنسيّون فقد جاؤوا مقلّدين وممثلين لهذه الأفكار وحسب، ولكنّهم كانوا أيضاً أفضل جنودها، وللأسف كذلك، أول ضحاياها وأكثرهم تكبّداً للخسائر: ذلك أن داء الأكْلزة[1] اللعين بـ «أفكاره الحديثة» أصاب النفس الفرنسيّة وكال لها، في النهاية، من الهزال والونى ما يمنع المرء اليوم، أو يكاد، من تذكّر قرنيْها السادس عشر والسابع عشر وقوّتها الوجدانية العميقة ونبلها المبدِع، وإنّ تذكّر فمِنْ دون قناعة. لكن، ثمة جملة منصفة تاريخياً على المرء أن يتشبّث بها وأن يحميها من الراهن والـ على ما يبدو: إن النبل الأوروبي، نبل الشعور والذوق والخلق، وباختصار، النبل بكلّ معنى رفيع، هو ابتكار فرنسا ومأثرتها، أما السوقيّة الأوروبية، ورعاعيّة الأفكار الحديثة، فمنبتها إنكلترا.

---

(1) نسبة الى الإنكليز.

254

إمتياز الإنسان الفرنسي الأعلى: ما تزال فرنسا إلى اليوم مدرسة الذوق الرفيع وموطن أرهف حضارة أوروبية وأكثرها روحيّة. لكن، على المرء أن يعرف كيف يعثر على «فرنسا الذوق» هذه. إنّ من ينتمي إليها يختبىء جيداً، وعدد الذين تعيش فيهم وتحيا قد يكون ضئيلاً، أضف أنهم أناس لا تسندهم أقوى الأرجل ربّما، فقسم منهم قدريّون وسوداويّون ومرضى، وقسم آخر متدلّلون مرهفون إلى حدّ التصنع ومن النوع الذي ينشد الخفاء بإلحاح وطمع. وهم جميعاً يتشاطرون أمراً واحداً: إنهم يسدّون الآذان أمام غباء البورجوازيّ الديموقراطيّ الصارخ وبوزه الجعجاع. واليوم نرى، في الواجهة فعلاً، فرنسا ما تتمرّغ في الغباء والابتذال، فرنسا تلك التي أقامت مؤخّراً، بمناسبة جنازة فكتور هوغو، حفلة عربدة حقيقيّة تنضح باللّاذوق والإعجاب المتغطرس بالذات معاً. ويتشاطرون أمراً آخر أيضاً: عزم حسن على الوقوف بوجه جَرْمَنَة الروح [الفرنسي]. وقصور أحسن عن تحقيق ذلك! إن شوبنهاور قد يقيم، منذ الآن في فرنسا الروح هذه، وهي فرنسا التشاؤم أيضاً، كما لو كان في داره، ويستوطنها أكثر مما استوطن يوماً ألمانيا؛ ناهيك من هايْنرش هايْنه الذي صار، منذ مدة طويلة، جزءاً من لحم ودم ألطف شعراء باريس وأكثرهم تطلّباً، أو من هيغل الذي يمارس اليوم في شخص تين ـ أي في شخص أول حيّ من بين المؤرّخين ـ نفوذاً يكاد يكون طاغياً. أما بخصوص ريشارد فاغنرْ: فإنّ الموسيقى الفرنسية ستحذو حذوه أكثر فأكثر كلما تعلّمت أنْ تتشكّل وفق الحاجات الفعليّة للنفس الحديثة، وهو أمر يمكن التنبُّؤ به، فهي تفعل ذلك

كفاية الآن! . ومع ذلك، ثمة ثلاثة أمور ما زال بوسع الفرنسيين اليوم أن يبرزوها بفخرٍ بوصفها إرثهم وملكهم وعلامة لم تندثر على تفوّق حضاريّ قديم على أوروبا، وذلك على الرغم من كلّ ما طرأ على الذوق، طوعاً أو كرهاً، من جَرْمَنة وابتذال: الأمر الأوّل هو ملكة التولّع بالفنون والتفاني في عبادة «الشكل» التي ابتكر لها اسم «الفنّ للفنّ» إلى جانب آلاف الأسماء الأخرى: فمثل هذه الأمور لم تكن غائبة عن فرنسا طوال ثلاثة قرون، بل كانت دائماً، وبفضل احترامها «للعدد القليل»، ملهمةً لأدب أشبه بموسيقى حجرة، أدب يبحث عنه المرء عبثاً في سائر أنحاء أوروبا. الأمر الثاني الذي يمكن للفرنسيين أنْ يؤسّسوا عليه تفوّقهم على أوروبا هو حضارتهم \الأخلاقية المتنوّعة القديمة التي بفضلها يصادف المرء عادة، حتى عند روائيي الجرائد الصغار وروّاد الأرصفة في باريس، حسّاسية وفضولاً سيكولوجياً ليس للألمانيّ، على سبيل المثال، أيّ فكرة عنه (ناهيك من الشيء نفسه!). فالألمان يفتقرون، في هذا المجال، إلى عدة قرون من نمطٍ أخلاقي لم توفّر فرنسا على نفسها معاناته، كما ذكرتُ؛ من يسمّي الألمان بسبب من ذلك سذجاً يحوّل نقصاً فيهم إلى مكرمة. (أما إذا أردنا أن نرى ما يضاد براءة الألمان وعدم دربتهم في الاستمتاع بالسيكولوجيا[1] اللذيْن ليسا منفصلين البتة عن ضجر الحياة الاجتماعية الألمانية، وإذا أردنا أن نرى ما يعبّر تعبيراً ساطعاً عن الفضول الفرنسي وموهبة الابتكار الفرنسية الأصلية في عالم الارتعاشات الرقيقة هذا، يمكن لنا أنْ نستشهد بهنري بايل، ذاك الإنسان اللافت الذي سبق الزمن واستبقه واجتاز قارته

(1) In voluptate psychologica.

الأوروبية بسرعة نابوليونية واجتاز معها عدّة قرون للنفس الأوروبية، بوصفه متقصّياً ومستكشفاً لهذه النفس: وقد انصرم جيلان قبل التمكّن، بطريقة ما، من اللحاق به ومن استشفاف بعض الألغاز التي أقضّت مضجع هذا الأبيقوري العجيب وفتنت هذا الهاوي للأسئلة الذي كان آخر سيكولوجي كبير في فرنسا).

ثمة بعد أمر ثالث يبرّر دعوى التفوّق: يوجد في طبع الفرنسيين تأليف بين الشمال والجنوب، تأليف ناجح إلى حدّ بعيد يجعلهم يفهمون أموراً كثيرة ويحثّهم على فعل أمور أخرى لن يفهمها الإنكليزي البتة؛ فمزاجهم الذي يتأرجح دورياً بين الجنوب والشمال والذي يغلي فيه، بين الحين والآخر، الدم البروفنسالي والليغوري يقيهم رتابة الشمال الرمادية المريعة وأشباح أفاهيم مصابة بفقر الدم والشمس، وهو داؤنا الألماني في الذوق، داء عكفنا مؤخراً على مداواة الإفراط فيه بحزم كبير، أي بـ «الدم والحديد»، أو قل «بالسياسة الكبيرة» (وذلك بموجب فن تداوٍ خطر يعلّمني أن أنتظر من دون أن يعلّمني أن آمل..). ما زال يسود في فرنسا، اليوم أيضاً، جوّ من التفهّم والترحاب بأنادِر الناس، بأولئك الذين نادراً ما يرضون، أو يقنعون بأيّ تقوقع وطني، لأنهم أوسع من ذلك ويعرفون كيف يحبّون الجنوب في الشمال والشمال في الجنوب، بأولئك الذين ولدوا ليكونوا قاطني البلاد الوسطى و«أوروبيين صالحين». ـ لهم هم ألّف بيزيه[1] موسيقاه، بيزيه العبقري الأخير الذي رأى جمالاً وإغراءً جديدين، الذي اكتشف شذرةً من جنوب الموسيقى.

(1) Bizet هو عند نيتشه نقيض ڤاغنر («قضية ڤاغنر»).

255

يجب جَنْوَبَة الموسيقى:[1] إنّ توخّي الحذر الشديد هو واجب، على ما أظن، عند تذوّق الموسيقى الألمانية. ولنفرض أنّ أحدهم يحبّ الجنوب، كما أُحبّه، بوصفه مدرسة شفاء كبيرة للروح والحواس، بوصفه فيضاً شمسيّاً جامحاً وشفافيّة ضوئية يغمران وجوداً متجبّراً ومؤمناً بذاته: إن امرءاً من هذا القبيل سيتعلّم أن يحترس قليلاً من الموسيقى الألمانيّة، لأنها، إذ تفسد ذوقه، تفسد صحّته أيضاً. وإذا ما حلم جنوبي كهذا، جنوبي لا بالأصل بل بالإيمان، بمستقبل الموسيقى، عليه أن يحلم أيضاً بانعتاق الموسيقى من الشمال، عليه أن يسمع في أذنيه مقدمة موسيقى أعمق وأقوى، أخبث وألغز ربما، موسيقى ما فوق ألمانية لا تخفت وتذبل وتبهت، شأنها شأن كل الموسيقى الألمانية، في حضرة البحر الأزرق الشهوانيّ وبهاء السماء في البلاد الوسطى. عليه أن يسمع موسيقى ما فوق أوروبية تبقى على حقّ أيضاً في حضرة غروب الشمس السمراء في الصحارى، موسيقى نفسُها أليفة النخيل وموطنها بين الضواري المتوحّدة الكبيرة الجميلة التي تعرف كيف تجول بصحبتها... بل إنني أتخيّل موسيقى يكمن أندر سحرها في كونها لا تعود تعلم بالخير والشرّ، موسيقى قد يحدث لها وحسب أنْ يخالجها حنين مبهم إلى شواطىء موطنٍ ما وتتخلّلها، بين حين وآخر، ظلال عسجديّة ولحظات وهن رقيقة: [أتخيّل] فنّاً يرى في الأفق البعيد ألوانَ عالم أخلاقي آفل أمسى غير مفهوم أو يكاد، ألواناً تفزع إليه، فتجد لَديه من العمق وحبّ الضيافة ما يكفي للترحيب بفازعة متأخّرة من ذاك القبيل...

---

(1) Il faut méridionaliser la musique.

256

روّاد النفس الأوروبية: بفضل التباعد المرضي الذي نصبه جنون القوميات حاجزاً بين شعوب أوروبا وما يزال، وكذلك بفضل سياسيي النظر القصير واليد الرشيقة الذين يتربّعون اليوم على القمة، بمساعدة ذلك الجنون، ولا يدرون البتة أنّ سياسة التفرقة التي يمارسونها ستكون مجرد وصلة بين فصلين، بل لا يدرون إلى أي حدٍّ لا بد للأمر أن يكون كذلك، بفضل كلّ هذا وغيره من أمور لا يمكن التعبير عنها اليوم على الإطلاق، يتمّ الآن إهمال علائم غير ملتبسة أو يتمّ تأويلها تأويلاً اعتباطياً وكاذباً، في حين تعلن هي: إن أوروبا تريد أن تتوحّد. كان الاتجاه الفعلي لدى كل الناس الذين هم أعمق وأوسع من معاصريهم في هذا القرن، والاتجاه الغالب على عمل نفوسهم الخفي، تمهيد الطريق لذلك التأليف الجديد واستباق الأوروبي المقبل، على سبيل التجريب: وإذا ما انضمّوا إلى «الوطنيين» فبواجهاتهم أو في ساعات ضعفهم وحسب، وفي شيخوختهم، على سبيل المثال. وهم استراحوا من أنفسهم لا غير، حين أمسوا «وطنيين». أفكّر برجال من أمثال نابوليون وغوته وبِتهوفن وستانْدل وهاينْرش هايْنه وشوبنهاور؛ ولا تؤاخذوني إذا أضفتُ إليهم ريشارد ڤاغنر الذي يجب ألّا نحكم عليه من خلال سوء فهمه لذاته. إذ قلّما كان لعباقرة مثله الحقّ في فهم أنفسهم. ولا بأي حال، طبعاً من خلال اللغط المبتذل الذي يثار الآن في فرنسا ضد ريشارد ڤاغنر وضد نفوذه: ـ لا يقلّل كل ذلك من حقيقة أن رومنسية الأربعينات الفرنسية وريشارد ڤاغنر هما على صلة قرابة وثيقة وحميمة للغاية. إنّ حاجاتهما تلتقي في كلّ ذرواتها

وأغوارها ورابط القربى بينهما متين، بل متأصّل. إنها أوروبا، أوروبا الواحدة، التي تندفع نفسُها وتتوق، عبر فنّ هؤلاء الزاخر والمتنوّع، إلى الانطلاق خارجاً وعالياً. إلى أين؟ إلى نور جديد؟ إلى شمس جديدة؟. لكن، مَن يسعه أن يعبّر عن كلّ ما قصر عنه جميع هؤلاء المبتكرين لوسائل تعبيرية جديدة؟. المؤكد أن العاصفة عينها والاندفاع عينه أقضّ مضجعهم وحثّهم إلى البحث في الاتجاه نفسه، مضجع البحاثة الكبار الآخرين هؤلاء! وهم جميعاً مولعون بالأدب حتى بعيونهم وآذانهم ـ وهم أول فنانين ذوي ثقافة أدبية عالمية ـ وكتاب وشعراء بدورهم في الغالب أيضاً، مازجون بين الفنون والحواس ووسطاء بينها (ڤاغنر ينتمي كموسيقي إلى الرسّامين وكشاعر إلى الموسيقيين وكفنان بعامة إلى الممثّلين)؛ وهم جميعاً متعصّبون للتعبير «بأي ثمن» ـ وأنوّه بدي لاكروا القريب الأقرب إلى ڤاغنر ـ جميعهم مستكشفون كبار في ملكوت السامي وفي عالم القبيح والفظيع أيضاً، ومستكشفون أكبر في فنّ التأثير والإبهار، في فن العرض والواجهة، جميعهم ذوو مواهب تفوق عبقريتهم، فنانون ماهرون بارعون من قمة الرأس إلى الأخمصين، بمرونة مقلِقة في العبور إلى كلّ ما يغوي ويغري ويأسر ويهزّ، أعداء ألدّاء للمنطق والخط المستقيم، لاهجون بالغريب والنائي، بالهائل والأعوج والمتناقض؛ وهم، كبشر، أقوياء الإرادة كتانتالوس[1]، أفراد من العامة ارتفعوا ولم يعرفوا لا في حياتهم ولا في عملهم إيقاعاً نبيلاً ومتأنّياً، ـ تذكّروا بَلْزاك

---

(1) Tantalos: ملك قوي في آسيا الصغرى، كان صديقاً للآلهة لكنها بعد ارتكابه الآثام، ألقت به إلى العالم السفلي حيث حكم عليه بالجوع والعطش الى الأبد.

مثلاً ـ. نشطون بلا أعنّة، يكاد عملهم يودي بهم؛ مناقضون للأخلاق ومتمرّدون عليها، طامحون بعطش لا يروى ومن دون توازن ومتعة؛ جميعهم رازحون ومنكسرون أخيراً تحت الصليب المسيحي (وذلك بكلّ حق، إذ من منهم كان عميقاً وأصيلاً كفاية لطرح فلسفة المسيح المضاد؟.) وهم على الإجمال أناس من ضرب أعلى، مقدام مجازف، رائع عنيف، محلّق ومجنّح، ضرب كانت مهمته الأولى والأخيرة أنْ يعلّم هذا القرن ـ وهو قرن الجماهير! ـ ماذا يعني أفهوم «الإنسان الأعلى»... إني أعهد إلى أصدقاء ريشارد ڤاغنر الألمان بعناء التفكير في ما إذا احتوى الفن الڤاغنري على شيء ما ألماني بالإطلاق، أم ما إذا كان امتيازه بالأحرى كونه انبثق من مصادر وحوافز ما فوق ألمانية: وفي هذا الصدد يجدر بنا ألّا نغفل كيف أن باريس بالذات كانت ضروريّة من أجل تكوّن الطراز الڤاغنري، باريس التي هفت إليها نفسه وفطره العميقة في اللحظة الحاسمة؛ وكيف أن نمط سلوكه وظهوره، إذ نصب نفسه رسولاً، لم يكتمل إلّا بالنظر إلى المثال الاشتراكي الفرنسي. بل قد يكتشف المرء، بفضل مقارنة أدقّ، ولمجد سجية ريشارد ڤاغنر الألمانية، أنّه قد بلغ في كل الأمور مبلغاً أكثر قوة وإقداماً وقسوةً وعلواً مما كان سيبلغ الفرنسي في القرن التاسع عشر. ويعود الفضل في ذلك إلى كوننا، نحن الألمان، لا نزال أقرب إلى البربرية من الفرنسيين. ولعلّ أروع ما ابتكره ريشارد ڤاغنر سيظل مغلقاً إلى الأبد، وليس اليوم وحسب، على كلّ العرق اللاتيني المتأخّر جداً بحيث يتعذّر عليه أن يحسّ به ويستوحي منه: أعني شخصية زيغفريد[1]، ذلك الإنسان الحرّ

(1) Siegfried: بطل النور والربيع في الميثولوجيا الجرمانية. يمثّل، حسب رأي نيتشه، المرحلة «الثورية» عند ڤاغنر.

جداً الذي قد يكون فعلاً أكثر حرّية وقسوة وانشراحاً وعافية وأشد مضادّة للكثلكة مما يلائم ذوق حضارة قديمة ومختمرة. ولعل زيغْفريد هذا المنافي لذوق الشعوب الرومانية كان خطيئة بحق الرومنسية أيضاً. لكنّ ڤاغنر كفّر عن هذه الخطيئة كفاية في أيام شيخوخته الملبّدة، حين بدأ ـ مستبقاً بذلك ذوقاً أمسى الآن سياسة ـ، وبالحميّة الدينية الخاصة به، حين بدأ لا بنهج الطريق إلى روما، إنما بالتبشير بها. ولئلاّ يُساء فهم عباراتي الأخيرة، سأستعين ببعض الأبيات القوية التي ستبوح بما أريد لآذان أقلّ إرهافاً أيضاً، بما أحمله على «ڤاغنر الأخير» وموسيقاه للبارسيفال[1]:

ألا يزال ألمانيّاً ذا الأمر؟ ـ
هل هذا الزعيق الخانق من قلب ألمانيّ صدر؟
هل هذا النهش للذات بجسم ألماني يليق؟
ألمانية إيماءات الأنامل القسسية هذه
تثير الحواس بشذا البخور الفواح؟
ألماني هذا التردد والتعثر والترنح
هذا التذبذب الطنان من دون يقين؟
وهذه الأجراس القارعة سلاماً على مريم،
هذه الغمزات من عيون الراهبات،
وكل هذا الانخطاف الزائف، عبادة السماء والعلياء؟

---

(1) Parsifal: آخر عمل كبير لڤاغنر، عرض أول 1882 في بايْروْيت. شخصية بارسيفال مأخوذة من أساطير الفروسية السيلتية، لكن ڤاغنر أضفى عليها صبغة مسيحية.

ألا يزال ألمانياً ذا الأمر؟ ـ
تفكّروا! ما زلتم على العتبة:
ما تسمعون، هو روما ـ إيمان روما
من دون كلمات!

الفصل التاسع

ما النبيل؟

257

تدرّج ومراتب: ليس الناس سواسية: كلّ إعلاء للطراز المسمّى «إنساناً» كان حتى الآن وسيبقى أبداً من صنع مجتمع أرستقراطيّ ما، بوصفه مجتمعاً يؤمن بسلّم طويل من المراتب والفوارق القيمية بين إنسان وإنسان، مجتمعاً به حاجة إلى العبودية بمعنى من المعاني. فمن دون روع المسافة، الذي يتولّد من الفارق الطبقي المتأصّل، أي من دون كون الثلّة الغالبة تشرف وتطلّ باستمرار على أتباع وأدوات، ومن دون كونها تتمرّن باستمرار على أن تأمر وتطاع وتَقمع وتُبعد، لا يمكن أن يتولّد البتّة ذلك الروع الدفين، ذلك التوق إلى زيادة المسافة زيادة متجدّدة أبداً داخل النفس بالذات، وإلى تكوين أحوال تزداد مرّة إثر مرّة علواً وندرةً وبعداً وسعةً وشمولاً، وباختصار إذن، إلى إعلاء الطراز المسمّى «إنساناً» أو إلى «تغلّب الإنسان على ذاته» بصورة مطّردة، كي نستعمل صيغة أخلاقية بمعنى فوق أخلاقي. لكن علينا طبعاً

ألّا نسترسل في أوهام إنسانية حين ننظر إلى تاريخ نشوء المجتمع الأرستقراطي (وتالياً إلى شرط إعلاء الطراز المسمّى إنساناً.): إن الحقيقة قاسية. وعلينا أن نقول لأنفسنا من دون تورية كيف بدأت كلّ حضارة عليا على الأرض حتى الآن! لقد انقضّت جماعة ذات طباع ما تزال طبيعيّة، برابرة بمعنى الكلمة الرهيب كلّه، جماعة من الضواري لها قوّة الإرادة وأطماع تسلّط لم تمحق بعد، انقضّت على أعراق أضعف وأكثر تهذيباً ومسالمةً، كانت ربما تعتاش من التجارة وتربية الماشية، أو على حضارات متصدّعة عتيقة كانت على وشك أن تلفظ، بل أن تحرق، نَفَسها الأخير في ألعاب الروح والفساد الناريّة المتوهّجة. إن الثلّة النبيلة كانت في البدء ودائماً ثلّة من البرابرة: يكمن تفوّقها لا في القوّة الجسدية بالدرجة الأولى بل في القوّة النفسية، ـ كانوا البشر الأكمل (مما يعني أيضاً أنّهم «الوحوش الأكمل» في كلّ شيء ـ).

258

التنازل عن الامتيازات علامة الانحطاط: الفساد بوصفه تعبيراً عن الفوضى التي تهدّد الفِطَر من الداخل، وعن التخلخل في مبنى الأشاعير الأساسي المسمّى «حياة»: يختلف فساد عن فساد اختلافاً جذرياً تبعاً لاختلاف الكائن الحي الذي يظهر فيه. وعلى سبيل المثال حين تتخلّى أرستقراطية كالأرستقراطية الفرنسية، في بداية الثورة، عن امتيازاتها بقرفٍ سامٍ، وتقدّم ذاتها قرباناً على مذبح شعورها الخلقي الجامح، فإن ذلك فساد... بل هو لم يكن، أصلاً، إلّا فصل الختام لفساد دام قروناً وقروناً، فساد كانت الأرستقراطية بموجبه قد تخلّت، خطوة خطوة، عن

صلاحيّاتها في الحكم وانحطّت إلى مجرد وظيفة للملَكيّة (بل في النهاية إلى مجرّد زينة لها وتزويق). لكن الجوهري في أرستقراطية حسنة وسليمة، هو أنْ تشعر أنها ليست مجرّد وظيفة بل أنها المعنى والمسوِّغ الأرفع (سواء للملَكية أم للجماعة)، وأن تقبل، من ثمّ، بضمير مرتاح، تضحية عددٍ لا يحصى من الناس الذين يجب أن يذلّوا من أجلها، وينحطّوا إلى أناس غير كاملين، إلى عبيد وأدوات. فإيمانها الأساسي يجب أن يقول: إن المجتمع ينبغي ألّا يوجد من أجل المجتمع بل بوصفه هيكلاً أو بناءاً مسانداً وحسب يمكّن نخبة من الكائنات من أن ترتفع إلى مهمتها العليا وإلى كون أعلى بعامة: نخبة يمكن تشبيهها بتلك النباتات المتسلقة المولعة بالشمس في جزيرة جاوا، وهي تسمّى زيپو ماتادور، التي تطوّق شجرة البلوط بأغصانها مراراً وتكراراً إلى أن تتمكّن أخيراً من أنْ تعلو عليها، لكن بالاستناد إليها، وأن تفرش عُرفَها في النور والعراء وتعرض سعادتها.

259

بناء اجتماعي من دون تراتبية محال: إن الامتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل، والمساواة بين إرادة الذات وإرادة الآخر، يمكن أن يصيرا، بمعنى معيّن وعام، من مكارم الأخلاق بين الأفراد إذا ما توافرت الشروط الملائمة لذلك (أعني تماثلهم الفعلي في مقدار القوّة ومقياس القيمة وتعاضدهم ضمن جسم واحد). لكن، ما أن يؤخذ بهذا المبدأ على نطاق أوسع وصولاً إلى عَدّه مبدأ أساسياً للمجتمع، حتى يتبيّن على ما هو عليه:

إرادة لنفي الحياة ومبدأ انحلال وانحطاط. وهنا لا بد لنا من دفع تفكيرنا إلى العمق الأقصى والامتناع عن كلّ ضعف حسّاس: إن الحياة هي جوهرياً استيلاء وانتهاك وغلْب للغريب والضعيف وقَمْعٌ وقسوةٌ وفرضٌ للأشكال الخاصة واستيعاب، بل هي على الأقلّ، وفي أرحم الحالات، استغلال. لكن، لِمَ علينا دائماً أن نستعمل تلك الألفاظ عينها الموصومة افتراء من قديم الزمان؟. إن ذلك الجسم الذي، كما سبق وفرضنا، يتعامل الأفراد ضمنه سواسية ـ ويحدث ذلك في كل أرستقراطية سليمة ـ عليه هو نفسه، إنْ كان جسماً حيّاً وليس محتضراً، أن يقوم، هو الآخر، إزاء الأجسام الأخرى بكلّ ما امتنع عنه الأفراد ضمنه في مخالطة بعضهم بعضاً: لا بدّ له من أن يكون إرادة القُدْرة المتجسّدة، وأن يريد النمو والتوسّع والاستقطاب والغلبة، وذلك ليس انطلاقاً من أيّ خلقية أو لاخلقية، بل لأنّه يحيا ولأن الحياة هي إرادة قدرة. لكن، ما من نقطة سواها نرى بصددها وعي الأوروبيين العاميّ أكثر رفضاً لتقبّل الدروس: في كلّ محلّ يحلم المرء الآن بأحوال اجتماعية مقبلة، ولا يتردّد في إلباس هذه الأحلام ألبسة عِلميّة، أحوال من المفترض أن تكون خالية من «الطابع الاستغلالي». إن ذلك يطرق أذني وكأنّ ثمة وعداً بابتكار حياة تمتنع عن كل الوظائف العضوية. لا ينتمي الاستغلال إلى مجتمع فاسد أو غير كامل أو بدائي، بل ينتمي إلى جوهر الحيّ، بوصفه وظيفة عضوية أساسيّة، وهو نتيجة لإرادة القُدْرة إيّاها التي هي بالذات إرادة الحياة. ولنسلّم أن ذلك تجديد في النظرية فإنه في الحقيقة \الواقعة \الأصلية للتاريخ كلّه. فلنكن صادقين مع أنفسنا إلى هذا الحد، على الأقلّ!

260

نظرية أخلاق السادة وأخلاق العبيد: أثناء تجوالي بين أنماط الأخلاق العديدة، الرهيفة منها والغليظة، التي سادت حتى الآن على الأرض أو ما تزال، عثرتُ على سمات معيّنة اقترنت بعضاً ببعض وتردّدت بصورة منتظمة، حتى انكشف لي، في النهاية، نمطان أصليان انبرى بينهما فارق أساسي. هناك أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد؛ وأسارع إلى إضافة أن النظر في الحضارات الراقية والهجينة كلّها يُظهر حيناً محاولات تسوية بين نمطي الأخلاق هذين، ويظهر غالباً خلطاً بينهما وسوء تفاهم متبادلاً، بل يظهر أحياناً تجاوراً قاسياً نافراً بينهما، وحتى في الإنسان عينه وداخل النفس الواحدة. وقد تولّد التمييز بين القيم الأخلاقية إمّا من صلب جنس غالب، أدرك بالتذاذ امتيازه عن الجنس المغلوب، وإما من صلب المغلوبين، العبيد والأتباع على مختلف الدرجات. ففي الحالة الأولى يعيّن الغالبون أفهوم «الحسن» فتُحسب أحوال النفس السامية والشامخة بمثابة ما يعيّن التراتبية وما يميّز. ويفصل الإنسان النبيل نفسه عن كائنات تظهر نقيض مثل هذه الأحوال السامية والشامخة: فهو يحتقرها. ولننتبه على الفور إلى أن التضادّ بين «حسن» و«سيّء» يعني في هذا النمط الأول من الأخلاق «نبيل» و«حقير»:. أما التضاد بين «خيّر» و«شرير» فهو ذو أصل آخر. يُحتقر الجبان والخائف والصغير النفس والحريص على المنفعة الضيّقة؛ وكذلك المرتاب بعينه الشزراء والمتذلّل، أي الإنسان الكلب المستسلم للتنكيل، والمتزلّف المتوسّل. وأكثر من كل شيء يُحتقر الكذّاب: العامة كذّابة. ذلك إيمان راسخ لدى الأرستقراطيين جميعاً. «نحن

الحقّانيين» ـ هكذا سمّى النبلاء أنفسهم في اليونان القديم. ومن البديهي أن تُحمل التسميات القيميّة الأخلاقية، في كل محل، على البشر أولاً وفيما بعد، وعلى سبيل الاشتقاق، على الأفعال. لذا يرتكب مؤرّخو الأخلاق خطأ جسيماً حين ينطلقون من أسئلة مثل هذه: «لماذا مُدح الفعل الرحوم؟». إن الجنس النبيل من البشر يحسب نفسه معيِّناً للقيمة ولا حاجة به إلى مَن يستحسنه، وهو يقرّر «ما يضرّ بي مضرّ في ذاته»، ويعي أنه هو مَنْ يضفي، أولاً وأخيراً، مجداً على الأشياء: إنه خالق القيم. وهو يكرم كلّ ما يدركه في ذاته. إن أخلاقاً كهذه تمجيد للذات. في الصدارة يأتي الشعور بالامتلاء، بقُدْرة تريد تدفّقاً، وتأتي غبطة التوتّر الأقصى، والوعي بغنى يروم وهباً وبذلاً... الإنسان النبيل يسعف أيضاً البائس، لكن نادراً ما يكون ذلك بدافع من الرحمة، بل بالأحرى باندفاع يتولّد من فيض القُدْرة. ويكرم الإنسان النبيل في نفسه القادر وذا القُدرة على نفسه، والعارف كيف يتكلّم وكيف يصمت، والصارم على نفسه والقاسي عليها بلذّة، ويجلّ كلّ ما هو صارم وقاس. تقول أسطورة اسكندنافية قديمة: «وَضَع ڤوتانْ قلباً قاسياً في صدري». إن مثل هذا القول لهو صادر بحقّ عن نفس ڤيكينغ صنديد. إن ضرباً بشرياً كهذا يفخر بأنه ليس مجبولاً على الرحمة؛ لذا يستطرد بطل الأسطورة محذّراً: «مَن ليس له قلب قاس منذ الصغر، فلن يقسو قلبه يوماً». إن نبلاء وصناديد يفكرون هكذا هم أبعد ما يكون عن تلك الأخلاق التي تعدّ التراحم أو الفعل الغيريّ أو التنزّه عن الغرض بالذات علامة على الخلقي. فكما ينتمي الإيمان بالذات والفخر بها، ومن ثم العداء اللدود المتهكّم بالغيرية، انتماء حاسماً إلى الأخلاق النبيلة كذلك ينتمي إليها، وبالقدر نفسه من الحسم، بعض الازدراء والتحفّظ

إزاء مشاعر التعاطف، و«القلب الدافىء». إن القادرين هم الذين يحسنون الإكرام، فهو فنّهم وملكوت ابتكارهم. فالإكرام العميق للشيخوية وللمحتد ـ وعلى هذا الإكرام المزدوج يقوم كل الحقّ ـ والتحكيمة لصالح الأسلاف، لا لصالح الأخلاف، والإيمان بالسلف الصالح، هو العلامة الفارقة لأخلاق القادرين؛ وحين يؤمن أهل «الأفكار الحديثة»، وعلى العكس من ذلك، إيماناً يكاد يكون فطريّاً بـ «التقدّم» و«المستقبل» ويفتقرون أكثر فأكثر إلى احترام الشيخوية، فإن هذا ينمّ على نحو كافٍ عن أصل هذه «الأفكار» غير النبيل. لكنّ أكثر ما يصدم ويُحرج الذوق الراهن عند احتكاكه بأخلاق الغالبين هو صرامة المبدأ الذي لا يقرّ بواجبات إلَّا تجاه الأنداد، والذي يجيز معاملة كائنات من مرتبة أوضع، أي معاملة كلّ غريب، كيفما اتفق أو «كما يشاء القلب»، وعلى كلّ حالٍ، من موقع «ما وراء الخير والشرّ»: هنا قد تقع الرحمة وما إليها. أما واجب الامتنان والانتقام الطويل والقدرة عليهما ـ والإثنان بين أنداد حصراً ـ، والدقّة في المجازاة، والرَهَف في أفاهيم الصداقة ونوع من وجوب وجود الأعداء (وهم بمثابة مسارب لأشاعير الحسد وحب المماحكة والبطر، وذلك أصلاً كي يمكن للمرء أن يكون صديقاً جيداً) أما كلّ هذه، فعلامات فارقة على الأخلاق النبيلة التي ليست أخلاق «الأفكار الحديثة»، كما ذكرتُ، ولذا يصعب علينا اليوم أن نحسّ بها وننقّب عنها ونكشفها. الحال على غير ذلك فيما يخصّ النمط الثاني من الأخلاق، أخلاق العبيد. فلنفرض أن المغتصبين والمقموعين والمتألّمين واللا-أحرار واللا-واثقين من أنفسهم والمتعَبين يُأَخْلِقون: فماذا عسى أن يكون المشترك في كلّ تقييماتهم الأخلاقية؟. يغلب على الظن أنه سيكون التعبير عن

ارتياب متشائم من وضع الإنسان ككلّ، وربما عن استنكار للإنسان ووضعه برمّته. فنظرة العبد تضيق بفضائل صاحب القدرة: وهو يتشكّك ويرتاب ارتياباً مرهفاً في كلّ «حسن» يُكرَّم هناك، بل يودّ أنْ يقنع نفسه بأن السعادة، هناك أيضاً، زائفة. وبالمقابل تُبرَز وتُزيَّن الصفات التي تصلح لتخفيف عبء الوجود عن كاهل المتألّمين: هنا يُكرَّم التراحم واليد اللطيفة المسعِفة والقلب الدافىء والصبر والاجتهاد والخنوع واللطف، لأنّ هذه الصفات هي هنا الأنفع وتكاد تكون الوسائل الوحيدة لجعل وزر الوجود محتملاً. إن أخلاق العبيد هي جوهريّاً أخلاق منفعة. هنا بؤرة تولُّد ذاك التضادّ الشهير بين «الخير» و«الشر»: إلى الشر يُضمّ حسيّاً القُدْرة والخطر، وقدر معيّن من الهول والرَهَف والقوة التي لا تسمح بإثارة الاحتقار. فَوفْقَ أخلاق العبيد يثير «الشرير» إذن الخوف؛ أما وفقَ أخلاق السادة، فيثير «الحسن» الخوف ويريد أنْ يثيره، في حين أن الإنسان «السيّء» يُعدّ حقيراً. ويبلغ التضادّ أوجه حين تنتهي أخلاق العبيد، تبعاً للمنطق الخاص بها، إلى إلصاق مسحة من الازدراء، وإن خفيفة ولطيفة، بمَن تسمّيه «خيّراً» أيضاً، ـ لأن الخيّر ضمن نمط العبيد الفكري يجب أن يكون على كل حال الإنسان اللا-خَطِر: إنه طيب القلب، وسهل غَشّه، وغبيّ قليلاً ربما، وطبّوش[1]. وكلما كانت الغلبة لأخلاق العبيد، كلما أظهرت اللغة نزوعاً إلى التقريب بين اللفظين «خيّر» و«غبي». فارق أساسي آخر: بقدر ما تشكّل الرغبة في الحرية، أي الفطرة التي تستشف دقائق الشعور بالحرية والسعادة النابعة منه، جزءاً ضرورياً من أخلاق العبيد وخلقيتهم، يشكّل التفنّن في الإكرام والولع

(1) Bonhomme.

والإفراط فيهما عارضاً منتظماً من عوارض نمط التفكير والتقييم الأرستقراطي. من هنا يُفهم بداهةً لماذا يجب أن يكون الحبّ بما هو هوى متيِّم ـ وهو اختصاصنا الأوروبي ـ ذا أصل نبيل بالمطلق: ومعلوم أن ابتكاره يعود إلى الفرسان الشعراء البروفانسيّين، أولئك الرجال الرائعين المبتكرين، أصحاب «بهجة العلم»[1] الذين تدين لهم أوروبا بالكثير، بل تكاد تدين لهم بذاتها.

261

المغرور إنسان من الثلّة الوضيعة: ثمة أمر قد يعزّ فهمه على الإنسان النبيل أكثر من أيّ أمر آخر، ألا وهو الغرور. فهو يميل إلى إنكاره حتى وإنْ خيّل إلى ضرب بشريّ آخر أنّه يلمسه لمس اليد. والمشكلة بالنسبة إليه، هي صعوبة تصوّر كائنات تجهد في إيهام الغير رأياً حسناً بصددها، رأياً لا تكون تشاطره هي ـ ولا «تستأهله» بالتالي ـ، لكن ينتهي بها الأمر فيما بعد إلى تصديق هذا الرأي الحسن بدورها. ويبدو له هذا [الجهد] من ناحية، منافياً للذوق ولعزّة النفس، ومن ناحية أخرى، مناقضاً للعقل والمنطق إلى حد يجعله يفضّل عدّ الغرور استثناءً ويجعله يتشكّك به في معظم الحالات التي يدور فيها الحديث حوله. وسيقول على سبيل المثال: «قد أخطىء في تقييم قيمتي وأطلب مع ذلك من الآخرين أن يعترفوا لي بقيمتي كما أطرحها بالضبط، لكنّ هذا ليس غروراً (بل صلف، أو ما يسمّى في الغالب «ضعة»

(1) Gai saber.

و«دعة»)». أو: «قد أسرّ لرأي حسن يبديه الغير فيّ لأسباب عديدة، وربما لأنني أكرمهم وأحبّهم وأشاطرهم كلّ سرور، أو ربما لأن رأيهم الحسن يؤكّد لي ويعزّز ما عندي من رأي حسن فيّ، أو ربما لأن الرأي الحسن الذي يبديه الغير فيّ، حتى في حال لم أشاطره، يفيدني أو يبشّرني بفائدة، لكنّ كل هذا ليس غروراً». على الإنسان النبيل أن يغالب نفسه بدءاً وأن يستعين بالتاريخ تحديداً، كي [يكون بوسعه أن] يتصوّر أنّ الإنسان العامي من كلّ الطبقات الشعبية على اختلاف درجة تبعيتها، ومنذ أزمنة قديمة لا يطالها الفكر، لم يكن يوماً إلّا ما حُسِبَ: فالعامي، وهو لم يتعوّد البتّة على أن يَطرح بنفسه قيماً، لم ينسب إلى نفسه أيّ قيمة غير تلك التي أقرّها له أسياده (فخلق القِيَم هو حقّ \الأسياد بصحيح المعنى). ولذا قد يجوز لنا، حين ننظر اليوم إلى الإنسان العادي الذي ما زال ينتظر رأياً ما حول نفسه أوّلاً، لينصاع له من ثم فطرياً، ولا أعني بأي حال الانصياع لرأي «حسن» وحسب، بل لرأي سلبي وغير منصف أيضاً (اعتبروا مثلاً معظم التقييمات الذاتيّة والتبخيس الذاتي الذي تتبنّاه نسوة مؤمنات نقلاً عن كهنة الاعتراف أو الذي يتعلّمه المسيحيّ المؤمن بعامة من كنيسته)، قد يجوز لنا أن نعدّ [سلوكه] هذا نتيجة انبعاث قوي لفطرة بائدة. لكن، ما يحدث الآن فعليّاً وتبعاً للصعود التدريجي لنسق الأمور الديموقراطي (وسببه خلط دم الأسياد والعبيد)، هو أنّ النزوع النادر النبيل الأصل إلى أنْ يعيّن المرء قيمته من تلقاء نفسه و«يكوّن فكرة جيدة» عن ذاته، سيُنمّى وسيُشاع أكثر فأكثر. غير أن ميلاً أقدم وأوسع وأرسخ يضادّ ذلك النزوع على الدوام. وفي ظاهرة الغرور ينصِّب هذا الميل الأقدم نفسه سيداً على الأحداث. فالمغرور يُسَرّ لكلّ رأي حسن يسمعه (بصرف النظر

كليّاً عن نواحي فائدته جميعاً، وبغضّ النظر أيضاً عن الصواب والخطأ)، ويعاني كذلك من كلّ رأي سلبي لأنه ينصاع للاثنين ويشعر نفسه منصاعاً لهما جرّاء فطرة الانصياع القديمة تلك التي تتفشّى فيه. . [أقول] إنّ «العبد» في دم المغرور، وراسباً ما من مكر العبد ـ وكم من رواسب «العبد» ما تزال باقية إلى اليوم في المرأة على سبيل المثال! ـ هو الذي يسعى إلى تضليل الغير بإيهامهم آراء حسنة حول نفسه؛ وهو أيضاً من يسارع على الأثر بدوره إلى الركوع أمام هذه الآراء وكأنه لم يكن مسبِّباً لها. وأقول مرّة أخرى: إن الغرور انبعاث لفِطْرة بائدة.

262

سيرة الفرد الرائع من البداية إلى النهاية: ينشأ نوع من الأنواع، ويَمْتُن طراز من الطرز، ويتعزّز في صراعه ضد ظروف مستقرة غير ملائمة إجمالاً. وعلى العكس يُستفاد من تجربة المربّين أن أنواعاً يتوافر لها غذاء زائد وفيض من الحماية والرعاية بعامة تميل ميلاً شديداً وسريعاً إلى تنويع الطراز، وتزخر بالعجائب والغرائب (وبالرذائل الغريبة أيضاً). ولنحسب الآن المجتمع الأرستقراطي، وعلى سبيل المثال: پوليس اليونان القديمة أو البندقية، بمثابة مشروع غايته التربية طوعاً أم كرهاً: ثمة كمّ من البشر يتعايشون ويعتمدون على أنفسهم، وهم يريدون فرض نوعهم لأنّهم يضطرون، في الغالب، إلى فرض أنفسهم إذا ما أرادوا درء خطر الإبادة الذي يهدّدهم على نحو مرعب. هنا، لا فيض ولا حظوة ولا رعاية تلائم التنوّع؛ هنا، بالنوع حاجة إلى ذاته كنوع، كشيء يمكن له، بموجب قسوته وتجانسه وبساطة شكله بالذات، أن يفرض ذاته ويثبت دوامه في الصراع المستمرّ مع الجيران أو مع

المقهورين المنتفضين أو الذين قد ينتفضون. وتعلّمه التجربة المتنوّعة جداً ما هي الصفات التي يدين لها بخاصة، ورغماً عن كل الآلهة والبشر، بدوام بقائه وغلبته. إنه يسمّي هذه الصفات فضائل ويربّي هذه الفضائل وحدها وينمّيها، وذلك بقسوة. بل إنه يريد القسوة. وكلّ أخلاق أرستقراطية أخلاق غير متسامحة في تربية الشباب، وفي الأحكام التي تنظّم وضع النساء والعادات الزوجية والعلاقة بين الكبير والصغير، والتشريع الجنائي (الذي يهتمّ وحسب بالمنحرفين عن النوع): وهي تحسب اللاتسامح بعينه من بين الفضائل وتسمّيه «عدالة». وعلى هذا النحو يتثبّت، على تتابع الأجيال وتبدّلها، طراز ذو سمات قليلة العدد ولكن قويّة الطبع، نوع بشريّ صارم محارب، ذكيّ كتوم، منغلق منطوٍ على نفسه (يتمتّع، بما هو كذلك، بأرهف إحساس بمفاتن الحياة الاجتماعية وألوانها)؛ فالتصدّي المستمر لظروف غير ملائمة وباقية هي هي على الدوام، هو، كما قلتُ، السبب الذي يجعل الطراز يثبت ويقسو. لكنْ، في يوم من الأيام سوف ينشأ وضع يُسرٍ فتتراخى الشّدّة العظيمة؛ ربما لن يعود بين الجيران مَن يعادي، وربما يتوافر كلّ ما يلزم للعيش وللتنعّم بالحياة أيضاً. فينقطع بضربة واحدة رابط التأدّب القديم وضابطه: لم يعد يحسّ نفسه ضرورياً وشرطاً لازباً للوجود، ولو أراد البقاء لاستطاعه، لكن فقط بوصفه ذوقاً حوشياً وضرباً من الترف النافل. وإذا بالتنوّع، إنْ على شكل انحراف (نحو الأعلى والألطف والأندر) أو على شكل نكوص وشذوذ، يظهر غزيراً وباهراً على مسرح الأحداث، ويجرؤ الفرد على أن ينفرد ويتميّز. عند هذه المنعطفات التاريخية نرى نمواً وتسلّقاً رائعاً متعدداً يشبه نبات أدغال متلاصقة مُتضافرة ومتشابكة في الغالب، بل نرى نوعاً من سرعةٍ استوائية في التسابق

على النمو وحالاتٍ رهيبة من الهلاك وإهلاك الذات. وذلك بفضل الأنانيّات التي تتصادم بعنف وكأنها تتفجّر في تعاركها المستميت من أجل مكان في «الشمس والنور»، والتي لا يعود بإمكانها أن تستمدّ أي حدّ أو رادع أو مهاودة من الأخلاق السابقة. إن هذه الأخلاق بعينها كانت قد راكمت القوّة حتى بلوغها ذلك المبلغ العظيم وشدّت القوس على ذلك النحو المرعب: ـ وها هي «مغلوبة» الآن، ها هي تقع ضحية الحياة. لقد تم الوصول إلى النقطة الخطرة والمقلِقة التي عندها تجتاح الحياةُ الأكبر والأشمل والأكثر تعدّداً، الأخلاقَ القديمة؛ ينتصب الفرد مجبراً على أن يشرّع لنفسه ويبتكر فنوناً وحيلاً خاصة به للحفاظ على الذات والسموّ والخلاص. وفي كلّ صوب علامات استفهام جديدة حول «اللماذا» و«الكيف»، وما من صيغ مشتركة بعد الآن، بل تحالف بين سوء الفهم والتحقير، واقتران مرعب بين الفساد والانحطاط وأرفع الرغبات، وتدفّق غزير لعبقريّة العرق من الفوانيس الناضحة بكل جيّد وخبيث، وتزامن مهلِك بين الربيع والخريف، زاخر بسحر وستر جديدين خاصّين بالفساد الفتيّ الذي لم ينضب بعد ولم يهن. وها هو الخطر الكبير، يعود إلى الظهور بوصفه، مولِّداً للأخلاق وقائماً، هذه المرة، في باطن الفرد، في القريب والصديق، في الزقاق والولد والقلب، في كلّ دفين وكنين من رغبة وإرادة. بماذا يكرز الآن فلاسفة الأخلاق الذين يطلعون في هذا الزمن؟ يكتشف هؤلاء، بوصفهم مراقبين ثاقبي النظر ومتربّصين في كل زاوية، أن النهاية باتت قريبة، وأن كلّ شيء من حولهم يَفسُد ويُفسِد، وأن لا شيء باقٍ إلى بعد غد، باستثناء ضرب واحد من البشر: الوسطيّون الذين لا شفاء لهم. للوسطيّين وحدهم أمل في التواصل والتناسل... إنهم أناس المستقبل،

الناجون الوحيدون؛ «كونوا مثلهم، كونوا وسطيين!» هكذا تقول الآن الأخلاق الوحيدة التي ما يزال لها معنى وما تزال تجد آذاناً صاغية. لكنّ الكرْز صعب بها، بأخلاق الوسطية هذه!. إذ ليس لها أن تبوح قط بما هي عليه وبما تريد. عليها أن تتكلّم على الاعتدال والكرامة والواجب وحبّ القريب... وسيصعب عليها كثيراً ستر المهزلة!.

263

في الإجلال الرفيع: هناك فطرة للمرتبة وهي أكثر من أيّ شيء سواها، علامة على مرتبة عالية؛ وهناك رغبة في تذوّق ألوان الاحترام بفوارقها اللطيفة، رغبة تنمّ عن أصل عريق وعادات نبيلة. أمّا رفعة النفس وجودتها ولطافتها فتتعرّض لامتحان خطِر حين يحضر أمامها ما هو من المرتبة الأولى، ما لم تلفّه السلطة بأهوالها بعد ليكون في مأمن من تطاول الأيدي الغليظة القليلة الحياء: ما يحضر غيرَ مُعْلَم وغيرَ منكشف، ما يحضر مجرِّباً ومتستّراً ومتنكّراً عن قصد ربّما، كما لو كان محكّاً حياً. إن ذاك الذي من شأنه ومراسه أن يسبر غور النفوس سيستعمل هذا الفن بالذات، وبمختلف الطرق، ليعيّن القيمة النهائية التي لنفس ما والموقع الفطري الثابت الذي لها في سلّم المراتب: سيمتحن فيها فطرة الاحترام. الاختلاف يولّد الكراهية[1]: تنهمر عاميّة بعض الطبائع كالماء القذر على غفلة، حين يمرّ أمامها مَن يحمل إناءً مقدساً أو جوهرةً من كنز مرصود أو كتاباً عليه علامات المصير العظيم؛ بالمقابل، يفصح الصمت اللاإرادي واضطراب العين

(1) Différence engendre haine.

وسكون الإيماءات كلّها عن أن النفس تحسّ بدنو ما يجب إجلاله أكثر من أيّ شيء آخر. ولعلّ الطريقة المتّبعة حتى الآن في أوروبا للحفاظ على احترام الكتاب المقدس، خير مثال للتأدّب والتهذّب الخلقي اللذين تدين بهما أوروبا للمسيحيّة. إن كتباً مثله، كتب العمق والمغزى الأخير، بحاجة إلى طغيان سلطة خارجية لتحميها وتضمن لها آلاف السنين من الدوام اللازم كي تُغترف وتُحرز كلّها. إنه لإنجاز كبير أن يترسّخ أخيراً، بعد طول تربية، لدى السواد الأعظم (من المسطّحين وأصحاب الأمعاء السريعة على اختلافهم) ذلك الإحساس بأن لا حقّ لهم في مسّ كلّ شيء؛ وبأن ثمة تجارب مقدّسة عليهم أن يبعدوا عنها الأيدي القذرة ويخلعوا النعال في حضرتها، ـ بل إنه يكاد يكون أعلى قمّة للإنسانية يمكن لهم أن يرتقوا إليها. وعلى العكس، قد يعزّ علينا أن نجد عند من يسمّى بالمثقّفين، عند المؤمنين «بالأفكار الحديثة»، أمراً أشد إثارة للقرف من افتقارهم إلى الحياء، من ارتياحهم إلى صفاقة اليد والعين التي تبيح لهم أن يلمسوا ويلحسوا ويجسّوا كلّ شيء. ومن المحتمل أن نجد اليوم عند الشعب، عند سفلة الناس والفلّاحين بخاصة، قدراً أوفر من آداب الاحترام ومن نبل الذوق النسبيّ مما يُصادف في ذاك العالم المشبوه الذي يعمّره قراء الجرائد وأنصاف المثقّفين.

264

الطبع والتطبّع: لا يمكن أن يمّحى من نفس الإنسان ما كان شغل أسلافه الشاغل الأثير لديهم: سواء كانوا مدّخرين مثابرين ومجرد قطع تابعة لمكتب أو علبة توفير، متواضعين وبورجوازيين

في رغباتهم ومتواضعين في فضائلهم كذلك؛ أم كانوا عاشوا معتادين على إصدار الأوامر من الفجر إلى النجر، هواة تسليات خشنة وربّما أصحاب واجبات ومسؤوليّات أكثر خشونة؛ أم كانوا ضحّوا أخيراً بامتيازات الولادة والمُلْكيّة القديمة ذات يوم ليتعبّدوا ـ ليتبتّلوا إلى «إلههم» ـ بوصفهم أهل ضمير رقيق لا يرحم، ويحمرّ خجلاً من كلّ وساطة. ولا يمكن البتّة أن لا يحمل الإنسان في جسده صفات أهله وميول سلفه، مهما شهد الظاهر ضدّ ذلك. تلك هي مشكلة العرق. وعلى افتراض أن المرء يعرف أموراً بخصوص الأهل فإنّها ستسمح له باستنتاجات بصدد الولد: أموراً من نوع النهم الكريه أو الحسد الضيّق أو الإصرار العنيد البليد على رأي خاطىء ـ خصائص ثلاث تكوِّن دائماً في اجتماعها الطراز العامي بصحيح المعنى ـ إن أموراً كهذه ستنتقل إلى الولد انتقال الدم الفاسد الذي لا مفرّ منه؛ وبواسطة أحسن تعليم وأفضل تربية سيتمكّن المرء وحسب من \الخداع بصدد إرث كهذا. وهل للتربية والتعليم اليوم من هدف آخر؟ في عصرنا الشعبي جداً، أعني العاميّ جداً، لا بد للتربية والتعليم من أن يكونا من حيث الجوهر، فنَّ خداع، الخداع عن الأصل، عن العامي المتوارث قلباً وقالباً. ولو جاء اليوم مربٌّ وكرز قبل كل شيء بالحقّانية، وردّد على من يربّيهم من دون انقطاع: «كونوا حقيقيين! كونوا طبيعيين! تصرّفوا على سجيّتكم!»، لكان سيتناول هو الآخر ـ وأعني أيّ حمار فاضل وساذج مثله ـ عاجلاً أم آجلاً تلك «المذراة» التي لهوراسيوس كي «يكشح الطبيعة»: وما النتيجة؟ ـ إن «العاميّ» سيعود أبداً[1].

---

(1) تلميح إلى قول هوراسيوس: «مهما حاولت كشح الطبيعة بالمذراة فإنها أبداً تعود»، «Naturam si furca expellas, tamen usque recurret».

265

الأنا النبيل: أجازف بإزعاج آذان بريئة وأطرح: إن الأنانية تنتمي إلى جوهر النفس النبيلة، وأقصد بها ذاك الاعتقاد الراسخ بأن كائناً «مثلنا» يجب أن تخضع له بطبيعة الحال كائنات أخرى، وتضحّي بأنفسها لأجله. وتقبل النفس النبيلة واقعة أنانيّتها هذه من دون طرح أيّ علامة استفهام وكذلك من دون إحساس بالقسوة والإكراه والتعسّف، بل تقبلها بالأحرى بوصفها شيئاً يقوم على قانون الأشياء الأصليّ، على الأرجح. وهي إنْ بحثتْ عن اسم لها، قالت: «إنها العدالة بعينها». وفي ظروف معيّنة تحمل على التردّد بدءاً، تقرّ هذه النفس بأن ثمة من يتساوى معها. وإذ تتضح لها مسألة الرتب هذه تتجوّل بين هؤلاء الأنداد والمتساوين بخطى واثقة وتخالطهم بنفس الحياء والاحترام الرقيق الذي تكنّه لذاتها، وذلك وفقاً لميكانيكية سماوية فطرية تعرف سرّها كلّ النجوم. هذه الدقّة وهذا القَصْر الذاتيّ في مخالطة الأنداد إنْ هو إلّا وجه إضافيّ آخر لأنانيتها. وكلّ نجمة هي بمثل هذه الأنانية: إنها تحترم ذاتها في الآخرين وفي الحقوق التي تتنازل عنها لصالحهم، ولا ينتابها أدنى شك في أنّ تبادل الاحترام والحقوق، بوصفه جوهر كلّ مخالطة، ينتمي هو الآخر إلى حال الأشياء الطبيعية. النفس النبيلة تعطي كما تأخذ، انطلاقاً من فطرة المجازاة الشغوفة والحسّاسة الكامنة في أعماقها. أما أفهوم «الرحمة» فليس له «بين الأنداد»[1] معنى ولا شذا. ربما هناك طريقة لطيفة لتقبّل هبات تهطل من حالق، ولارتشافها بعطشٍ قطرةً قطرة؛ غير أن النفس

---

(1) Inter pares.

النبيلة ليست ماهرة في هذا الفنّ وهذا المسلك. فأنانيتها تحول دون ذلك. وهي على العموم، لا تحبّ التطلّع إلى أعلى بل تفضّل إما النظر إلى الأمام، أفقياً وبترفّق، أو إلى الأسفل: . . . تعلم أنها تقيم في الأعالي.

266

الغنى بالذات: ـ «لا يمكن أن يُحترم حقاً إلّا ذاك الذي لا يبحث عن ذاته». غوته إلى المستشار شلوسر.

267

صيغة انحطاط بكلمتين: للصينيين قول مأثور تعلّمه الأمهات لأولادهن: «سياو ـ سين»، أي «صغّر قلبك!». ذاك هو الميل الأساسي الفعلي في حضارات مكتهلة: إني لا أشكّ في أنّ اليوناني القديم كان سيكتشف فينا أيضاً، نحن أوروبيّي الحاضر، لأول وهلة، تصغير الذات، ـ وهذا وحده كفيل بأن «يُنفّر ذوقَه منّا».

267

ما العامي في النهاية؟: الألفاظ هي علامات صوتية على أفاهيم؛ أما الأفاهيم فهي علامات صورية، قليلة التعيّن أو كثيرته، على أحاسيس تتكرّر مراراً ويصاحب بعضها بعضاً، أي على مجموعات من الأحاسيس. وضماناً للتفاهم لا يكفي أنْ يستعمل الناس الألفاظ نفسها، بل عليهم أن يستعملوا الألفاظ

نفسها للدلالة على النوع نفسه من التجارب الجوّانية أيضاً، وفي النهاية، يجب أن تكون تجربتهم تجربة عامّة يتشاطرونها. لذا يتفاهم أبناء القوم الواحد بصورة أفضل مما يفعل أفراد شعوب مختلفة، حتى لو استعملوا اللغة نفسها؛ أو بالأحرى، بعد أن يتعايش الناس مدةً طويلة في ظلّ ظروف متشابهة (من حيث المناخ والأرض والخطر والحاجات والعمل) يتولّد عن تعايشهم شيء ما «يفهم بعضه على بعضه الآخر»، أي يتولّد قوم. وفي كلّ نفوس هذا القوم يغلب عدد متساوٍ من تجارب العيش المتكررة مراراً على تجارب أكثر ندرةً: فتزداد من جرّاء ذلك سرعة التفاهم أكثر فأكثر ـ تاريخ اللغة هو تاريخ سيرورة اختزالية ـ؛ وعلى أثر هذا التفاهم السريع تتوثّق الروابط أكثر فأكثر. وكلما عظم الخطر كلما ازدادت الحاجة إلى اتفاق سريع وسهل على ما يلزم؛ فعدم الوقوع في سوء تفاهم عند الخطر هو أمر لا بدّ منه في تخالط البشر. وفي كل صداقة أو علاقة غرام، يمكن اختبار التالي: لا تدوم مثل هذه العلاقة بعد أن يكتشف أحد الطرفين أن الألفاظ نفسها توحي إلى الآخر بأحاسيس وآراء ومشاعر وتمنّيات ومخاوف تختلف عن أحاسيسه هو وآرائه إلخ. (الخوف من «سوء التفاهم الأبدي»: ذاك هو الجنّي العطوف الذي يَنْهَى أشخاصاً، من الجنسين غالباً، عن ارتباط متهوّر ينصح به القلب والحواس. وليس «جنّي النوع» على طريقة شوبنهاور!). أيّ مجموعات من الأحاسيس تفيق قبل غيرها وتتكلّم وتأمر داخل نفسٍ ما: ذاك ما يفصل في تراتبيّة قِيَمها برمّتها، ويعيّن في النهاية لوحة قيم الخير الخاصة بها. وتنمّ تقييمات الإنسان بشيء ما عن تركيب نفسه، وعمّا هو عندها شروط حيوية وضرورية فعلية. ولنفرض جدلاً أن الضرورة لم تجمع منذ الأزل، إلّا أولئك الأناس الذين استطاعوا

أن يلمّحوا بعلامات متشابهة إلى حاجات وتجارب عيش متشابهة، فإن ما ينتج عن ذلك جملةً هو أنّ سهولة تواصل الضرورة، التي تعني في النهاية معايشة تجارب عاديّة وعاميّة وحسب، كانت القوة الأكثر جبروتاً بين كل القوى الجبّارة التي أطلقت يدها في الإنسان حتى الآن. فالناس المتشابهون والعاديون كانوا أبداً وما زالوا أفضل حالاً؛ أما الناس الأكثر ندرةً ورَهَفاً وغرابةً ولبساً، فغالباً ما يلبثون وحيدين ويتعرّضون في عزلتهم للحوادث، ونادراً ما ينجبون ذريّة. يجب استنهاض قوى مضادّة عظيمة للوقوف بوجه هذا التقدّم الطبيعيّ، والطبيعيّ بإفراط، نحو التشابه(1)، بوجه سيرورة الإنسان نحو المتشابه والعادي والوسطيّ والقطيعي... نحو العامي!.

269

الإنسان الأعلى أمام الشعب والسيكولوجيين: كلما زاد السيكولوجي ـ أعني ذاك الذي ولد ليكون، بلا مناص، سيكولوجيّاً وسابراً للنفوس ـ من اهتمامه بالحالات النادرة وبصفوة الناس، كلما كبر خطر اختناقه من الشفقة: إن به حاجة إلى القسوة والصفاء أكثر من أيّ إنسان سواه. ذلك أن القاعدة هي فساد الإنسان الأعلى وهلاك النفوس النادرة: وكم من المرعب أن تلبث مثل هذه القاعدة نصب العينين أبداً. يكتشف السيكولوجي مرة هذا الهلاك، ويبصر «لا مناص» الإنسان الأعلى الجوّاني هذا و«فوات الأوان» الأبدي بكلّ معنى من المعاني، ويكاد يكتشفه من

---

(1) Progressus in simile.

ثمّ، المرّة تلو المرّة عبر التاريخ كلّه. وذاك عذابه المتعدّد الوجوه الذي يؤدّي به ذات يوم إلى أن يعادي قدره بمرارة ويحاول تدمير ذاته، ـ أي إلى أن «يفسد» بدوره. ويكاد المرء يلاحظ عند كلّ سيكولوجي تقريباً رغبة وميلاً عزيزاً إلى معاشرة أناس يعيشون برتابة واستقرار، ميلاً ينمّ عن أنه يحتاج أبداً إلى الشفاء، إلى نوع من النسيان والفرار بعيداً عما يثقل الضمير من جراء معاينته وتشريحه، من جراء «صنعته». فالخوف من الذاكرة لا يفارقه. وهو يلجأ بسهولة إلى الصمت حين يحكم الآخرون: حين يَحترمون هم ويُكرِمون يحبّون ويُجِلُّون ينصت هو بوجه جامد لأنه رأى ـ أو يلجأ إلى إخفاء صمته بالموافقة صراحةً على رأي سطحيّ ما. وقد يبلغ وضعه وتناقضه حدّ الرعب: فهناك بالذات حيث تعلّم هو وضع الشفقة الكبيرة إلى جانب الاحتقار الكبير، نرى العامة والمتعلّمين والغلاة يتعلّمون بدورهم الإكرام الكبير ـ إكرام «الرجال الكبار» والفطاحل الذين لأجلهم يبارك المرء ويصون الوطن والأرض وكرامة الإنسانية وذاته، فيقدّمهم قدوة للشباب ولتربيته... ومن يدري ما إذا لم يحدث في كلّ الحالات الكبيرة حتى الآن أمر واحد لا غير: كانت العامّة تعبد إلهاً ـ والإله لم يكن سوى ضحيّة مسكينة. إنّ النجاح كان دائماً أكبر الكَذَبة ـ والـ «عمل» نفسه نجاح؛ عمل رجل الدولة الكبير أو الفاتح أو المكتشف يقنّعه إلى حدّ يمنعنا من التعرّف إليه؛ أما الـ «عمل»، عمل الفنان أو الفيلسوف، فيخترع بدءاً ذاك الذي خلقه أو الذي يُفرض أن يكون قد خلقه؛ و«الرجال الكبار»، كما نكرِّمهم، هم اختلاقات صغيرة رديئة يؤتى بها فيما بعد؛ ففي عالم القيم التاريخية تسود العملة المزيَّفة. وعلى سبيل المثال، شعراؤنا الكبار أمثال بايْرون وموسّيه وپو وليوباردي وكلايْست وغوغول (لا

أجرؤ على ذكر أسماء أكبر لكنّي أقصدها)، ـ كما هم على سجيّتهم، بل كما يجب أن يكونوا، على الأرجح: أناس يعيشون للّحظة، وهم حماسيون وحسّاسون وصبيانيّون، وفي الوثوق والارتياب متهوّرون وفجائيون؛ ذوو نفوس فيها عادة صدع ما يبغون إخفاءه؛ ينتقمون غالباً بأعمالهم لتلوّث جوّانيّ ما، ينشدون غالباً بتحليقاتهم النسيان والفرار من ذاكرة مفرطة الوفاء؛ يهيمون غالباً في الوحل، بل يهيمون به إلى أن يشبهوا الأنوار الضالّة على ضفاف المستنقعات فيتظاهرون بكونهم نجوماً ـ ويسمّيهم القوم عندئذ مثاليّين، على ما أظن؛ يصارعون غالباً فرقاً طويلاً، شبحاً من اللا-إيمان يتردّد عليهم ويثلجهم ويجبرهم على مجاهدة المجد وعلى تناول «الإيمان بذواتهم» بنهم من أيدي متزلّفين سكارى ـ فيا لعذاب من حزر ذات يوم حقيقة الفنانين الكبار هؤلاء، وحقيقة الإنسان الأعلى بعامة!. ولا عجب من أنهم يلاقون من قبل المرأة بالذات، وهي نافذة البصيرة في عالم الآلام وللأسف متلهّفة أيضاً لمدّ يد العون والإنقاذ بما يفوق قدراتها بكثير، يلاقون تلك الشفقة الشغوفة اللامحدودة التي لا تفهمها العامّة، وعامّة العباد بخاصة، فتمطرها بوابل من التأويلات الحشرية والمتغطرسة. غير أن الشفقة هذه تخطىء في صدد قوّتها باستمرار؛ إذ بودّ المرأة أن تؤمن بأن الحبّ قادر على كلّ شيء ـ ذاك هو إيمانها الفعلي. آه، إنّ العالِم بالألباب يحزر كم هو الحبّ فقير وكم هو غبي، وكم أنّ أفضل حبّ وأعمقه أيضاً، هو عاجز ومدّع ومخطىء وأقرب إلى الإهلاك منه إلى الإنقاذ! ـ من المحتمل أن تكون الأسطورة المقدسة، بل أن يكون قناع حياة يسوع المقدّس يُخفي حالةً من حالات الشهادة الأكثر ألماً، شهادة العِلْمان بالحب: شهادة القلب الأكثر براءة وولعاً الذي لم يكْتفِ

يوماً بأيّ حبّ بشري، والذي طالب بالحبّ ومبادلته ولا شيء سواه، بقسوة وجنون وثورة مرعبة على أولئك الذين ضنّوا عليه بالحبّ؛ سيرة تعسٍ لا يشبع حبّاً ولا يُروى عطشه إليه؛ سيرة من كان عليه أن يبتكر الجحيم ليزجّ فيه بأولئك الذين لم يريدوا أنْ يحبّوه، ـ ومن كان عليه أخيراً، وبعدما أمسى عالماً بحبّ البشر، أنْ يبتكر إلهاً كلّه حبّ وكلّه قدرة على الحبّ، إلهاً يرقّ لحبّ البشر لأنّهم على ذاك القدر من البؤس والجهل! مَن يشعر هكذا، من يعلم بالحبّ على هذا النحو، ينشد الموت ـ لكنْ، لِمَ الاسترسال في أمور موجعة كهذه؟ إذا ما فرضنا أن المرء ليس مجبراً عليه.

270

كلما ارتفع النوع كلما ازداد القناع: لكلّ إنسان تألّم بعمق، كبرياء وقرف روحي ـ وعمق الألم ودرجته يكاد يعيّن التراتبيّة بين البشر ـ، بل لكلٍّ يقينه المرعب الذي صُبغ به وتشبّع منه، يقين يقول بأنه يعلم، بفضل تألّمه، أكثر ممّا يمكن أن يعلم أكثر الناس ذكاءً وحكمةً، وبأنه استطلع الكثير من العوالم المفزعة والنائية وأقام فيها لمدة وكأنه «في داره»، عوالم «لا تعرفون أنتم عنها شيئاً»! . . . وتعرف كبرياء المتألّم الروحية الصامتة هذه، ويعرف هذا الافتخار لمصطفى المعرفة، لأليفها «المطّلع على السرّ»، لِمَن كاد يذهب ضحيتها، أنّ به حاجة إلى شتّى أشكال التقنّع لكي يتّقي لمس الأيدي المسعفة والملحاحة وكلّ من ليس مثله في الألم بعامة. فالألم العميق يجعل المرء نبيلاً، ويعزل. إن ضرباً من أرفع ضروب التنكّر هو الأبيقورية، ويليها التظاهر ببأس معين

في الذوق يستخفّ بالألم ويتصدّى لكلّ ما هو حزين وعميق. ثمة «أناس مرحون» يتذرّعون بالمرح لأنه يثير سوء فهم في صددهم: فهم يريدون أن يُساء فهمهم. وثمة «أناس عِلميّون» يتذرّعون بالعِلم لأنه يضفي عليهم ظاهراً مرحاً ولأن العلميّة تحثّ على الاستنتاج بأن من يتحلّى بها هو إنسان سطحي: فهم يريدون التضليل والتدليل إلى استنتاج مغلوط. وثمة أرواح حرة عابثة تريد أن تخفي وتنكر أنها قلوب فخورة محطَّمة لا يُرجى لها الشفاء مثال كلبيّة هاملت وحالة غالياني؛ ويصبح الهزل بعينه أحياناً قناعاً لعلمان مهلِك ومفرط في اليقين ـ ما عنه ينتج أن الإنسانية الرفيعة تلزم باحترام «القناع»، والامتناع عن الحشرية وعن مزاولة السيكولوجيا في غير محلّها.

271

الكون خالصاً ـ وخالصاً من الرحمة أيضاً: ما يفصل بين إنسانيْن ويشقّ بينهما الهوّة الأكثر سحقاً هو فهم مختلف للنظافة ودرجة مختلفة فيها. وما نفع كلّ استقامة وكلّ منفعة متبادلة، ما نفع كلّ نيّة طيّبة بالتبادل: في النهاية تبقى الأمور على حالها. الواحد «لا يطيق رائحة الآخر!». إن الفطرة العليا للنظافة تطرح من يتحلّى بها في أغرب وحشة وأخطرها، بوصفه قدّيساً: لأن القداسة هي هذا. هي أعلى رَوْحنة للفِطرة المذكورة. يوجد نوع من الشعور بغبطة غامرة لا تُوصف في الاستحمام، يوجد نوع من الشغف والعطش يدفع النفس بلا توقّف من الليل نحو الفجر، ومن العَكَر و«الكآبة» نحو البهيّ والنيّر والعميق والرهيف: فمن له ميل من هذا القبيل ـ وهو ميل نبيل ـ يتميّز بقدر ما ينعزل. أما

رحمة القدّيس فهي رحمة تشفق على قذارة الإنساني المفرط في الإنسانية. وهناك درجات وشواهق يشعر فيها أن التراحم نفسه جنابة وتلوّث. . .

272

شعور المرء بأنه استثناء: العلامة على النبل: أن لا يفكّر المرء يوماً بالحطّ من واجباته بجعلها واجبات للجميع؛ أنْ لا يتخلّى عن مسؤوليته ولا يقبل أن يشاطرها أحداً؛ أن يعدّ امتيازاته وممارستها من جملة واجباته.

273

قبل بلوغ الهدف: يحسب الإنسان الذي يسعى لأمر عظيم كلّ من يصادفه في دربه إما بمثابة وسيلة وإما بمثابة حاجز وعائق، أو بمثابة مضطجع موقّت. أما رفقه بأخيه الإنسان، وهو رفق رفيع يتميّز به، فهو ممكن بدءاً حين يبلغ قمته ويسود. أما ما يُفسد عليه كلّ مخالطة فهو نفاد الصبر والوعيُ بأنه كُتب عليه أن يظلّ إلى ذلك الحين، يلعب دوره في الكوميديا ـ والحرب نفسها كوميديا تخفي الغاية شأنها شأن كلّ وسيلة ـ: هذا النوع من البشر يعرف الوحدة وما لها من سمّ يفوق كلّ السموم.

274

مشكلة المنتظرين: يلزم الكثير ممّا لا يُحسب له حساب ومن حالات الحظ السعيد، كي يتمكّن إنسان أعلى، يرقد فيه الحلّ

لمشكلة ما، من الشروع بالفعل قبل فوات الأوان، من «تفجير طاقته» إن جاز التعبير. بالمعدّل، لا يحدث ذلك، وفي جميع أركان الدنيا، يقعد منتظرون يكادون لا يدرون أنهم ينتظرون ولا، بأي حال، أنهم ينتظرون عبثاً. وفي بعض الأحيان، يتأخّر نداء الإيقاظ، تلك المصادفة التي تعطي إشارة «السماح» بالفعل فيأتي بعد أن يكون قد استنفد أفضل العمل وقوة الفعل في طول القعود. وربّ واحد يكتشف مرعوباً حين «يهب»، أنّ أطرافه تخدّرت وروحه ثَقل. «لقد فات الأوان!» يقول لنفسه، فاقداً الإيمان بذاته ويصير مذ ذاك، وإلى الأبد، من دون نفع. أيكون «رفاييلْ من دون يدين»، بأوسع معنى للكلمة، هو القاعدة في ملكوت العبقريّة وليس الاستثناء؟. لعلّ ما يندر ليس العبقرية بقدر ما يظنّ، بل الأيدي الخمسمائة التي تحتاج إليها العبقرية لكي تروّض الـ كايْروس، أي «الوقت الملائم»، لكي تتلقّف المصادفة وتنتهز فرصتها!

275

العين العادية: من لا يريد أن يرى ما العالي في إنسان ما ينظر نظرة أثقب إلى الوضيع فيه والسطحي. وينضح بما فيه جرّاء ذلك.

276

حول التعرّض للضرر: لدى التعرّض للجروح والخدوش على أنواعها تبقى النفس الوضيعة والفظّة أفضل حالاً من النفس النبيلة: فالأخطار التي تهدّد الأخيرة يجب أن تكون أكبر، واحتمال أن

تصاب بمكروه وتهلك هو، نظراً إلى تعدّد شروطها الحياتية، عظيم جداً. لدى السحليّة ينمو الإصبع الذي انقطع من جديد: ليس الأمر على هذه الحال فيما يخصّ الإنسان.

277

فيما بعد: كم هذا مزعج! رجعنا إلى القصة القديمة! حين ينجز المرء بناء البيت يكتشف أنه تعلّم خلال البناء شيئاً من دون أن يدري، شيئاً كان عليه أن يعرفه ضرورةً قبل الشروع بالبناء. ذاك هو «فوت الأوان!» الأبدي المضجر. مرارة كلّ ناجز!...

278

تقنّع جديد: أيها الجوالة، من أنت؟ أراك ماضياً في سبيلك من دون تهكّم، من دون حبّ، بعينين غامضتين، مبلّلاً وحزيناً وكأنك مسبار يعود من كلّ قعر إلى النور ولم يرتو، ـ لِمَ هبط إلى هناك؟ ـ بصدر لا يتنهّد وشفة تخفي القرف ويدَ تمسك بتأنٍّ: من أنت؟ ماذا فعلت؟ إسترح هنا: هذا الموضع يرحّب بكل واحد، إسترح! أياً تكن، قل: ماذا يروق لك الآن؟ ماذا يؤمّن لك الراحة؟ أذكره بلا حرج: ما لي، أقدّمه لك! «الراحة؟ الراحة؟ أيها الفضولي، ماذا تقول! لكن، أعطني رجاءً...» ماذا؟ ماذا؟ أفصح!. «قناعاً آخر! قناعاً ثانياً!»...

279

السوداويون في سعادتهم: يُفشي أهل الحزن العميق سرّهم حين

يسعدون: لهم طريقة في تلقّف السعادة كما لو أنّهم يريدون أن يسحقوها ويخنقوها غيرةً، ـ آه، إنهم يعلمون جيداً أنها ستفرّ منهم!.

280

قبل الفعل الكبير: «يا للهول! ما هذا؟ ألا يتقهقر؟». أجل! لكنكم تسيئون فهمه إذ تشتكون... إنه يتراجع ككلّ من يستعد لوثبة كبيرة...

281

الجوّالة وتنبّؤ دلفي: «هل تصدّقونني؟ لكني أطالب بأن تصدّقوني: لقد أسأتُ دائماً الظن بنفسي، وفكّرتُ في نفسي دائماً بطريقة رديئة، بل فكّرتُ في نفسي في حالات نادرة وحسب وغصباً عني، دائماً من دون رغبة «في الموضوع» وعلى أهبة أن أشرد عن «ذاتي»، دائماً من دون إيمان بالنتيجة، وذلك بفضل ارتياب لا يُقهر في إمكان معرفة الذات، ارتياب ذهب بي إلى حدّ الإحساس بتناقض وصفي في أفهوم «المعرفة الـ بلا توسّط» عينه الذي أقدم النظريّون على طرحه: إن هذه الحقيقة بمجملها هي تقريباً الأمر الأكثر وثوقاً الذي أعرفه بصددي. ففيّ بالتأكيد نفور من الاعتقاد بشيء محدّد بصددي. ترى هل يكمن في ذلك لغز؟ على الأرجح. لكنه، لحسن الحظ، لغز لا يعود إليّ حلّه... لعلّه يفضح النوع الذي أنتمي إليه؟ لكنه لا يفضحه لي: وهكذا أُفضّل الأمر على كلّ حال».

282

مع الأوباش على مائدة واحدة: «ماذا حدث لك؟» قال متردداً: «لا أدري. ربما حلَّقَتْ هاربيان[1] فوق مائدتي». يحدث اليوم في بعض الأحيان أن يثور إنسان خجول ومعتدل ورفيف فجأة فيكسّر الصحون ويقلب الطاولة ويصرخ ويزمجر ويشتم الجميع... وينصرف أخيراً خجِلاً وغاضباً من نفسه. إلى أين؟ من أجل ماذا؟ كي يموت جوعاً في العزلة؟ كي تخنقه الذكرى؟. إن صاحب النفس العالية المتطلّبة الذي نادراً ما يجد مائدته حاضرة وطعامه جاهزاً، معرّض في كلّ حين لخطر كبير: لكنّ هذا الخطر هو اليوم عظيم. وهو، إذ يكون ملقى في عصر صاخب وغوغائي وغير راغب في الأكل من صحن هذا العصر، يمكن أن يودي به الجوع والعطش أو ينتابه قرف مفاجىء إنْ «تناول» مع ذلك. والأرجح أننا قد أكلنا جميعنا ذات يوم من موائد لم تخصّص لنا. ويعرف أكثرنا روحية بخاصة، أي أكثرنا صعوبة في التغذية، عسر الهضم الخطر الذي ينشأ عن خيبة الإدراك المفاجىء لنوع الطعام ولمن جالسنا على المائدة. إنه بَشَم ما بعد الوليمة.

283

متى يمدح النبيل؟: يوجد ضبط للنفس لطيف ونبيل معاً، وهو أن لا يمدح المرء، إنْ أراد أنْ يمدح أصلاً، إلّا في حال كان

(1) Harpyien: «الناهبات»، في الميثولوجيا فتيات على شكل طيور ضخمة تخطف وتنهب.

غير موافق. إذ في الحالة المعاكسة سيمدح ذاته، وهو ما ينافي حسن الذوق. إلّا أن هذا الضبط للنفس يسنح فرصة وحجة لطيفة مستمرة لإثارة سوء الفهم. فلكي يجوز للمرء أن يسمح لنفسه بهذا الترف الحقيقي في الذوق والخلق، عليه ألّا يعيش بين بلهاء الروح، بل بين الأناس الذين يسلّون حتى بلطف هفواتهم ومغالطاتهم، وإلّا دفع الثمن غالياً! «إنه يمدحني: فالحق معي إذن». هذا الاستنتاج الأخرق يفسد علينا، نحن المتوحّدين، نصف الحياة، لأنه يضع العِير بجوارنا وصحبتنا.

284

عدم مشاطرة ما هو عاميّ: العيش بسكينة عظيمة وفخورة؛ دائماً في الـ ما وراء... التصرّف في الأشاعير، في الـ معها والـ عليها، إرادياً. وامتلاكها وعدم امتلاكها حسب الرغبة. الهبوط عليها لساعات وامتطاؤها وكأنها أحصنة، وفي الغالب أعيار. إذ على المرء أن يتقن الانتفاع من غبائها، انتفاعه من غلوائها. الحفاظ على الواجهات الثلاثمائة وعلى النظّارات السوداء أيضاً. إذ هناك حالات لا يباح فيها لأحد أن ينظر إلى عيوننا ولا بأي حال إلى «قعورنا» خلف الواجهة. إختيار اللياقة أنيسةً، تلك الرذيلة المرحة والعابثة. البقاء سيّداً على الفضائل الأربع، الشجاعة والبصيرة والعطف والتوحّد، إذ إن التوحد لدينا فضيلة بوصفه ميلاً ونزوعاً سامياً إلى النظافة، ميلاً يستشفّ كيف أن الوصل بين إنسان وإنسان، «في المجتمع»، ينطوي بلا مناص على ما هو لا-نظيف. كلّ انتماء إلى جماعة ما ـ إلى العامّة ـ يجعل المرء بطريقة ما وفي محل ما وآن ما، «عاميّاً».

285

ناءٍ وبعيد المنال: ـ أكبر الأحداث وأكبر الأفكار ـ لكن، أكبر الأفكار هي أكبر الأحداث ـ تُستوعَب دائماً بأكثر تأخّر. فالأجيال التي تعاصر مثل هذه الأحداث لا تعيشها، بل تعيش إلى جانبها من دون أن تدري. ويحدث هنا ما يحدث في ملكوت النجوم. فالنور المشعّ من أبعد النجوم يبلغ البشر بأكثر تأخّر؛ وقبل بلوغه يُنكر الإنسان أن هناك نجوماً. فكم من القرون تمرّ إلى أن يستوعب المرء روحاً ما؟ ذاك مقياس أيضاً، ذاك ما يخلق أيضاً تراتبيّة وقواعد من النوع الذي يحتاج إليه الروح والنجم.

286

النظر إلى أعلى والنظر إلى أسفل: «هنا الرؤية حرّة والروح يسمو»[1]... لكنّ ثمة أيضاً ضرباً معاكساً من البشر، ضرب هو أيضاً في القمة ورؤيته أيضاً حرّة. لكنه ينظر إلى أسفل.

287

معاملة المرء لذاته: علامة رتبته: ما النبيل؟ ماذا يعني لنا اليوم اللفظ «نبيل»؟ كيف نكشف، كيف نتعرّف على الإنسان النبيل تحت سماء سلطة الرعاع البادئة، هذه السماء الملبّدة الثقيلة التي تجعل كلّ شيء كثيفاً ورصاصياً؟ ليست الأفعال هي التي تدلّل عليه، ـ فالأفعال دائماً ملتبسة ولا تُسبر ـ؛ ولا «الأعمال» هي

(1) غوته، فاوسْت، الجزء الثاني، المشهد الأخير.

الأخرى. فبين الفنانين والعلماء نجد اليوم عدداً كافياً من أولئك الذين تنمّ أعمالهم عن أنّ دافعهم هو رغبة عميقة في النبيل: لكنّ هذه الحاجة إلى النبيل هي بالذات مختلفة جذرياً عن حاجات النفس النبيلة بعينها، بل هي بالضبط العلامة البليغة والخطرة على غيابها. إنّ ما يحسم هنا، إنّ ما يعيّن هنا التراتبية ليس العمل، بل هو الإيمان، كي نستعيد صيغة دينية قديمة بمعنى جديد وأعمق: هو يقين ما راسخ تملكه النفس النبيلة بصدد ذاتها، شيء ما يمتنع البحث عنه والعثور عليه، وربما فقدانه أيضاً... إن النفس النبيلة تكنّ لذاتها الاحترام...

288

وسيلة لإخفاء الروح: يوجد أناس يمتازون، بطريقة لا مناص منها، بالروح؛ فمهما لفّوا وداروا وستّروا العيون الخائنة بأيديهم (وكأن اليد ليست خائنة!): ينكشف، في النهاية دائماً، أن لهم شيئاً يخفونه، أعني روحاً. لكنْ ثمّة وسيلة في غاية اللطافة من أجل الخداع، لأطول مدة ممكنة على الأقل، ومن أجل التظاهر الناجح بغباء يفوق القدر الفعلي ـ وهو أمر مفيد في الحياة اليومية إفادة المظلّة ـ، وتدعى هذه الوسيلة الحماس: بما في ذلك ما ينتمي إليه، كالفضيلة على سبيل المثال. إذ كما يقول غالياني وهو الأخبر بالأمر: إن الفضيلة حماس[1].

289

عن الرصانة العميقة: تُسمعنا كتابات المتوحّد دائماً شيئاً من

---

(1) Vertu est enthousiasme.

صدى القفر، شيئاً من نبرة الوحدة الهامسة والتفاتها الخَفِر؛ وفي أقوى كلماته، بل في صيحته نفسها يُسمع رنين للصمت والتكتّم جديد وخطر. فمن جالس نفسه وحيداً في الليل والنهار وعاماً بعد عام ليماحكها ويناجيها مناجاة حميمة، مَن تحوّل في كهفه، الذي قد يكون متاهة أو منجم ذهب، إلى دبّ أو حفّار كنز أو حارس كنزٍ أو تنين: أكسب أفاهيمه نفسها، أخيراً، لوناً خاصّاً يمتزج فيه النور بالظلمة، ورائحة تعبق بالعمق بقدر ما تعبق بالعفن، شيئاً يملص من التواصل ويلفح بنفسه البارد كلّ عابر: المتوحد لا يؤمن بأن فيلسوفاً من الفلاسفة ـ على فرض أن الفيلسوف كان في البدء دائماً متوحداً ـ عبّر يوماً في الكتب عن آرائه الخاصة والنهائية: ألا يكتب الكتب لإخفاء ما يضمره؟. بل هو يشك فيما إذا أمكن للفيلسوف أن يتوصّل إلى آراء «خاصّة ونهائية» بعامة: ألا يوجد، ألا يجب أن يوجد لديه خلف كلّ كهف كهف آخر وأعمق. عالم أشمل وأغرب وأغنى فوق أيّ سطح، وسُحق سحيق وراء كلّ أساس وتحت كلّ «تأسيس». إن كلّ فلسفة هي فلسفة واجهة، هكذا يحكم المتوحّد: «ثمة شيء من التعسّف في أنّه [الفيلسوف] توقّف والتفت وتلفّت ههنا، في أنه لم يتعمّق في الحفر، بل ألقى هنا الرفش جانباً. ثمة شيء من الارتياب أيضاً». إن كلّ فلسفة تواري أيضاً فلسفة؛ كلّ رأي مَخْبَأ أيضاً، وكلّ كلمة قناع أيضاً.

290

من يفضّل أن يظل لا مفهوماً: كلّ مفكّر عميق يخشى أن يُفهم أكثر مما يخشى أن يُساء فهمه. فالأمر الأخير قد يخدش غروره؛

أما الأمر الأول فيؤلم قلبه وعطفه الذي يردّد باستمرار: «آه، لماذا تريدون أنتم أيضاً أن تحملوا الوزر الذي أحمل؟».

291

النداء: «كونوا بسطاء!»: الإنسان الذي هو حيوان متعدّد وأفّاك ومصطنع ومبهم والذي تهابه سائر الحيوان، لا لقوته، بل لدهائه وذكائه بالأحرى، اخترع راحة الضمير كي يتمتّع بنفسه ولو لمرة واحدة، بوصفها بسيطة؛ وكل الأخلاق هي تزوير طويل وجريء يصير بفضله التمتّع بمشاهدة النفس ممكناً بعامّة. فمن وجهة النظر هذه، ثمة ما ينتمي إلى أفهوم «الفن» أكثر بكثير مما يُعتقد عادة.

292

في المسؤولية الكبيرة: الفيلسوف: إنسان يعيش ويبصر ويسمع ويتوجس ويأمل ويتخيّل باستمرار أموراً خارقة؛ هو من تصيبه أفكاره الخاصة كما لو كانت آتية من الخارج، من أعلى ومن أسفل، بوصفها نوعاً خاصّاً به من الحوادث والصواعق؛ ومن قد يكون هو نفسه عاصفة تحبل ببروق جديدة؛ إنسان خطير العاقبة، يصاحبه أبداً دويّ ودمدمة وغور فاغر وأمور مرعبة. الفيلسوف: آه، كائن يفرّ من ذاته مراراً ويفزع من نفسه مراراً، لكنه أشدّ فضولاً من أن يمتنع عن العودة إلى ذاته، «إلى رشده»، المرة تلو المرة.

293

بمن تليق الرحمة: ثمة رجل يقول: «هذا يعجبني. سآخذه ملكاً

لي وأدافع عنه وأحميه من أيّ شيء كان»؛ رجل بوسعه أن يحمل قضية وينفّذ قراراً ويخلص لفكرة ويحافظ على امرأة ويعاقب مقداماً ويكبح جماحه؛ رجل له غضبه وسيفه، فيتبعه الضعفاء والمتألّمون والمنكوبون وكذلك تتبعه الحيوانات عن طيبة خاطر، وتنضمّ إليه بطبيعة الحال، أي باختصار، رجل سيّد بالطبع. رجل من هذا القبيل، إنْ رَحِمَ كانت هذه الرحمة ذات قيمة! لكْن، ما عسى تنفع رحمة من يتألّمون! بل رحمة من يكرزون بالتراحم!. يوجد اليوم في معظم أنحاء أوروبا حساسيّة مفرطة وانفعاليّة مرضية إزاء الألم، وكذلك إقبال منفّر على التأفّف وتراخٍ يتزيّن بالدين والسّقط الفلسفي من أجل التظاهر بالسموّ؛ بل يوجد ما يشبه طقساً للألم. لكنّ لارجولة ما يُعمّد في أوساط أولئك الغلاة باسم «التراحم»، بادية للعيان وللوهلة الأولى، على ما أظنّ. إن هذا الضرب الجديد من الذوق الرديء يجب أن يُنبذ نبذاً قوياً وجذرياً؛ وإني أتمنّى أخيراً أن يزيّن المرء قلبه وعُنقه، على العكس، بالتميمة الجيّدة: «gai saber». أي «بهجة العِلم»، كي نوضّح الأمر للعِرْبان[1].

294

الرذيلة الأولمبية: غصباً عن ذاك الفيلسوف الذي جاهد، لكونه إنكليزياً قحّاً، من أجل خدش سمعة الضحك عند كلّ الرؤوس المفكّرة ـ «إن الضحك هو عاهة شنيعة للجبلّة البشرية، يطمح كل رأس مفكّر إلى التغلّب عليها» (هوبز) ـ، سأسمح لنفسي حتى

(1) يقول نيتشه طبعاً: للألمان.

بوضع تراتبية للفلاسفة، وفقاً لرتبة ضحكهم، صعوداً إلى الذين يقدرون على الضحك الذهبي. وعلى فرض أن الآلهة تتفلسف هي الأخرى، وهو أمر أميل إلى الاعتقاد به بناءً على استنتاجات معيّنة، فإني لا أشكّ بأنها تحذق، أثناء ذلك أيضاً، في الضحك بطريقة جديدة وما فوق بشرية، وعلى حساب كلّ الأمور الجدّية! إن الآلهة تحبّ التهكّم: ويبدو أنها، حتى خلال الطقوس المقدّسة، لا تقوى على الامتناع عن الضحك.

295

الإله المجهول: نبوغ القلب الذي لذاك المستتر الكبير، للإله المجرِّب، لمن وُلِد ليكون صيّاداً للضمائر، ومن يهبط صوتُه إلى قرارة كلِّ نفس، ومن لا يقول كلمة ولا ينظر نظرة إلّا انطوت على نية خفيّة بالإغراء، ومن يتقن الظهور، لا بما هو عليه، بل بما يُلزم أتباعه أن يلتصقوا به أكثر ويتبعوه بشغفٍ وإخلاصٍ متزايدين أبداً: ـ نبوغ القلب الذي يُسكت كلَّ صاخب وصلف ويعلّمه الإصغاء، الذي يصقل النفوس الغليظة ويذيقها رغبةً جديدة، رغبة بالسكون ملسةً كالمرآة كي تنعكس فيها السماء العميقة، نبوغ القلب الذي يعلّم اليد الخرقاء المتهوّرة التأني والرشاقة؛ الذي يحزر الكنز المخفي والمنسي، قطرةَ الرفقِ والروحيةِ العذبة، تحت طبقة الجليد الكامد السميكة، والذي يكشف كلَّ ذرة ذهب دُفنت طويلاً في سجن كثير الرمل والوحل؛ نبوغ القلب الذي يلمس المرء ليزيده غنى، فينصرف ليس كمن أُغدقت عليه نعمة أو هبة على غفلة، ليس كمن أسعده خير غريب وأثقل عليه، بل كمن صار أغنى في ذاته، جديداً حيال نفسه

ومنفتحاً، كمن لفحه وسبره نسيم يذيب الثلوج وربما كمن بات أقلّ يقيناً وصلابةً وأكثر رقّة وانكساراً، لكن كمن يزخر بآمال جديدة لا اسم لها بعد، وينضح بجديد الإرادة والسيَلان وبجديد التبرّم والتقهقر... لكن ماذا أفعل، يا أصدقائي؟ على من أتكلّم؟ أنسيت نفسي إلى هذا الحدّ ولم أذكر لكم اسمه؟ إلّا إذا حزرتم بأنفسكم من هو هذا الروح والإله المريب الذي يريد أن يُمدح على هذا النحو. وككلٍّ مَن تجوّل منذ نعومة أظفاره وتغرّب، فإني التقيتُ في طريقي أيضاً بعض الأرواح الغرباء الذين لا يخلون من الخطر، وبخاصة ذاك الذي تكلّمتُ عليه ولم أنفك ألتقي به، ألا وهو الإله ديونيسوس بعينه، ذلك الملتبس والإله المجرِّب الكبير الذي رفعت إليه ذات يوم، كما تعلمون، بواكيري بكلّ سرّية وإجلال، بوصفي آخر من رفع إليه قرباناً، على ما يبدو لي، إذ لم أجد أيَّ واحد يفقه ما فعلتُه آنذاك. ومنذ ذلك الحين، تعلّمتُ الكثير والكثير جداً عن فلسفة هذا الإله، وكما قلتُ، علمتُ ما علمتُ من الفم للفم، أنا الحواريّ المطلع الأخير على أسرار الإله ديونيسوس: ألا يجدر بي إذن أن أتكرّم أخيراً عليكم، يا أصدقائي، فأذيقكم قليلاً وبقدر ما يُسمح لي، من هذه الفلسفة؟ وبصوت خافت طبعاً، كما يليق بها: لأنها تدور على أمور سريّة هي وجديدة وغريبة وعجيبة ومرعبة. فأنْ يكون ديونيسوس فيلسوفاً، وأن تكون الآلهة إذن هي الأخرى مهتمّة بالفلسفة، يبدو الأمر لي، في حدّ ذاته، تجديداً لا يخلو من الحرج، وقد يثير الارتياب في أوساط الفلاسفة بالذات، أما بينكم، يا أصدقائي، فسيكون هذا التجديد أكثر قبولاً، إلّا إذا تأخّر وجاء في غير أوانه: لأنكم اليوم، كما قيل لي، لا تحبّذون الإيمان بالله والآلهة. وربّما أرى نفسي مضطراً أيضاً إلى أن أذهب في صراحة

روايتي إلى أبعد مما يروق لآذانكم وعاداتها الصارمة؟ ولا مراء في أنّ الإله المذكور ذهب في سياق حوار من هذا القبيل إلى أبعد، إلى أبعد بكثير، وسبقني دائماً بخطوات عديدة... بل إني كنتُ سأثني عليه عاطر الثناء، لو كان من الجائز أن تُنسب إليه، كما جرى عرف البشر، ألقابٌ فاخرة وفاضلة، مهيبة وجميلة. كنت سأمدح شجاعته في البحث والاكتشاف وجرأته المجازفة في النزاهة والحقّانية وحبّ الحكمة. لكنّ إلهاً من هذا النوع، لا يبالي بكلّ هذا السقط والتفخيم الجليل. وكان سيقول: «دعْ هذا لك ولأمثالك ولمن به حاجة إليه! أما أنا، فلا سبب لي لأستر عورتي!». هل لاحظتم: إن إلهاً وفيلسوفاً من هذا الضرب قد يفتقر إلى الحياء؟. هكذا قال لي مرةً: «في بعض الأحيان أحب الإنسان ـ وعندها كان يلمح إلى أرْيانهِ(*) التي كانت حاضرة ـ، إن الإنسان في نظري حيوان لطيف وباسل وواسع الحيلة، ولا مثيل له على الأرض، وما من متاهة لا يجد فيها طريقاً له. أكنّ له المودّة. وغالباً ما أفكر كيف أجعله يتقدّم، كيف أجعله أكثر قوةً وخبثاً وعمقاً مما هو عليه». «أكثر قوةً وخبثاً وعمقاً؟» سألتُ بهلع. «نعم، ردّد مرةً ثانية، أكثر قوةً وخبثاً وعمقاً، وأكثر جمالاً أيضاً». وإذ ذاك، ابتسم الإله المجرّب ابتسامته الألقاوندية كما لو كان قد تفوّه بلطافة فاتنة. وهنا ستلاحظون أمراً ثانياً: إن هذا الإله لا يفتقر إلى الحياء وحده؛ وثمة عموماً أسباب وجيهة تحمل على الظن أن الآلهة جميعاً قد تستفيد، في بعض النقاط، من التتلمذ على يدنا، نحن الإناس. فنحن الإناس أكثر... إنسانية...

(*) أرْيان: Ariane.

296

حكمة وزراء الصين: آه، ماذا يحل بكِ يا أفكاري التُكْتب وتُرسَم! منذ قليل كنتِ زاهية وفتيّة وشقيّة، وكلّك أشواك ونكهات سرّيّة تجعلني أعطس وأضحك. والآن؟ لقد خلعتِ جديدَك، وبعض منك، على ما أخشى، في صدد أن يصير من الحقائق: وها هو يلبس لباس الخلود، فيا لشبه الاستقامة الذي يشفِّق القلب ويُضجر! وهل كان الأمر يوماً على غير ذلك؟ وما هي الأشياء التي ندوّن، نحن الخفافيش بريشتنا الصينية، نحن مخلّدي الأشياء التي تدعنا ندوّنها، ما هو الأمر الوحيد الذي نتقن رسمه؟ آه، إنه دائماً ما يذبل أو يكاد، ما تضوّع أريجه وتبخّر! آه، إنها دائماً رعود وبروق خابية وواهنة، أحاسيس آفلة مصفرّة! آه، إنها دائماً طيور أوهنها التحليق وأضلّت الطريق فيمكن لنا أن نمسكها باليد. بيدنا! إننا نخلّد ما لا يقوى على الحياة والتحليق طويلاً، أشياء متخمّرة وتعبة وحسب!. لأصيلكِ وحسب، يا أفكاري التُكْتَبُ وتُرسَم، وله وحده أملك الألوان، كثيراً من الألوان ربما، حناناً وعطفاً ملوّناً وفيراً، خمسين تلويناً من الأصفر والبنيّ والأخضر والأحمر. ـ لكن لا أحد سيعرف من لوحتي كيف كنتِ في صباحكِ، يا آيات وحدتي وشراراتها المفاجئة، كيف كنت في صباحك، يا أفكاري القديمة العزيزة ـ يا أفكاري الخبيثة!

من الجبال الشامخة

أنشودة ختام

يا ظهيرة الحياة! يا زمن الحبور!
يا حديقةً صيفيّة!
يا سعادةً قلقة في الرصد والترقّب والاستطلاع: ـ
أنتظر الأصدقاء، مستعدّاً في الليل والنهار،
أين أنتم يا أصدقاء؟ تعالوا! آن الأوان! آن الأوان!

ألا تتزيّن القمم الثلجية الشيباء
بالورود اليوم من أجلكم؟
ها هو الجدول يبحث عنكم، والسحب والرياح
بشوق غامر إلى أعالي الزرقة تندفع
لتبصركم من أبعد فضاء تبلغه الطيور.

في أعلى الأعالي مُدّت لكم مائدتي: ـ
من ذا يقيم قرب النجوم
وقرب أرعب الهُوى غوراً؟

ملكوتي ـ وأيّ ملكوت أعلى منه شموخاً؟
وشهدي ـ من له أن يذوقه؟...
ـ ها أنتم، يا أصدقاء! ـ لكنّي أنا لستُ
من إليه تأتون
لِمَ الدهشة والتردّد؟ ـ يا ليتكم تغضبون!
وأنا، ألم أعد أنا؟ هل تغيّرت اليد والخطوة والوجه؟
وما أنا عليه، ألستُ عليه عندكم، يا أصدقاء؟

هل صرتُ آخر؟ وعن ذاتي غريباً؟
هل خرجتُ من ذاتي؟
كالمصارع الذي قهر نفسه مراراً؟
الذي أفرط في التصدّي لقواه الخاصة،
فبدا مجروحاً ومكبّلاً بانتصاره الخاص؟

أبحثُ حيث الرياح على أشدّها تهبّ؟
أتعلّمتُ أن أُقيم
في قفار الدببة القطبية، حيث لا أحد يُقيم؟
أنسيتُ الإنسان والله واللعنة والصلاة؟
أغدوتُ شبحاً يطوف فوق القمم الثلجية؟

ـ أيها الأصدقاء القدامى! ها أنتم شاحبون،
الحب والهلع يغمرانكم!
لا، امضوا من دون ضغينة! هنا ـ لا يمكنكم المكوث:
هنا في أبعد ربوع الثلوج والصخور،
هنا على المرء أن يكون صياداً وخفيف غزال.

يا لي من صياد خبيث! انظروا كم هي
مشدودة قوسي!
الأقوى هو من شدَّها هكذا
لكن، يا للهول! خطِر هو هذا السهم
ولا مثيل له، ـ فمن أجل سلامتكم! اهربوا!

أفعلاً تنصرفون؟ ـ يا قلبي كفاك عذابا،
قوياً ظلّ أملُكَ:
خلِّ للأصدقاء الجدد أبوابك مفتوحة!
دع القدامى! ودع الذكرى!
وإنْ ذات يوم كنت فتياً، فأنت الآن أحسن فتوّة!

ما جمعنا يوماً أرابط الأمل الواحد؟ ـ
من يقرأ العلائم
التي خطّها الحب يوماً عليه حين تَبْهَت؟
بالبرشمان أشبّهها، ذلك الذي اليد
تأبى لمسه ـ مِثْله مصفرّة هي ومحروقة.

لم يعد هؤلاء أصدقاءَ، بل ـ كيف أقول ذلك؟ ـ
مجرد أشباح أصدقاء!
شيء ما مِنهم لا يزال يقرع ليلاً القلب والشبّاك،
شيء ما ينظر إليّ ويقول: «بلى، نحن من كانو!» ـ
ـ يا للكلمة الذابلة التي فاح منها يوماً عطر الورود!

يا لشوق الشباب الذي أساء الفهم!

إن من اشتقتُ إليهم
من ظننتُهم أقرباء وأشباهاً لي،
نُبذوا، لأنّهم شاخوا:
من يتبدّل وحده يبقى قريبي.

يا ظهيرة الحياة! يا زمن الشباب الثاني!
يا حديقةً صيفيّة!
يا سعادةً قلقةً في الرصد والترقّب والاستطلاع!
أنتظر الأصدقاء، مستعداً في الليل والنهار،
الأصدقاءَ الجدد! تعالوا! آن الأوان! آن الأوان!

هذه الأنشودة انتهت، ـ وصيحة الشوق العذبة
اختنقت في الفم:
ساحر من فعل ذلك، صديق يأتي في أوانه،
صديق الظهيرة ـ لا، لا تسألوا من هو ـ
عند الظهيرة صار الواحد اثنين...

الآن نحتفل، على يقينٍ من النصر المشترك،
بعيد الأعياد:
الصديق زرادشت، ضيف الضيوف جاء!
الآن تضحك الدنيا، الستار المرعب انقشع،
وعرس النور والدجى حان...

ملحق

ثبت بأهمّ المصطلحات
معالم في سيرة نيتشه

ثبت بأهم المصطلحات

ألماني – عربي

A

Affekt	أُشعور
Anähnlichung	تماثل
Auflösung	إنحلال
Augenschein	الـ على ما يبدو
Ausgleichung	تسوية المستوى
Autorität	سلْطة

B

Begriff, (e)	أُفهوم، أفاهيم

D

Degenereszens	نكوص

Dekadenz	إنحطاط

E

Entartung	إرتداد عن النوع

F

fühlen	شعور
Fälschung	تزييف

G

Gefühle	مشاعر
Geist	روح (بصيغة مذكّر)
geistig	روحي
Geistigkeit	روحية
gemein	عاميّ
Gemeinheit	عاميّة، سوقية
Gewissen	وجدان
gleich, Gleichheit	سواسية
Grausamkeit	سبْعية
Grundtriebe	غرائز أصلية
Grundtyp	طراز أساسي
Grundwillen des Geistes	إرادة الروح الأصلية
gut (-böse)	خيّر (شرير)

gut (= schlecht)	حسن (سيّء)
Gütertafel	لوحة قيَم الخير

H

Haushalt	مؤونة
Herdentier	حيوان القطيع
Herdentier-Moral	أخلاق حيوان القطيع
(höher), höherer Mensch	إنسان أعلى

I

Instinkt	فِطْرة

M

Macht	قُدْرة
Mächtigen	قادرون
Mächtigkeit (des Typus)	أوج قدرة (الطراز)
Mitleid (en)	رحمة، تراحم
mittelmässig	وسطيّ
Mittelmässigkeit	وسطيّة
Missgeburt	طَرْح
Moralen	مذاهب الأخلاق

N

Nivellierer	سواسيّون

P

Pathos (der Distanz)	روع المسافة
Perspektive	منظور
perspektivisch	منظوري
Perspektivische	منظورية
Plebejismus	رعاعية

R

Rangordnung	تراتبية
Redlichkeit	إستقامة

S

Schein	تظاهر، تراء
scheinbar	متراء
Selbsterhaltungstrieb	غريزة البقاء
Selbstüberwindung der Moral	تخطّي الأخلاق لذاتها
Stoffwechsel	أيْض

T

Trieb	غريزة
Triebleben	حياة غريزية
Typenlehre	طرازيّات

U

Umkehrung (der Werte)	قلب (القِيَم)
Umwertung (der Werte)	إعادة تقييم (القِيَم)

V

Verdüsterung	تقتيم
Verfall	إنحطاط
Verflachung	تسطيح
vergeistigen, Vergeistigung	رَوْحَنَ، روحنة
Verhässlichung	تقبيح
Vermenschlichung	تأنيس، تأنّس
Vertierung	تحيون، حيونة
Verweichlichung	ترهيل
Verzärtlichung	توهين
Vordergrunds philosophie	فلسفة الواجهة
Vordergrunds schätzungen	تخمينات سطحية

W

wahrhaftig, Wahrhaftigkeit	حقّاني، حقّانية
Wertgefühle	مشاعر قيمية
Wertgegensätze	أضداد القيم
Werturteile	أحكام قيمية
Wesen	جوهر، ماهيّة
Wille(n)	إرادة
Wille zur Macht	إرادة القُدرة
Wissen	عِلْمان
Wollen	اليُريد، إرادة

Z

Zucht, Züchtung	تأدّب، تأديب

عربي - ألماني

أ

Vermenschlichung	تأنيس، تأنّس

ح

gut (-schlecht)	حسن (سيء)
Werturteile	إنحطاط

wahrhaftig, Wahrhaftigkeit	حقّاني ، حقّانية
Auflösung	إنحلال
Vertierung	تحيون ، حيونة

خ

Moral	أخلاق
Moralen	مذاهب الأخلاق
Herrenmoral	أخلاق السادة
Sklavenmoral	أخلاق العبيد
Herdentiermoral	أخلاق حيوان القطيع
Moralist	أخلاقي
moralischer Pedant	متأخلِق
Vordergrundsschätzungen	تخمينات سطحية
perspektivischeSchätzungen	تخمينات منظورية
gut (böse)	خيّر (شرير)

ر

Rangordnung	تراتبية
Mitleid(en)	رحمة ، تراحم
Vermürbung	تراخٍ
Entartung	إرتداد عن النوع
Plebejismus	رعاعية
Verweichlichung	ترهيل
Geist	روح (بصيغة المذكّر)

freier Geist	روح حرّ
geistig Beschränkte	محدودو الروح
Tölpel des Geistes	بلهاء الروح
Geistigkeit	روحيّة
vergeistigen, Vergeistigung	رَوْحن، روحنة
Wollen	اليريد، إرادة
Wille(n)	إرادة
Grundwillen des Geistes	إرادة الروح الأصلية
Wille zur Macht	إرادة القدرة

ز

Fälschung	تزييف

س

Grausamkeit	سبْعية
Verflachung	تسطيح
flach, verflacht	مسطّح
Macht	قدرة
Mächtigen	القادرون
Gemeinheit	عاميّة، سوقية
Gleichheit, gleich	سواسية
Nivellierer	سواسيّون

ش

Affekt	أُشعور
Fühlen	شعور
(Wert) gefühle	مشاعر (قيمية)

ع

Wissen	عِلْمان
Höherer Mensch	الإنسان الأعلى
Erhöhung	إعلاء
gemein	عاميّ

غ

Trieb	غريزة
Selbsterhaltungstrieb	غريزة البقاء
Triebleben	حياة غريزية

ف

Instinkt	فِطْرة
Begriffe, e	أفهوم، أفاهيم

ق

Verhässlichung	تقبيح

Verdüsterung	تقتيم
Herdentier	حيوان القطيع
Umkehrung (der Werte)	قلب (القيم)
Umwertung (der Werte)	إعادة تقييم (القيم)
Redlichkeit	إستقامة

ل

Gütertafel	لوحة قيم الخير

م

Haushalt, Seelenhaushalt	مؤونة، مؤونة النفس
Gesamthaushalt des Lebens	مجمل مؤونة الحياة

ن

Perspektive	منظور
perspektivisch	منظوري
Perspektivische	منظورية
Degenereszens	نكوص

و

Gewissen	وجدان
Vordergrunds philosophie	فلسفة الواجهة
mittelmässig	وسطيّ
Mittelmässigkeit	وسطيّة
Verzärtlichung	توهين

معالم في سيرة نيتشه

1844 في 15 تشرين الأول/نوفمبر: ولادة نيتشه في بلدة روكن بسكونيا.

1849 موت والده الذي كان قسيساً.

1850 ينتقل مع والدته وشقيقته إلى مدينة ناوْمبورغ.

1858 يدرس في مدرسة پفورتا، (Pforta)، الشهيرة (من تلاميذها فيشته وشليغل ونوڤالِش). نيتشه التلميذ المجتهد الموهوب، يحب النظام الصارم في هذه المدرسة الداخلية التي كانت تنشّىء الجيل الجديد من العلماء الألمان. يحاول تأليف الموسيقى.

1864 ينتقل إلى بون لدراسة اللاهوت والفيلولوجيا.

1865 يكمل دراسته عند أستاذه ريتْشْل، (Ritschl). يكتشف شوبنهاور من خلال قراءة كتابه «العالم كإرادة وتصوّر».

1868 أول لقاء مع ريشارد ڤاغنر، حول الموسيقى وفلسفة شوبنهاور.

1869 يعيَّن بتوصية من ريتْشْل أستاذاً للفيلولوجيا الكلاسيكية في جامعة بازِلْ (بسويسرا). هنا تبدأ علاقة الصداقة القويّة بينه وبين ريشارد ڤاغنر. يغرم بكوزيما التي ستصبح زوجة ڤاغنر.

1870 يشترك كممرّض في الحرب الألمانية الفرنسية.

1872 ينتهي من كتابة **ولادة التراجيديا عن روح الموسيقى**. أعمال نيتشه الأولى متأثرة بأفكار ڤاغنر (الذي كان من عمر والده) وشخصيته القوية.

1873 الجزء الأوّل من كتابه **تأمّلات غير راهنة** بعنوان «داڤِد شتْراوس المعترِف والكاتب».

1874 الجزء الثاني بعنوان **في فائدة التاريخ وضرره بالنسبة إلى الحياة**. الجزء الثالث: **شوبنهاور كمربٍّ**.

1876 **الجزء الرابع: ڤاغنر في بايْرويْت.**

1868 **إنساني مفرط في الإنسانية. كتاب للأرواح الحرة**. بهذا العمل يبدأ نيتشه مسيرته الخاصة باتجاه «التحرر الذاتي» (التحرر من ڤاغنر وتأثيره ومن مؤسسة الجامعة وحياة العالم المستقرة)، وهي مسيرة تقوده إلى «مناطق خطرة» على حدّ قوله.

1879 يستقيل من منصبه في جامعة بازِلْ بسبب حالته الصحية السيّئة. حياة جديدة في التجوال بين شواطىء إيطاليا وفرنسا وجبال سويسرا بما يناسب مزاجه النفسي والصحي.

1880 **إنساني مفرط في الإنسانية**، الجزء الثاني. يقيم للمرة الأولى في البندقية. «الفجر». يكتب: «بهذا الكتاب أبدأ حملتي على الأخلاق». يقضي الصيف في سيلْس ماريا.

1882 لقاء مع لو سالوميه (التي ستصبح رفيقة ريلْكه وتلميذة فرويد). يعرض عليها الزواج. لو ترفض وتفضّل عليه بول ريه. نيتشه يغذّ السير نحو «قدر المتوحّد». ينتهي من كتابه **بهجة العِلم**.

1883 يكتب الجزء الأول من **هكذا تكلّم زرادشت** (فكرة العود الأبدي).

1884 يعمل على تكملة **هكذا تكلّم زرادشت**.

1885 إصدار الجزء الرابع لـ **زرادشت**.

1886 **ما وراء الخير والشر**.

1887 **أصل الأخلاق وفصلها**. ثلاث مقالات حول سيكولوجيا المسيحيّة والضمير وحول الأمثل الديني، أي الزهد في الدنيا.

1888 يسكن في تورينو. يكتب من أيار/ماي إلى آب/أوت: «قضية ڤاغنر». من آب/أوت الى أيلول/سفتمبر: «**أفول الأصنام**» (أو كيف يُتفلسف بالمطرقة). من تشرين الأول/نوڤمبر إلى تشرين الثاني/أوكتوبر: **هذا هو الإنسان**. في كانون الأول: **نيتشه ضد ڤاغنر**.

1889 في كانون الثاني/جانڤي: يصاب بنوبة قوية وينقل إلى مستشفى للأمراض العقلية في بازل.

1897 يعيش بعد موت والدته عند شقيقته في ڤايْمار.

1900 يموت نيتشه في 25 آب/أوت بعد مرضه الطويل الذي حوّله إلى حيّ ميت وكان آخر ما حاول تدوينه خلال سنوات «الجنون» هذه هو الأبيات الأولى للقصيدة من **الجبال الشامخة** الملحقة بـ **ما وراء الخير والشر**.

« هذا الكتاب، في جوهره، نقد للحداثة لا تستثنى منه لا العلوم الحديثة ولا الفنون الحديثة ولا حتى السياسة الحديثة. وهو إلى ذلك يضع الإصبع على طراز معاكس قليل الحداثة، طراز نبيل يقول: نعم. والكتاب بهذا المعنى الأخير مدرسة لابن الحسب والنسب، بالمفهوم الأكثر روحية والأكثر جذرية الذي أعطى لهذا اللفظ حتى الآن. فعلى المرء أن يتحلّى برباطة الجأش كي يتمكّن من مجرد احتماله، وعليه أن لا يكون قد تعلّم الخوف قطّ... إن الأشياء التي يفخر بها هذا العصر جميعها تُحسّ بمثابة النقيض من هذا الطراز، وبمثابة قلّة تهذيب تقريباً. ومثالها: الموضوعية الشهيرة، والعطف على كلّ ما يتألّم، والحسّ التاريخي بانصياعه لذوق الغير وانبطاحه أمام الوقائع العلمية الصغيرة»

نيتشه

ISBN 9953-438-60-9
9 789953 438603